

التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة 11 - العددان 43-42

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

المددان : ٤٢ - رجب ١٤١١ هـ - كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ م
٤٣ - شوال ١٤١١ هـ - نيسان (أبريل) السنة العادية عشرة

رئيس التحرير
د. عبد الكريم اليافي

المدير المسؤول
علي عقله عرسان

أمرين التحرير
عبداللطيف أرناووط

هيئه التحرير

د. عدنان درويش
د. محمد زهير البابا
د. محمود السيد

د. إبراهيم الكيلاني
د. ادهم السمان
د. عدنان البني

ترسل المواد والراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٣٣٠ - ٢٦٦٧٩٩ - ٢٦٦٣٣٩





مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanearb.com رابط بديل

المواضي المنثورة في المجلة تغير عن رأي أصحابها

الاشتراك السنوي

د. داخل القطر	للافراد	لـ ١٠٠ ل.س
في الأقطار العربية	د	٢٠٠ ل.س أو (١٠) دولار أمريكي
خارج الوطن العربي	د	٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أمريكي
الدوائر الرسمية داخل قطر	د	٢٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي	د	٣٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أمريكي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	د	٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أمريكي
أعضاء اتحاد الكتاب	د	٥٠ ل.س.

■ الاشتراك يرسل حواله بريدية او شيئاً او يطبع نسخاً الى : (محاسب مجلة التراث العربي)

الإخراج الفني : أكرم أفسدار

المحتويات

- الميراث الديمغرافي العربي للحضارة العربية الإسلامية د. عبد الكريم الياني ٧
- عصر الترجمة والمصر النهبي للطب العربي د. عبد الرزاق الشقفي ٩٤
- الحرف العربي بين الأصالة والحداثة حسن عباس ٨٠
- سيد قريش - رواية بين الواقع التاريخي والواقع الفني عبد اللطيف أرناؤوط ١٠٤
- طائر سليمان عليه السلام - المُهْمَد نادية الفرزلي ١٢٨
- اللغة العربية والاصطلاح العلمي د. وليد سراج ١٤١
- الجملة الفعلية والجملة الاسمية صلاح الدين الزملاوي ١٥٢
- الشاعر القطامي سكينة الشهابي ١٧٢
- ثابت بن قرة - أبو الحسن ١٨١
- الشعر الشعبي النفائي - في الفراتين والبادية دراسة : عبد الفتاح للعبجي ١٩٣
- ديوان ابن أحمر ومصادر شعره محمد معن الدين مينو ٢١٦
- استدراك على ديوان ديك الجن الحمصي غير الدين شمسى باشا ٢٣١

الميراث الديمغرافي العَرَبِيُّ

للحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافي

توضيحة

يتناول هذا البحث ديمغرافية الوطن العربي أي سكانه من الوجهة الكمية والاحصائية في الوقت الحاضر . ولنقتصر الديمغرافية بتغذيف الياء لفظ أجنبي معرب حديثاً يختلف من أصلين يونانيين معناهما وصف الشعب أو وصف السكان . وقد راج للدلالة على علم يتناول المجتمعات البشرية من حيث جمومها وتركيب كل منها وخصائصه ولا سيما من النواحي الكمية . وهو أحد العلوم الاجتماعية العديدة . ويقال له أيضاً علم السكان . وتعنى نستعمل التقنيات العربية والأجنبية المقربة وتنسب اليهما فنقول سكاني . والنسبة الى الجمع واردة في اللغة العربية ، كما تقول ديمغرافي . هذا ولكل علم مصطلحاته وتصوراته ودلائله المحددة . ونظراً لذلك وتعريباً للدلالة تطرق الى شرح بعض المصطلحات فيه لبيان ما يراد منها هند ورووها في هذا البحث . ولا يخلو هذا التطرق من فائدة . وإنما نريد أن نحدد واقع الميراث الديمغرافي العربي المتتطور ونجلو في الوقت نفسه معالم المجتمع العربي البشري ، ونشير الى ملخص المشكلات المترتبة وننبع في بعض الشؤون العلمية والاصطلاحية .

تستند الدراسات السكانية الى ثلاثة مصادر مهمة : وهي اولاً « التعداد » الذي يتناول جميع السكان في بلد من البلدان وفي وقت واحد ويقال له « تعداد عام » . ولكن قد يجري تعداد صنف من السكان لفرض من الأغراض او تعداد في جزء من البلاد فيقال له « تعداد جزئي » . ولا يقتصر التعداد على مجرد العدد واعطاء رقم المجموع بل يبين توزع الناس في المناطق ويستعلم ببعضها من صفاتهم وخصائصهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها .

فالاطلاع على ذلك كله بالاحصاء في زمن من الازمان هو الاطلاع على ما يسمى في الديمغرافية « حالة السكان » . حالة السكان هذه اذن كانها صورة ضوئية لهم مأخوذة من الوجهة الاحصائية في وقت من الاوقات .

وللتعداد طرق وشروط وانواع معروفة ومتداولة في كتب الاحصاء . ولكن الشعب ليس ثابتًا بل هو متغير دائم التغير وذلك بالولادات والوفيات والتقدم في العمر وبتغير العال المدنية بازواج والطلاق والترمل ، ثم كذلك بالهجرة الى البلد وبالهجرة منه . ومجموع هذه التغيرات يدعى « حركة السكان العامة » .

فإذا كانت حالة السكان تشف عن الجانب السكוני منهم فان حركتهم بهذا المعنى الديمغرافي الذي حددناه تشف عن جانبهم المتتطور اي الدينامي .

والتغير العددي العاصل بالولادات والوفيات فقط بصرف النظر عن الهجرة يدعى « حركة السكان الطبيعية » وما كانت المؤايد تربو على الوفيات غالبا في المجتمعات قبل لهذه الحركة « نمو السكان الطبيعي » اي زيادتهم الطبيعية .

وباعتبار حركة الهجرة يلخص الشعب مثلا اذا كان لا يتلقى هجرة من خارجه ولا تصدر عنه هجرة الى الخارج ، ومتى اراد تناوله الهجرة منه واليه .

واذا أضيفت حركة الهجرة الى حركة السكان الطبيعية قيل كما سلف للمجموع « حركة السكان العامة » .

وتم معرفة حركة السكان بضبط الاحوال المدنية او الاحصاء المبوبي⁽¹⁾ وبطاعة هذا الاحصاء في سجلات دوائر التسوس او مكاتب الصحة حسب التسمية الرائجة في البلد العربي . والاحصاء الحيوي او ضبط الاحوال المدنية هو المصدر الثاني الذي يستند اليه علم السكان .

كانت الدولة في الزمن السابق تتالت من فئات وهيئات اجتماعية كالأسر والطوائف والنقابات مرتبة على شكل هرم تقويم في رأسه الدولة . وكل اتصال للدولة بالافراد كان يتم بطريق تلك الهيئات والفتات فاذا رغبت الدولة مثلا في فرض ضرائب مالية او توزيع مكافآت عامة عمدت الى تلك الجماعات وهذه هي التي توزع تلك المكافآت على افرادها او تتطلب مقدار الضرائب المالية منهم . وكذلك اذا اضطررت الدولة قدما الى التعبئة العسكرية كانت تقتضي ملاكي الاراضي والطوائف والاسر نصيبة مفروضا من الجندي .

ثم لما توطن الاحصاء الحيوي وتم ضبط الاحوال المدنية وتواتر التعداد في الدولة كل عشر سنوات او قريبا من ذلك والفت الناس ازداد اشراف الدولة المباشر على الافراد . وهكذا القرن تقدم الاحصاء الديمغرافي بتقدم اهمية الفرد ومكانته في التنظيم الاجتماعي عاما .

والدولة العديدة في العصر الحاضر على الرغم من أهمية النقابات والشركات وغيرها من المؤسسات والهيئات تقيم للفرد وزنه وتعلن شأنه و تستطيع الاتصال به فورا اذا

القتضت الحال . ولهذا أيضاً مع نشوء التعداد ازدادت المعلومات التي تتطلبها الحكومة الحديثة عن الأفراد لأنها مسؤولة عنهم ، تهم جميع شؤونهم الديمغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية والصحية وغيرها .

وبالجملة فان التعداد ضروري لحسن ادارة الدولة وتصريف امورها وتوجيه شؤونها توجيهاً صحيحاً في مختلف الميادين وذلك بمعرفة عدد السكان اي حجمهم وعمرها اعمارهم وجملة من صفاتهم الثقافية والاقتصادية والصحية وأمثالها .

وكذلك ضبط الاحوال المدنية وتسجيل المواليد والوفيات والزواج وهلم جرا كل ذلك ضروري لتتبع حركة الشعب هل هو في زيادة او نقصان او ثبات ، ولهذه تلافي الأمراض وتحسين صحة الأفراد ورعايتها تموه الفكر والجسمي وحساب افواهم وفتن اعمارهم . وذلك كله يدخل في سياسة الدولة الديمغرافية .

وثمة مصدر ثالث يستند اليه علم السكان وهو ما يدعى بالمسح او الاستعلام وهو يتطلب معلومات في موضوع خاص وله غرض ، كالاستعلامات عن الولادات والوفيات في أي حدود هي وعن العمال مثلاً كم عندهم بين السكان او عن الأمية الى اي مدى هي متقدمة مثلاً . ولا بد في الاستعلام هذا من اعتماد جزء من السكان يستطيع ان يمثلهم جميعاً تمثيلاً يعده حساب الاحتمال . وهذاالجزء يدعى بالعينة . والمسح بالعينة يلخص اعياناً وينتجها اليه عند الحاجة . بالتحديد الذي ييرز حالة السكان وبالاحصاء العيوي الذي يتبع حركتهم وبالمسح الذي يستعلم بعض خصائصهم وصفاتهم تيسير معرفة السكان وجملة قضاياهم وشؤونهم . وفي طليعة هذه المعرفة تقدير عددهم وحساب كافتهم .

* * *

سُكَّانُ الْعَالَمِ

المفید یادیء ذی یمی معرفة حجم سکان العالم اذا اردنا ان ندرس
حجم سکان الوطن العربي لكي ندرك نسبتهم في المجموع ونقدر
مکانتهم بينهم ونستشف الشاو المتاح لهم ان یبلغوه في المستقبل .

ذلك ان الانسانية على وجه الأرض كالكائن الحي تتطور وتنمو وتنسع . وهي
في هذا الاتساع والنمو والتتطور تجري في اوصالها وشائع الحياة المشتركة
حقيقة وظاهرة .

ان التضامن بين شعوب النوع الانساني كان ولا يزال دائماً أعمق مما يظن
وأشد مما يقدر ، على الرغم من العروبة الفتاكة ، وعلى الرغم من عداون الانسان
في بعض الأحيان على أخيه الانسان .



ولقد ذهب فريق من الفلسفه القدماء أمثال الرواقين وهم طائفة من فلاسفة اليونان الى أن الكون عبارة عن حيوان كبير أي جسم حي ضخم بالغ الضخامة ، وذهب مفكرون آخرون أمثال اخوان الصفا في الحضارة العربية الاسلامية الى أنه انسان كبير اشاره منهم جميعاً الى سر الحياة المبثوثة في جوانب العالم كلها . ونحن هنا يعيدين من أن نذهب هذا المذهب الميتافيزيائي الصرف . وانما نكتفي فنتنوه بالأوصاف التي تربط بين الناس على المعمورة ، وباستفاده بعضهم من تجارب الآخرين في مختلف اليادين مادية وروحية ، واتباسهم شعلة التراث الانساني جيلاً عن جيل وحمل بعض الأمم ثبراسها بعد بعض ، وزيادة ايقاد تلك الشعلة لتبييد الجهل والظلم ، وتقليل البؤس والشقاء ، وللتحرير من الافتئات والاستغلال ولتوطيد أركان السلام ، واسbag التعاون والوئام ، والسمى للوصول الى حياة كريمة واسعة فاضلة .

ولم يكن الناس أشد شعوراً بالأوصاف التي تصل بينهم وتجمع بين قلوبهم وأماتيهم منهم في هذا العصر العديث على الرغم من التشدد الظاهر والتنافر الكامن . فلقد ازداد عددتهم ازيداً كثيراً ، وتقديموا في ميادين العلم والصناعة ، وتفننوا في الوسائل الداعية الى التعارف ، فانتشرت الصحف والمجلات التي تحمل أخبار المجتمعات انتشاراً واسعاً ، وشاعت الاذاعات التي تبث أمواجاها فتبليغ كل مكان على المعمورة ووصل الهاتف السلكي واللاسلكي بين الأقطار المتعددة وصلة بين الأقطار الدانية . ثم ان القاطرات والسيارات والسفن وعابرات المعيبط والطائرات الروحية والنفاثة قربت بين جوانب الأرض ، ويسرت الرحلات والأسفار واختصرت الأزمنة والمسافات . ولا ينفك العلم والتقانة يتقدمان تقدماً مطرداً ومستمراً . ورافق ذلك كله أن اشتدا الاهتمام بالأمور الاقتصادية في العصر الحاضر فعمدت الدول الى زيادة الانتاج وتحسينه والى تبادل السلع والغلال والى البحث عن الأسواق استيراداً وتصديرأً . وكذلك اشتد التسابق في مضمار الثقافة والابتكار والتفنن كما اشتد الاتبااه للأحداث السياسية في مختلف البلدان ، اذ أصبح العدث السياسي في قطر لا يعد له صدى وأثراً في بقية الأقطار وسائر الشعوب .

وكما أن ارتباط الأمور الثقافية والاقتصادية والصناعية والصحية بعضها البعض واضح لا ريب فيه في القطر الواحد كذلك بدأ يتضح في العصر الحاضر ارتباط هذه الأمور في القطر بأمثالها في القطر الآخر وفي البلد القريب والبعيد للسهولة المبدئية في التنقل والسفر والاتصال والنشر والاذاعة والتلفزيون . حتى ان اقامة بعض البلدان حوايل في هذه السبيل تشير الى هذا الارتباط حين تحاول تعامي التأثير بما يجري في البلد الآخر على ميدان الثقافة أو السياسة أو الدعاية أو التجارة أو غيرها .

ولا بد في هذه الدراسة السكانية من ايراد الأرقام المناسبة لأنها مستند لل الفكر ومحتملة للمقاييس والموازنات وسبيل للتدقيق وأداة للتتبّع إلى بعض الجوانب الاجتماعية وإن كانت الأرقام أنفسها مرئية التغير مع أحوال المجتمعات وصروفها . ولذلك يلزم في العين بمعذلين مراجعتها وتتجديدها .

ولا يستطيع ايراد الأرقام في ذاته أن يشف عن سريان الحياة الاجتماعية والفكرية المشتركة في الشعب الواحد ولا عن سريانها بين الشعوب والأمم . وإنما قصاراه أن يبرز مدى اتساع الأطهر الديمغرافية التي يؤلفونها والتي تجري فيها الظواهر الإنسانية .

ونذكر فيما يأتي عدد سكان العالم كله وكذلك سكان القارات وسكان الوطن العربي جملة في الوقت الحاضر ، كما نذكر المساحات التي يعمرونها وكثافاتهم وقدرتهم حتى عام ٢٠٠٠ .

وكما أنه حين نجري قياساً في العلم يلزم أن نذكر مدى ضبطه ودقته كذلك من المناسب أن نشير إلى أن تلك الأرقام المذكورة تقريرية ، وليس دقة كل الدقة ولا مضبوطة تمام الضبط . فليست إحصاءات السكان في مختلف بلدان العالم على درجة واحدة من الجودة والتدقيق . ونعني حين نجمع أرقام تلك الاحصاءات لا نجمع أرقاماً متماثلة في درجة الدقة . ثم ان أصول التعداد التي استند إليها تقدير السكان تتفاوت بتفاوت البلدان . وكذلك ضبط الاحصاء العيسي أو التسجيل المدني الذي يعول عليه الحاسوبون ليس واحداً . وليس أعداد السكان وخصائصهم ثابتة بل هي رهن التغير والتبدل بالمواليد والوفيات والهجرة كما

سلف . وهي حركات دائمة مستمرة . فالأرقام التي تقدم في تقدير سكان العالم وكثافة الأرض وسكان القارات وكثافاتها ينبغي أن تعتبر دائماً أرقاماً تقريرية . ولا يستطيع أحد أن يقول لنا مثلاً إن عدد سكان الأرض أو سكان قطر من الأقطار هل هو في وقت ما زوج أم فرد لأن كلتا العالين محتملة بسبب التغير الدائم والتجدد الدائم .

وليس التقرير يقادح في قيم تلك الأرقام ولا في جدواها . بل على العكس إن جميع تلك الأرقام ومعالجتها على قواعد علمية ركينة ورصينة وتفهم نتائج المعالجة وتبيّن دلالاتها تشف عن جهود كبيرة بذلتها هيئات محلية وإقليمية وعالمية ، وتشير إلى تقدم علمي بالغ يتناول هذه المقادير المشتتة الضخمة الواسعة ويستطيع أن يستوعبها وأن يتعرف خصائصها في تطورها وأن يتوقع ما تشير إليه وأن يضبط هذه الضرورة وأن يوجهها حيث تعم الجدوى ويتسع النفع وتتيسر المصحة ويلع النمو شاؤه وغايتها . وإنما قدمنا هذه المقدمة مع هذا الجدول العالمي تمهيداً لدراسة سكان الوطن العربي الذي هو موضوع هذا البحث .

تقدير سكان العالم والقارات والوطن العربي

الكتلة	المساحة بالوف	عدد السكان بالألاف في السنوات			
		١٩٨٨	١٩٩٠	٢٠٠٠	
العالم	الكميلترات المربعة	٦١٢١٨١٣	٥٤٤٦٢٠٩	٥١١٢٢٩٨	
آسيا	١٣٥٧٤٧	٣٥٤٨٩٩٤	٣٥٧٦٤٩	٣٩٩٥٨١٢	
الغرقية	٢٧٥٧٢	٣٠٣١٣	٨٧١٨١٧	٦٦٥٢٨٢	
أمريكا	٢٠	٨٥٠٩	٠٣٠٦٢	٢٦٤٦٧	
أوربة مع	١٧	٤٢٠٧٨	٨٤٣٧٣٠	٧٢٦٣٩٧	
الاتحاد السوفيتي	٢٩	٢٧٦٧٦	٨٢٧٢١٠	٧٩٠٤١٤	
الوطن العربي	١٦	١٣٧٠٨	٢٨١٤٠٦	٢١٧١٠٨	

أعد هذا الجدول، بالاعتماد على المؤليتين
1988 World Health Statistics Annual (WHO)
1988 Statistical Yearbook (Unesco)

سكان الوطن العربي

تزيد مساحة الوطن العربي على ١٣٧ مليون كيلو متر مربع ويقارب عدد سكانه ٢١٨ مليون نسمة ، فهو أوسع بلاد العالم التي تسكنها أمة واحدة اذ تربو مساحتها على عُشر مساحة المعمورة^(٢) . ويزيد مرتين ونصف المرة على مساحة أوربة^(٢) ومرة وثلث المرة على بلاد الصين ، ويقاد يعادل مرة ونصف المرة

مساحة الولايات المتحدة الأمريكية . أما سكانه فيبلغون — من سكان المعمورة .
٢٥

وهو يقع في أهم مناطق الأرض اذ يصل بين قارات ثلاث . وهو يشغل شمالي افريقيا وغربي آسيا . ويقع ثلثانه تقريباً في القارة الأولى وباقيه في الثانية . وهو يتراوح من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي وبعر عُمان والمحيط الهندي مستعماً على الشاطئين الشرقي في جهة والجنوبي المطلوب من البحر الأبيض المتوسط في جهة ثانية ومستوعباً البحر الأحمر . وهو يشرف على منطقة اتصال المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط في مضيق جبل طارق ، وعلى منطقة اتصال البحر الأحمر ومن ورائه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي بالمحيط الهندي في مضيق باب المندب . ففي يَدِي الوطن العربي مفاتيح هذه البحار كلها . كما أنه واجهة آسيا وافريقيا تجاه الغرب والشمال وجسر الاتصال الكبير بين القارات .

وهو واقع في أجوء بقاع الأرض اعتدلاً وأكثرها جمالاً وأسناها ضياءً وكذلك هو غني إلى أبعد حد بالمتلكات الاقتصادية والانسانية والسياسية على اختلاف أنواعها .

هذا وان الثقافة العربية الاسلامية هي المائنة لأرجاء هذا الوطن الواسع على أنه اذا كان يسكن فيه بعض الجاليات الأجنبية القليلة فان مئات الآلوف بل

الملايين من العرب يقيمون متفرقين أو جاليات في مواطن أخرى ولا سيما في أواسط افريقيا وجنوبها وفي أواسط آسيا حتى أقصاها وفي أمريكا ولا سيما الجنوبية . وهم على الفالب ينزعون بأفندتهم وأفكارهم وذكرياتهم وأصولهم إلى موطنهم الأول .

والعالم العربي يسلك سبيل توطيد السلام في الأرض ويعمل على توكيده الصداقة مع سائر الشعوب وهو اذا تقدم وقوى يستطيع أن يغدو واحة سلام وخير وبركة بين أناء العالم وملتقى حضارات تتفاعل لخير الإنسانية ومنطقة تبادل للقيم المادية والروحية في العالم ووسيلة تفاهم وتضافر بين الشعوب (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ولتكن الرسول شهيداً عليكم) (١٤٣-٢).

ولذلك كله لا نفالى اذا قلنا ان مستقبل الإنسانية كلها من بعض الوجوه مرتبطة بتقديم البلاد العربية ورهين " بِمَنْتَهَا وسلامتها حتى تكون كمحصن السلام الآمن في خضم المستقبل المبهم الفاضم " وفي هذا اطمئنان لجميع الشعوب ، وفي هذا من الشأو ما ينبغي أن تسعى له البلاد العربية بعد أن تتخلص من آثار الاستعمار وبعد أن تشتت و تستوثق عرفاً التعاون والتضامن بينها .

وكذلك ندرك عاجلاً أو آجلاً بطلان المعاولات غير الإنسانية التي تقصد الى تفريق شمل البلاد العربية والكيد لها وطعن أوصالها برؤوس العروبة واقامة حوايل اقتصادية وفكرية دون تسهيل التقاء الشعب العربي بعضه ببعض . وهذا جدول بالدول العربية التي تتألف منها الجامعة العربية مع عدد سكان كل منها ومساحته و النسبة المئوية للسكان وللمساحة في المجموع .



الدولة	المجموع	المساحة بالكم²	النسبة %	عدد السكان بالألف	النسبة %	الكلافة
الملكة الأردنية المهاشمية	٩٧٧٤٠	٩٧٧٤٠	١٨	٣٩٤٣	٣٩٤٣	٤٠
دولة الإمارات العربية المتحدة	٨٣٦٠٠	٨٣٦٠٠	٧٠٧	١٥٠١	١٥٠١	١٨
دولة البحرين	٦٢٢	٦٢٢	٢٠٢	٤٨١	٤٨١	٧٧٣
الجمهورية التونسية	١٦٣٦١٠	١٦٣٦١٠	٢٦٣	٧٨٠٩	٧٨٠٩	٤٨
الجمهورية الجزائرية	٢٣٨١٧٤١	٢٣٨١٧٤١	١١	٢٣٨٤١	٢٣٨٤١	١٠
الديمقراطية الشعبية	٢٢٠٠٠	٢٢٠٠٠	١٨٠	٣٨٣	٣٨٣	١٧
جمهورية جيبوتي	٢١٤٩٦٩٠	٢١٤٩٦٩٠	٦	١٣٠٧٠	١٣٠٧٠	٦
الملكة العربية السعودية	٢٥٠٥٨١٣	٢٥٠٥٨١٣	١١	٢٣٧٩٧	٢٣٧٩٧	٩
جمهورية السودان الديمقراطية	١٨٥١٨٠	١٨٥١٨٠	٥٤	١١٦٣٨	١١٦٣٨	٦٢٨
الجمهورية العربية السورية	٦٣٧٦٥٧	٦٣٧٦٥٧	٣٣	٧١٠٦	٧١٠٦	١١
جمهورية الصومال الديمقراطية	٤٣٤٩٢٤	٤٣٤٩٢٤	٨	١٧٦٥٦	١٧٦٥٦	٤٠٦
الجمهورية العراقية	٢١٢٤٦٠	٢١٢٤٦٠	٥٥	١٣٧٧	١٣٧٧	٣٥
سلطنة عمان	٢٧٠٠٩	٢٧٠٠٩	-	٤٩٠٠	٤٩٠٠	-
فلسطين	١١٦١٠	١١٦١٠	٢٠٢	٣٤٠	٣٤٠	٢٩
دولة قطر	١٧٨١٨	١٧٨١٨	٩٠٩	١٩٣٨	١٩٣٨	١٠٩
دولة الكويت	١٠٤٠٠	١٠٤٠٠	١٣٣	٢٨٢٧	٢٨٢٧	٢٧٢
الجمهورية اللبنانية	١٧٥٩٥٤٠	١٧٥٩٥٤٠	٩١	٤٢٢٢	٤٢٢٢	٢
الجماهيرية العربية الليبية	٤٤٦٥٠٠	٤٤٦٥٠٠	١١	٢٣٩١٠	٢٣٩١٠	٥٣٥
جمهورية مصر العربية	١٠٣٠٧٠٠	١٠٣٠٧٠٠	٠٩	١٩١٦	١٩١٦	١٩١
المملكة المغربية	١٣٧٠٨٠٨٣	١٣٧٠٨٠٨٣	٣٥	٧٥٣٦	٧٥٣٦	٣٨٦
الجمهورية الإسلامية الموريتانية	٣٣٢٩٧٠٠	٣٣٢٩٧٠٠	١١	٢٣٣٩	٢٣٣٩	٧
الجمهورية العربية اليمنية						
جمهورية اليمن الديمقراطية						
الشعبية						

عدد السكان من 1988 World Health Statistics Annual

والمساحات من الكتاب الإحصائي السنوي للبلاد العربية (العدد السادس) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (الأمانة العامة) ١٩٨٤.

نزيد على الجدول الصخراء الفريدة في إفريقيا ، ثم الشفور السورية الشمالية التي اقتطعها تركيا من سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكذلك لواء اسكندرونة الذي سلخته فرنسة المنتدبة وأعطته تركيا سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ .
ويمكن تصنيف البلاد العربية حسب حجم السكان في ست زمر . وهي بالترتيب المتصاعد .

قطر - جيبوتي - البحرين	القل من مليون
عمان - الإمارات - موريتانيا - الكويت - اليمن الديمغرافية - لبنان - الأردن - ليبيا	١ - ٥ ملايين
الصومال - اليمن العربية - تونس	٥ - ١٠ ملايين
سوريا - السعودية - العراق	١٠ - ٢٠ مليونا
السودان - الجزائر - المغرب	٢٠ - ٢٥ مليونا
مصر	فوق خمسين مليونا

هذا والذي يبادر الملاحظة الديمغرافية في مجموع العالم العربي قلة السكان فيه بالنظر لاتساع المساحة اذ تنقص الكثافة الحسائية الوسطية فيه عن ١٦ نسمة في الكيلو متر المربع منه وهي ضئيلة جداً وأقل من كثافة الأرض كلها وهي تبلغ ٣٨ . والعالم العربي اذا تقدمت الأمور الصحية والاقتصادية والعلمية فيه يستطيع أن يحمل مائتي مليون نسمة زيادة على عدد سكانه الحاليين .

ان زيادة السكان ضرورة ملحة في الوطن العربي . فكل زيادة للناس في ربوعه من شأنها أن تزيد في عمرانه وفي مكانته الاقتصادية وفي الدخل الفردي لأجلبية أقطاره . نعم ! ان هناك قسماً كبيراً من الصحاري والأراضي المجدبة تقع في أجوازه ، كما أن هناك بعض الأقطار فيه تقاد تكون خاصة بالسكان كمصر ولبنان . ولكن ثمة أراضي كثيرة في أجزاء البلاد العربية أيضاً ما زالت غير مستثمرة ، وهي تستدعي أيدياً عاملة ، وجهوداً بشرية قوية ، وتقنيات متقدمة ، واستصلاحاً ناجماً .

ومن المعلوم أن قيام المشروعات الصناعية الكبيرة متصل ببلوغ كثافة السكان حداً مناسباً . وبهذا الاعتبار تكون زيادة السكان في الوطن العربي وسيلة من وسائل تقدمه الاقتصادي كماتكون وسيلة لعمرانه ولتنقسم المواصلات فيه ولجعل الكثافة السكانية تستطيع ردع الدعوان عليه ان وقع وتهيئة مقاومة سريعة ، أو لجعلها تقوى على اقامة مشاريع اقتصادية وعلمية وعمرانية مفيدة . ان زيادة السكان في أجزاء الوطن العربي بما تستلزم من عمران وتسهيل مواصلات وتقدم اقتصادي ونشاط فكري وتعاون اجتماعي معناها تنشيط الدم الجاري في اوصاله وزيادة القوة وبث الحياة المتيبة فيه . ان الانسان في الوطن العربي هو أساس تقدمه وحصن منعنه وسر نمائه ونشاطه .

بيد أن التنويه بمكانة زيادة السكان تشير في الديمغرافية وفي الجغرافية البشرية قضية العد الموفق من السكان . ولا بد من الالام بها وجلاء غامضها وشرح عناصرها .

قضية العد من المواقف وكثافات السكان

لا شك أن أبسط معيار يستند اليه في الحكم على زيادة السكان أو قلتهم يكون بتأمل كثافتهم الحسابية وهي خارج قسمة عدد السكان على مساحة الأرض التي يعيشون عليها ، أي عدد السكان في وحدة المساحة المعتمدة . ويجوز أيضاً العكس وهو حساب خارج المساحة على عدد السكان أي ما يتوب الشخص الواحد من مساحة الأرض التي يشغلونها . ولكن قسمة السكان على المساحة أكثر استعمالاً وتداولاً .

ان كثافة الوطن العربي نحو ١٦ في الكيلو متر المربع كما سلف . ولكن أجزاء هذا العالم تختلف في درجة الكثافة . وقد سردنا في جدول سكان الدول العربية كثافات تلك الأجزاء . ولا شك أن الافتراض البارز انما هو في وادي النيل حيث تتجاوز كثافة السكان الذين يعيشون على الأرض المزروعة المأهولة فيه ١٢٠٠ نسمة في الكلم^٢ وهي من أعلى الكثافات . ويزيد عباء هذا الافتراض أن السكان يعيشون في الغالب على الزراعة . بيد أن مستوى الحياة قد تعشن جداً بعد التخلص من الاستعمار وبعد اقامة دعائم الصناعة .

ان اختلاف الكثافة متعلق بعوامل متعددة . ولا شك أن نظام الاقتصاد المستند الى الصناعة يزيد في طاقة استيعاب الأرض للسكان . وهذا ما هو حاصل في أوربة والبلاد الصناعية عامة . وكذلك نظام الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد أصحابه في غذائهم على البقول والعبوب لا على اللحوم . وهذا ما هو حاصل في الهند وشبه جزيرة الهند الصينية والصين . ولكن هذا النظام الزراعي اذا ساعد على زيادة السكان لا يدر بالفائدة والثراء عليهم وانما يجعل مستوى معيشتهم منخفضاً . الا ان الصين بعد جمجم شمل اجزائها واستتباع نظامها الحديث جعلت تعتمد على اقامة اركان الصناعة الحديثة . كذلك يتعلق اختلاف الكثافة بقضايا تاريخية كالعروب وهجرة بعض الاقوام من بعض المناطق الى مناطق أخرى وغيرها .

وقد يتعلق اختلاف الكثافة بعوامل جغرافية كنوع التضاريس ودرجة خصب الأرض ووفرة المياه ومجاري الأنهر وغزارة الأمطار . وتاثير مثل هذه العوامل الجغرافية واضح في البلاد العربية حيث تم سيطرة الإنسان على الطبيعة . ولقد سلفت الاشارة الى ارتفاع الكثافة في وادي النيل الخصب ومن المعلوم ان الزراعة في هذا الوادي تعتمد على مياه النيل لا على الأمطار ، حتى انه قيل في مصر انها هبة النيل . واذا نظرنا الى سوريا مثلاً وجدنا محافظة اللاذقية وهي على الساحل شديدة الاستيعاب نسبياً للسكان ومساحتها تؤلف ٥٢ بالمائة من مساحة القطر وهي من أغزر المحافظات السورية امطاراً زيادة على صفتها الساحلية . وعدد سكان محافظة اللاذقية يكاد يعادل مجموع سكان محافظة دير الزور ومحافظة الحسكة مع ان مساحتهما معاً تؤلفان ٣٠٣ من مساحة البلاد .

على ان منطقة الجزيرة في شمال شرقى سوريا قليلة السكان جداً مع أنها أخصب الأراضي . وهذا يدعو الى النظر في العوامل التاريخية والملمات التي أصابت البلاد وجعلت بعضها غامراً بعد أن كان في الماضي عامراً .

والامر كذلك في المغرب العربي في يومنا هذا .ليس يتلقى أنفاس الصحراء الكبرى العارضة؟ ولذلك لا غرو اذا وجدنا السكان يتجمعون فيه حول مناطق المياه . ولو نظرنا الى الجمهورية التونسية لوجدنا الكثافة في الشمال أعلى بكثير منها

في الجنوب . والشمال أغزر مطرًا من الجنوب . ومن الخطأ أيضًا أن نقتصر في المغرب على العوامل الجغرافية الطبيعية وحدها . بل ينبغي الرجوع إلى التاريخ والى تغير طبيعة الأرضي وسبل المواصلات التي تربط أنحاء البلاد بعضها ببعض والى تبدل ذلك وفق الأحوال السياسية والسيادة أو التبعية . كان أكثر سبل المواصلات في الجزائر وفي المغرب موازيًّا لـ الساحل البحري الأبيض المتوسط إذ كانت تصل البلاد العربية بعضها ببعض ، ثم خربها الاستعمار وأنشأ سبلاً عمودية على الساحل ليسهل له الوصول إلى أعماق البلاد ، كما استولى على أخصب الأراضي واستغلها إذ ذاك لصالحه .

بيد أن الأنهر ومياه الأمطار الغزيرة قد ينبع عنها في رفاهية السكان واجتذابهم آبار النفط . بل إن آبار النفط هذه أجدى عائدًا وأوفر اقتصاداً وأشد ثراءً من مياه الأمطار ومن الأنهر لو لم تكن مدخلاتها محدودة . وهي قديرة بعوائدها الجمة على تحلية مياه البحر واستصلاح الأرضي واحالة الرمال حداائق جميلة وعلى رفع مستوى معيشة السكان وعلى اجتذاب العمال والتجار وغيرهم من كل صناع . هذا ولا يخفى هجرة التجار والعمال والمهندسين وأمثالهم في البلاد العربية وغيرها إلى المملكة السعودية وإلى الكويت وإلى دولة الإمارات وإلى ليبيا . ومثل تلك الآبار المتفجرة أحياناً في الصحراء تجعل الحاجة ماسة إلى الأيدي العاملة وإلى العمارة واتساع البنية .

لهذا كله كانت الكثافة الحسابية غير كافية للدلالة على مدى استيعاب الأرض للناس . وهي في الواقع لا تُخوّل الموازنة والمقاييس بين سكان البلدان لاختلاف الأرضي في الخصوب وتفاوت صلاحها للزراعة ولتباعد الموارد الاقتصادية وغير ذلك .

فلا عجب إذا عمد الباحثون إلى التباس أقيسة أكثر ملاءمة تُسهل لهم الموازنة والمقابلة بين سكان البلاد المختلفة . وليس قياس من هذه القياسات التي تصوّرها العلماء بكاف كل الكفاية . ولكنها إذ تؤدي إلى نتائج متفاوتة تكشف عن اشتباك الجوانب في قضية كثافة السكان وفي نمط معيشتهم ومستوى حياتهم . ومن المناسب أن نعرض إطاراً من هذه القياسات .

عند العلماء إلى حساب كثافة دعوها بالكثافة الفيزيولوجية لا تدخل فيها مساحة الأراضي المجدبة وإنما تقتصر على عدد السكان العام مقسوماً على مساحة الأراضي المزروعة أو الصالحة للزراعة كما ذكرنا ذلك بصدق وادي النيل . ولكن الاعتماد على هذه الكثافة لا يخلو من مساوئه ، لأن الأرض المزروعة ليست سواء في درجة الخصب ولأن أساليب معالجتها واستغلالها وانتاجها تتفاوت بين البلدان في درجة الجودة . ولا ريب أن الفدان الواحد يعطي غلات مختلفة حسب خصب الأرض والعنابة بها وتعهداتها .

على أنه لو تساوت الدولتان فرضاً في خصب أراضيهما وفي أساليب استغلالهما لها لجاز أن تعتمد أحدهما على ما تخرجه صناعتها من سماد في معالجة أراضيها على حين تبادل الأخرى بعض سلعها الزراعية والصناعية للحصول على مثل ذلك السماد .

ثم إن هنالك موارد أخرى للثروة غير الأرض كالصناعة مثلاً إذ يمكن السكان من مبادلة الغلات الزراعية المجنية في البلاد الأخرى بسلعهم المصنوعة . ولذلك يرى بعض الباحثين أبعاد السكان الذين يشتغلون بالصناعة وأمثالها والاقتصار على السكان الذين يعتمدون في معاشهم على زراعة الأرض . فينتهيون في حسابهم إلى ما يسمونه الكثافة الزراعية أو كثافة الزراعيين .

على أنه يلزم النظر في التجارة والصناعة إلى جانب الزراعة . وكذلك لا يجوز إغفال أركيزَة الأرض وكتوزها ومواردها الطبيعية المعدنية ولا موارد البخار والأنهار والمياه الداخلية . وقدسيق أن آبار النفط في توفير الرزق وتسهيل الثروة وتسهيل أسباب المعيشة أكبر قيمة من خصب الأرض الزراعي الغزير .

ولا يخفى أيضاً لزوم اعتبار نظم الحياة الاجتماعية والسياسية والإدارية في البلاد والعذر من الشركات الرأسمالية الأجنبية التي تتعمق في الأسواق وفي أسعار النفط وأحياناً في اشعال العرووب لترويج بيع الأسلحة ثم في تعمير ما خربته تلك العرووب .

ان الانتباه لكل ذلك وحسابه أمر يتصعب جداً . ولذلك يعمد إلى حساب

دخل الفرد والى اعتبار ما يدعى بالحد الموفق أو العدد الأمثل للسكان في بيان درجة ازدحام الناس أو تخلخلهم في مجتمع من المجتمعات .

ومعنى هذا العدد الموفق أو العدد الأمثل وجود حالي من التوازن بين عدد السكان من جهة والموارد المتاحة من جهة مقابلة بحيث يستمتع الشعب بأوفر قسط من الرخاء الاقتصادي أو بأوفر دخل لكل شخص .

وتكون البلاد ضئيلة الكثافة أو قليلة السكان اذا كانت كل زيادة لهم فيها ترفع الدخل الشخصي او تزيد الرخاء العام . وتكون مكتظة اذا كانت الزيادة لا تفعل شيئاً من ذلك او كانت تنقصه . والخلاصة ان علاقة عدد السكان بمساحة الأرض علاقة مشتبكة ينبغي أن ينظر فيها الى الموارد المختلفة والى نوع الأعمال وهل هي زراعية او صناعية والى صفة الاختصاص عند العمال والى درجة الانتاجية والى توافر رؤوس الأموال وأمثال ذلك .

هذا وان الاكتظاظ الذي تبدو سماته في بعض البلدان مردّه الى قلة استغلال الموارد الطبيعية وضعف اختصاص العمال ومجرد الاعتماد على الزراعة . فالاكتظاظ في نهاية التحليل ظاهرة من ظواهر التأخير يزول عند أخذ المجتمع بأسباب التقدم . وهذا كله من شأنه أن يلزم الباحث بالتريث عند حكمه على قضية مشتبكة متعددة الجوانب كقضية الكثافة والعدد الموفق للسكان .

وهذه كثافة بعض الدول الصناعية وغيرها عام ١٩٨٦ نوردها لمجرد المقارنة والموازنة مع الدول العربية :

المملكة المتحدة ٢٣٣ - بلجيكا ٣٢٥ - فرنسة ١٠١ - الولايات المتحدة ٢٦ -
الاتحاد السوفيافي ١٣ - الصين ١١٢ - هونغ كونغ ٥٢٩٢ .

- الأرقام مأخوذة من (Statistical Yearbook Unesco) (1988) .

الريفيون والحضريون والبدو

ان الكثافة الزراعية تفرق كما رأينا بين المشتغلين بالزراعة وغيرهم من المواطنين . على أنه كثيراً ما يُعمَد الى النظر في نسبة السكان الريفيين والمدنيين أو الحضر مكان لفظ الكثافة الزراعية .

فإذا قابلنا عدد سكان الأرياف بعدد سكان المدن في المجتمع ظهر فرق بين البلاد التي تسود فيها أشكال الاقتصاد الريفي والبلاد التي أثر النمو الاقتصادي الصناعي في نسبة العدددين حتى انه قلل من عدد الريفيين جداً .

هذه المقابلة اذ تميز الريفي من الحضري أو المدنى^(٤) تعتمد التفرق بين البلد وبين القرية أو المركز الريفي .

وليس هذا التفرق واحداً في المجتمعات كلها . وفي أغلب البلدان الأوروبية يعتبر العدد الأعلى لسكان المركز الريفي الذي نسمة .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يعين مكتب تعداد السكان في واشنطن مبدأ التفرق بين الريف والحضر عند كل تعداد .

وكذلك في الاتحاد السوفياتي يقرر مجلس السوفيات الأعلى حينما تعتزم الدولة إجراء التعداد أي المناطق ينبغي اعتبارها مراكز ريفية لأن بعض المراكز القليلة السكان صناعية فلا تدخل في الريف عندهم .

و غالباً ما يعتبر العدد الأدنى للمدينة أو المركز الحضري في البلاد العربية عشرين ألف نسمة . و تدخل في الحضر مراكز الأقسام الإدارية كمراكز الألوية والمديريات والمحافظات والأقضية والقصبات ذات المجالس البلدية .

ان تصنيف الناس ريفيين و حضريين انما هو اعتبار اقتصادي احصائي .

تقل نسبة السكان الريفيين في مجموع السكان عن ٤٠ في المائة في الدول ذات الاقتصاد الصناعي المتقدمة . وهي بين ٤٠ الى ٧٥٪ في الدول التي تأثرت بالاقتصاد الصناعي و بتجمع رؤوس الأموال لديها . وهي تتجاوز ٧٥٪ في البلاد التي ما زالت الصناعات الحديثة فيها ضعيفة .

وأحياناً يفضل حساب نسبة سكان المدن في مجموع السكان لبيان مدى التمدن أو التحضر ويمكن تصنيف البلاد العربية في مدى التحضر أي نسبة سكان المدن في مجموع السكان في ثلاثة مجموعات :

١ - البلد ذات المعدل الحضري العالمي ، وهي الكويت والبحرين وقطر وبعض الامارات في دولة الامارات العربية المتحدة ، حيث تنقص نسبة الريفيين فيها عن ٢٥٪ .

٢ - البلاد ذات المعدل الحضري المتوسط كالسعودية ومصر ولibia وتونس والجزائر والمغرب والعراق والأردن وسوريا نسبة الريفيين فيها بين ٦٠ - ٢٥ %

٣ - البلاد ذات المعدل الحضري المنخفض نسبة الريفيين فيها أكثر من ٦٠ % وأهم عامل في نمو الحضر بالعالم العربي الهجرة الداخلية من الريف الى المدن والهجرة الخارجية الى هذه المناطق . وهذا النمو صادر الى الازدياد ولكنه بحاجة الى الضبط والتنظيم .

هناك صنف ثالث في المجتمعات العربية ليس مستقرًا وهو البدو . ولا بد من لمحه تتلمس حياتهم .

البداوة ظاهرة طبيعية تطلق على حياة القبائل الرحل التي تتنقل في قلب الbadية أو الصحراء وحركة هؤلاء أفقية . ففي الشتاء والربيع ينتجعون مواقع الغيث وموطن الكلأ ، وفي الصيف والخريف يتربكون جوف الصحراء ويقتربون من الأنهر وآبار المياه ويخيمون قريباً من المدن . أما الرعاة الذين يعيشون في شعاف الجبال فحركتهم رأسية أي يهبطون الى الوهاد والسهول في الشتاء عند انخفاض الحرارة وهطل الثلوج ويصعدون ابان الصيف في المرتفعات المكسوة بالكلأ لرعي قطعانهم . وجميعهم يقتصرون على الفضوري من الأقواس واللباس ويختذلون البيوت من الشعر والوبر والأكواخ من القصب وأحياناً من اللبن والعبارة قصدأ للاستظلال والكِنْ أما من كان معاشه في السائمة مثل الفنم والبقر فيقال لهم شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر وهم يتقلبون في الbadية يرتدون المراعي والمياه لحيواناتهم . وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر خطاناً وأبعد في القرف مجالاً .

والبدو أصل للريف والحضر وسابق عليهم وخشونة البداوة قبل رقة المضاراة على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته الشهيرة . وهم عنده أقرب الى الخير والى الشجاعة كما أن من صفاتهم حب العريمة والاخلاص للقبيلة .

والقبيلة هي العمود الفقري للحياة الاجتماعية البدوية وهي التي تنتهي أفرادها الى جد واحد وتضم الأهل والأسر والأحفاد .

ومضيف شيخ القبيلة شبيه بالندوة النيابية لأفراد القبيلة يتناقل الجميع فيه الأخبار الواردة . وفيه تنزل الوفود القادمة ، وفيه يُبرم كثير من الأمور التي تهم القبيلة . وقد دخلت أجهزة الترنسستور أقصى خيام البدو . فهم يستمعون الى الأخبار العالمية والمحلية وينصتون الى ترتيل آيات القرآن الكريم والى الموسيقى والأغاني ، كما أنهم الى جانب مطايحهم من الأبل والعيل يستعمل أغنياؤهم السيارات . وعندهم من الأسلحة ما يردون به عن أنفسهم العدوان وان وقع العدوان على أحد أفراد القبيلة ولم تتهيأ الديبة أو التعويض ولا الصلح لجأ أقرباء المعتدى عليه الى الثأر ، وهو أمر كان معروفاً في جاهلية العرب فحرمه الدين العنيف . ولكن التخلف والجهل جعلاه يذرّ قرنه أحياناً بين الأسر والقبائل . وقد قللّت من سرّته سيطرة الحكومات المحلية وحسن تصرف الشيوخ وحكمتهم وتأثر نمط الحياة البدوية بخصائص الحياة المدنية المعاصرة وتطورها الفكري والتكنولوجي . وقد أوجدت هذه الحياة حاجات ومارب جديدة قريبة من حياة الريف وحياة العصر .

ان هذا التأثير بالحياة المدنية المعاصرة كان نتيجة وسائل الاعلام ونتيجة تطور وسائل المواصلات مثل مد شبكات الطرق والسكك ووسائل النقل الحديثة التي حدّت من عزلة البدو بل قضت عليها وأودى ذلك كله الى ضعف الرابطة العصبية وانحلالها والى الاستقرار التدريجي الذي حل محل الظعن والترحال . ومن استقر من البدو أصبح يزاول الزراعة وينتقل من الحياة البدوية الى الحياة الريفية ويدخل في نظام التعليم الذي تطبقه الحكومات المحلية .

وقد أخذت الدول العربية منذ أوائل القرن العشرين تهتم بهذا الجزء الطيب من سكانها وهو البدو فعمدت الى توزيع الأراضي ومعالجة الملكية الزراعية والى توفير الآبار في البوادي والى نشر التعليم ووسائل الثقافة . وشرع البدوي يرتبط بأرضه ووطنه ويبرز بين أبناء الوطن في مختلف الميادين الاجتماعية والثقافية والسياسية محافظاً على ذكائه الفطري وطبعه الأصيلة وعقيدته الرفيعة العالية .

وفي جميع البلاد العربية مشاريع لتوطين البدو تتحقق بالتدريب والتنظيم ولا سيما في سوريا والعراق ودول الخليج والمغرب العربي . ومن أبرزها مشروع غياثي في دولة الإمارات .

أما الاهتمام بالزراعة والتشجير فهو قائم على قدم وساق في مختلف أنحاء الوطن العربي مع انشاء السدود وجر المياه وتحلية ماء البحر أحياناً . وكما تغلب الهولنديون على البحر بانشاء بعض الاراضي الزراعية فوقه قرب الشاطئ فقد تغلب أبناء الخليج على الصحراء وقامتها وجعلوا بعض جوانبها حدائق وبساتين وجنات يحف بها الدوح والأشجار وتثبت من كل زوج بهيج ، وأناروها بالكهرباء اثاره تبعث الراحة والطمأنينة والرضا في النفوس . ومع ذلك فلا بد في الحياة من مشكلات ناشئة . وقيمة الانسان في تغلبه على هذه المشكلات وحلها حلاً يعود بالخير والمصلحة العامة على الوطن والشعب .

الذكور والإناث ومعيار نسبتها

يمكن حساب نسبة الذكور الى الإناث بين المواليد أولاً وفي المجتمع كله ثانياً ، وذلك بالنظر في سجلات مكاتب الصحة أو في نتائج التعداد أو بطريق التقدير المستند الى تلك النتائج والسجلات .

نسبة الذكور الى الإناث بين المواليد ظهر بالاحصاء والتسجيل الدقيقين أن هذه النسبة ثابتة وهي تساوي ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت . وقد ترتفع بعض الشيء وقد لوحظ ذلك غرب العروبة فتبلغ على أكثر تقدير ١٠٧ وقد تنخفض الى ١٠٢ ولكنها تبقى دائماً حول ١٠٥ . وثبوتها هذا عبارة عن معيار ديمغرافي دقيق . وهو متعارف الى درجة أنه لو وجدت النسبة في نتيجة الاحصاء أو التعداد تزيد على ذلك أو تنقص عنه بمقدار كبير لصح أن يتخد ذلك دليلاً على خطأ التسجيل وقلة ضبطه . وقد تدعى هذه النسبة اختصاراً نسبة الجنس أو نسبة الذكورة . وعلى سبيل التمثيل نسبة الجنس بين المواليد ١٠٥ في الامارات العربية المتحدة والبحرين والكويت وقطر وهي ١٠٦ في مصر والعراق والأردن ولبنان وسوريا واليمن الديمقراطية واليمن العربية وعمان وال سعودية (١٩٨٦) . ولو ظهر في بعض البلدان العربية ارتفاع هذه النسبة أحياناً لرجع ذلك الى قلة الضبط في مكاتب الصحة أو دوائر التسجيل ولا سيما في بعض الأرياف وكان هؤلاء الريفين يعادتهم القديمة يبلغ بهم اجلالهم لإناثهم وغيرتهم عليهم إلا يسجلوا أسماءهن عند الولادة أو عند التعداد . ولكن هذه العادات صائرة الى التغير والى الرغبة في ضبط الأمور الذي هو في مصلحة الجميع .

نسبة الذكور الى الاناث بين السكان : ارباء البنين على البنات في العدد بين المواليد من شأنه أن يجعل في جميع البلاديين فئات الاعمار الفتية عدد الصبيان أكثر بقليل من عدد البنات ولا سيما منذ الولادة حتى سن العشرين أو بعدها بقليل . ولكن عدد الاناث لا يلبي أن يعادل عدد الذكور لأن وفيات الذكور أكبر عادة من وفيات الاناث في جميع مراحل العمر اذا تساوت المعاشرة والاحوال الاجتماعية التي يعيش فيها الجنسان .

وهنالك صروف تدخل نقصاً على عدد أحد الجنسين :

الهجرة الغارجية التي حملت مئات الآلاف في القرن التاسع عشر الى أمريكا واسترالية زادت في عدد الذكور الشباب بهما ، لأن أكثر المهاجرين كانوا من جنس الذكور ، وبالمقابل زادت في نسبة الاناث بالبلاد التي رحل عنها أولئك المهاجرون .

وكذلك الشأن في البلاد النفطية العربية . فقد حملت تيارات الهجرة اليهاآلافاً من العمال العرب والعمال الأجانب والتجار والموظفين والسماسرة والمهندسين والمعلميين منهن هي بحاجة اليهم في شتى شؤون الحياة والعيشة والادارة . ولكن هذه البلاد عمدت الى تنظيم تلك التيارات فلا يدخل اليها منها الا من هم يلبون حاجاتها وماربها . وأكثر هؤلاء من الذكور يهاجرون أول الأمر بأنفسهم ثم قد تلحق بهم أسرهم اذا سمح لهم بذلك .

ثم ان الهجرة الداخلية من الأرياف الى المدن الكبيرة تعتمد على الفالب الذكور للعمل وتبعه بعض المناصب الادارية او غيرها كما هو جاري في عواصم الدول العربية ومدنها الكبيرة . وهكذا يزيد عدد الذكور على الاناث في هذه المدن والعواصم .

والعروبة عامل ضخم في تنقيص عدد الرجال لدى بعض فئات الاعمار وهي بالمقابل تزيد نسبة النساء في الاعمار الموازية كما حصل ذلك في ألمانيا والاتحاد السوفيياتي من جراء الحرب العالمية الأخيرة ، ولكن التقنيات الحديثة في العروبة والرجم بالقناابل لا تفرق بين أحد من الجنسين .

ومهما اضطربت نسبة الذكور الى الاناث في المجتمع فهي تعود بالتدريج الى الاعتدال بطريق المواليد بحيث يبقى الجنسان قريبياً التعادل في العدد .

ان اغفال التسجيل يدخل نصيباً من الاضطراب في نتائج التعداد السكاني الجاري في بعض البلاد العربية وفي عدد المواليد ولا سيما الاناث في بعض الأرياف كما سلف ذكره . ولا بد عند تأمل تلك الأرقام ودراستها من محاولة تصحيحها بالأساليب العلمية الحديثة .

على انه اذا كانت وفيات الذكور في الحال الطبيعية السوية أكثر من وفيات الاناث في مختلف الأعمار وهو ما يجعل عدد الاناث يرتفع تدريجاً مع ارتفاع السن فان وفيات الاناث في البلدان العربية لا تزال مرتفعة بسبب الزواج المبكر وتعدد العمل وحصول الولادة أحياناً في الأرياف دون اشراف طبيب أو قابلة متخصصة وترثض الأمهات الوالدات لعمى النفاس التي قد تودي بعياتها . ولهذا كله لزوم العناية بهذا الركن الأساسي الصحي للمجتمع الناشيء ، فلا تحصل ولادة الا في مشفى وبإشراف طبيب او قابلة وفي ذلك حماية للأمهات وللمواليد ، وصيانة لهذا الجانب الغض من المجتمع .

الأعمار ومدلعاتها ومعيار فتوة الشعب وهرميه

من السهل في كل مجتمع معرفة عدد أفواج الأحياء حسب أعمارهم من الولادة أي من الصفر حتى أكلاً^(١) العمر الذي يبلغه الإنسان نحو مائة وعشرين سنين أو مائة وعشرين سنة .

وتقسم في علم السكان هذه الأعمار الكثيرة الى فئات تستغرق كل فئة خمس سنين او عشرة . ويمكن ان يعرف عدداً الأشخاص من الذكور ومن الاناث في كل فئة من فئات الأعمار تلك او نسبة كل منهم في المجموع .

ولمعرفة أفواج الأعمار شأن . فمن المعلوم أن نشاط الحياة الاقتصادية منوط في جملة العوامل بعدد الشبان والكهول القادرين على العمل والانتاج . وان التوازن بين محاصيل الأعمال التي ينجزها الكهول والشبان والنفقات التي يستدعيها الأطفال والمسنون والمعجزة يتطلب بعدد كل فريق منهم . ثم انه لا بد ان ثبتت العرب من معرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح . وكذلك في التربية والتعليم من المناسب معرفة عدد الأطفال الذين تقع تبعية تعليمهم على الدولة اذا

بلغوا سنًا معينة من أجل إنشاء عدد كافٍ من المدارس . والأمثلة كثيرة في هذا المجال قد يطول استقصاؤها .

وكذلك تقييد معرفة توزيع الأعمار في تفهم كثير من خصائص السكان الديمografية الأخرى وتساعد على قياسها وحسابها .

ولدراسة الأعمار بالتفصيل يمدد العلماء إلى رسم ما يدعونه هرَّام الأعمار ترجمة حرفية للفظ الأجنبي ولفظ الهرَّام يدل على المجسم المعروف في مبادئ الهندسة . وليس الشكل هنا هرَّاماً . وإنما شاع هذا اللفظ في علم السكان ارتجالاً وهو في أحسن التأويلات يشبه مقطعاً سطحياً للهرَّام . ونحن نؤثر استعمال لفظ مصلع الأعمار .

ويرسم المصلع هذا بأن نعمل للأعمار من الصفر إلى العد الأعلى (مائة وأكثر) على محور الترتيبات ، وأن ي العمل على محور الفواصل عدد أفراد الفوج أي عدد الأحياء في كل فئة من فئات العمر . ويوضع مصلع الإناث في جانب من المحور الرأسي ومصلع الذكور في جانب آخر . وتؤخذ فئات الأعمار خمس سنين أو عشرة كما ذكر آنفاً . وأحياناً تؤخذ كل سنة بدل كل شهر في السنين الأولى من العمر لأهمية الوفيات بين الرضع والأطفال ، فيحصل خط بياني منكسر . ولو نقصنا فروق الأعمار حتى تبلغ سنة أو شهراً لاقترب الخط المنكسر من المعنى .

ويجوز أن ت العمل على محور الفواصل نسبة كل فوج في جملة السكان . وتفضل هذه الطريقة خاصة حين تُقصَّد المقايسة والموازنة بين الشعوب في تسلسل الأعمار من الوجهة الديمografية .

يكون الشعب فتياً إذا كان المصلع عريض القاعدة دقيق القيمة ، وذلك حين يكون الشعب كثير المواليد . ويكون الشعب هرِّاماً إذا كانت قاعدة المصلع ضيقة وقسمه العالى واسعاً منتفعاً ، وتكون المواليد والوفيات قليلة اذ ذاك .

والشعب الهرِّام والشعب الفتى مصطلحان ديمografيان كما شرحنا ولا يقصد بهذين التعبيرين معنى آخر . هذا ويتبعني أن يُفرَّق بين الشعب الهرِّام والشعب

القديم أو التاريخي . فالشعب العربي في العصر العاشر شعب فتى بمعنى أنه كثير المواليد ولكنه شعب تاريخي وقديم .

ان مصلع الأعمار للشعب سجل تاريخي للأحداث الإنسانية الكبيرة التي تلم به وتوثر فيه كالحروب والهجرة منه وإليه والأزمات الاقتصادية . فالحروب الدامية تتسبب بهلاك طائفة من الناس يظهر غيابها على مصلع الأعمار في شكل فجوة أو ثغرة بين الذكور في أعمار معينة . والأزمات الاقتصادية والمجاعات وأمثالها من كوارث تستدعي كثرة الوفيات أو الهجرة من البلاد . ثم انه ينشأ عن ذلك غيض في المواليد ولا سيما من جراء قتلى الحروب ، وغيض المواليد هذا يظهر في شكل فجوتين أو ثغرتين على جانبي المصلع تدعيان بالطبقات الجوف . وهي دورها تترك أثراً في خفض عدد عقود الزواج ونقص المواليد في المستقبل . وذلك كما تنجم عن سقوط حجر في الماء أمواج متلاحقة تتدحر على سطحه . فدراسة مصلع الأعمار دراسة دقيقة تكشف عن أحداث الشعب التاريخية التي تركت في بيئته آثاراً وتفيض في توقيع أحداث ديمografية مقبلة كهبوط عقود الزواج مثلاً متى بلغت تلك الطبقات الجوف سن الزواج .

وإذا دققنا مصلعات الأعمار لشعوب البلدان العربية النفعية وجدناها منتفرجة في جانب الذكور خاصة لأعمار معينة . وذلك ناشيء عن هجرة الشباب والكهول للعمل فيها .

وقد يعتمد الباحثون بعض المعاير والأدلة الحسابية في معرفة فتوة الشعب وهرمه . انهم قد يحسبون العمر المتوسط للشعب وهو الوسط العساري لأعمار السكان أي هو عبارة عن مجموع أعمار السكان مقسوماً على عددهم . فإذا كان منخفضاً دل على فتوة الشعب كما في البلاد العربية . ولكن العمر المتوسط هنا ضعيف الدلالة . فقد يكون لشعبين جديدين مختلفين في التركيب عمر متوسط واحد . ثم ان كل تغير يطرأ في هرم الشعب يظهر أثره شيئاً في تبدل العمر المتوسط . هذا وان شخصين وليداً ورجلان في الستين من عمره لا يعادلان رجلين كلاهما في الثلاثين من العمر .

وقد يحسب العمر الوسيط وهو مصطلح احصائي آخر ومعناه العمر الذي

يقسم مجموع السكان قسمين متساوين بحيث يكون عددهم فوقه يكفيه عددهم دونه . هذا ويفضل أن يُصنف السكان في ثلاثة فئات كبيرة تقع أعمار أفرادها تباعاً كما يلي :

١٩ -

٥٩ - ٢٠ وقد تقسم إلى قسمين ٢٠ - ٣٩ ، ٤٠ - ٥٩ .
٦٠ فما فوق .

وعندئذ يُقابل بين تركيب هذه الفئات في شعبيتين مختلفتين أو في شعب واحد لزمنين مختلفين . هذه الفئات الكبيرة الثلاث ذات صفات متفاوتة .

فالفئة الأولى (١٩) تشمل الأطفال والأحداث واليافعين ، وهم عماد المستقبل ولكتهم من الوجهة الاجتماعية يعيشون على نفقة الفتاة الثانية اذا لا يكاد يبدأ الفتى يشتغل إلا حول سن الخامسة عشرة .

والفئة الثانية تضم الشباب والكهول أي الم壯جين حقاً في ميدان الحياة الاجتماعية . وإذا ابتدأ الانتاج حول سن الخامسة عشرة فقد يستمر أحياناً إلى ما وراء الستين ولا سيما في مجال الأعمال الزراعية .

والفئة الثالثة تعوي المسنين والشيوخ الذين بلغوا سن التقاعد أو الاحالة على المعاش وبدؤوا ينقطعون بالتدريج عن الانتاج .

ولا يخفى أن عدد كل فئة بالنسبة إلى المجموع أو إلى الفئتين الآخرين يقدم فكرة جلية عن قوى الشعب وعن قوتته وعن هرمه .

والتيك المعاير المعتمدة حديثاً في هذا المجال ، وهي أدلة عددية :

يعتبر الشعب فتياناً إذا كانت نسبة الذين أعمارهم أقل من ٢٠ سنة فيه أكثر من ٣٥ في المائة . وأنه لا يزال في مرحلة الفتولة إذا ترجحت هذه النسبة بين ٣٣ - ٣٥ .

وأنه ليس بشديد الهرم إذا كانت هذه النسبة فيه تساوي ٣٠ .

وأنه هرم إذا نقصت هذه النسبة فيه عن ٣٠ .

وإذا نظرنا إلى عدد الذين أعمارهم أقل من ٤٠ سنة اعتبرنا الشعب فتياناً إذا كانت نسبتهم فيه لا تقل عن ٦٥ في المائة .

وإذا نظرنا إلى عدد الذين تجاوزوا الستين فيكون الشعب فتيأً أيضاً إن كانت نسبة لهم لا تزيد على ١٢٪

هذا وفي كثير من الأحيان تعجب النسبة الآتية :

$$\frac{\text{عدد الذين فوق الستين سنة}}{\text{عدد الذين تحت العشرين سنة}}$$

فالشعب الفتى تكون هذه النسبة فيه أقل من ٤٪.

هذا ويتربّ على هرم الشعب أوفتوه نتائج في ميدان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية تحتاج إلى شرح ومناقشة .

الزواج والولادة والخصب

نظم الإسلام الزواج تنظيماً دقيقاً وحفرز عليه ورثيّ فيه . وهو عند الشافية من الشهورات لا من القراءات ، فالاتغلي للعبادة عندهم لغير التائق للزواج أفضل من الزواج ، وهو عند العناية سنة . والاشتغال به أفضل من التغلي لنواقل العبادة . وهو عند المالكية مندوب على الجملة ، ولكنه يبلغ عند الحنفية مرتبة العبادة . بل يصل عند ابن حزم الظاهري إلى مرتبة الفريضة على القادر له .

ولا شك في أن تنظيم الإسلام للزواج كان حرصاً منه على ضمان غريزة العب وتجيئها وجعلها تسلك أفضل السبل إلى غايتها إلا وهي تمام الزوجين من الناحية الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية وتعاونهما وتوادهما وتراحمهما وسكنون أحدهما إلى الآخر . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتذكرون » (الروم : ٣٠ - ٢١) .

وهكذا أقام الإسلام على غزيرة المحب الطبيعية نظاماً شرعياً واجتماعياً أعلى وأسمى من مجرد الميل الطبيعي . يضاف إلى ذلك قلوب الرجال العرب النبيلة التي تتحقق بأجمل عواطف الحب . ويرغب كل أمرئ منهم في أن ينشيء أسرة ويرعى زوجته وأولاده ويحميهم جميعاً ويدلل لهم مرافق الحياة ، كما أن المرأة العربية

اشتهرت منذ القديم بالخفَر والصبر والعفاف والتضحية وتعهدها لبيتها وزوجها وأولادها .

فالحال الطبيعية والاجتماعية السليمة عندنا أن يكون كل انسان ذكرأ أو أنثى متزوجاً . ولما كان العرب حرا صاعلى صحة الأنساب وسعادة الأسرة منعوا أن يتسرب اليها الفساد ونظروا اليه على أنه كارثة ومسألة لا سخرية ولا هزوأ كما عند بعض الشعوب .

أما المُنْزَهُ فِيُنْظَرُ إِلَيْهَا فِي الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِوَجْهِ الْعُمُومِ عَلَى أَنَّهَا أَمْرٌ غَيْرٌ طَبِيعِيٌّ ، وَلَيْسَ بِالسُّوَيْيِّ وَلَا الْمُسْتَحَبُ .

ولهذا كان معدل المُرَابَ بين الرجال والنساء في البلاد العربية لدى مختلف فئات الأعمار أقل منه في البلاد الغربية .

فالزواج لذن هو الحال التالية بين الناس .

ثم ان الزواج مبكر في البلاد العربية ولا سيما بين البنات . ولو اعتمدنا على الأرقام التي يعطيها الاحصاء لللزم أن يُنْظَرُ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا تَقْرِيبَةٌ فِي الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ لِأَنَّهُ يَجُوزُ اِجْرَاءُ عَقْدِ الزَّوْاجِ الشَّرْعِيِّ قَبْلَ تَسْجِيلِهِ أَوْ دُونَ تَسْجِيلِهِ وَلَا سِيمَا فِي الْأَرْيَافِ ، وَإِنْ كَانَ التَّسْجِيلُ صَائِرًا بِالْتَّدْرِيْجِ إِلَى الضَّبْطِ وَالدِّقَّةِ . وَالنَّاسُ فِي الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ يَعْبُونَ أَنْ يَكُونُ لَهُمْ ذَرِيْةٌ فَهِيَ عِنْدُهُمْ اسْتِمْرَارٌ لِذَوَاهُمْ ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ يَنْبُوْعُ سَعَادَةٍ ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ مَجَالٌ لِلتَّفَاخُرِ وَالْتَّكَاثُرِ . وَقَدْ دَعَمَ الدِّينُ هَذَا الْمَيْلُ الْمَتَّاصِلُ فِي النُّفُوسِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْشَّرِيفِ .

ويذكر أبو حامد الغزالى في جملة « الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة لي-dom العقد وتتوفر مقاصده » على حد تعبيره « أن تكون المرأة ولوداً فان عرفت بالعمر فليمتنع عن تزوجها ، قال عليه السلام : عليكم باللولد اللودود . فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعي صحتها وشباها فانها تكون ولوذاً في الغالب مع هذين الوصفين » .

وعندنا أن اباحة تعدد الزوجات في بعض الأحوال الاستثنائية تدخل في العناصر الایجابية لتنظيم العلاقات الجنسية ولتكثير النسل . ونتفهم هذا بسهولة اذا

انتبهنا في التاريخ لارباء عدد النساء على الرجال في صدر الاسلام بسبب شهداء المجاهدين الذين فتحوا جوانب الأرض ، وكذلك ورث المسلمون الأوائل ما خلفته جاهليتهم من آثار التقاتل والتلفاني بين القبائل اذ كانت العروبة والغاريات سجالاً بينهم . ولا شك أن آثارها كانت مشؤومة على المذكور ، ولا يمكن أن يعدلها وآد البنات الذي كان محدوداً ، والذي انما عرف عند قليل من القبائل وحسب ، فعمره الاسلام .

واتجاه الدين في روحه فالى الاكتفاء بزوجة واحدة . ذلك أدعى للسعادة ولحسن تربية الأولاد . على أن التطور الاجتماعي وضع صياغاً اقتصادية ازاء تعدد الزوجات . فاصبح هذا التعدد قليلاً أو نادراً جداً الا في البيئات الريفية ولدى الأغنياء من الريفين . ويقصد الزواج المتعدد أحياناً الى تيسير بعض الأمور الاقتصادية لأن الزوجة في الريف تقوم بكثير من الأعباء الاقتصادية كالعناية بالماشية واعداد العليب والزبدة والبيعن وغيرها . بيد أن ذلك صائر الى الزوال والاحتياج .

ومع تلك الاعتبارات الدينية والنفسية السالفة نعتقد أن الأحوال الاجتماعية العامة ونطع الاقتصاد الزراعي هي المحددة نهائياً بوجه عام لارتفاع معدل المواليد في البلاد العربية .

ان معدل المواليد^(٦) هذا يحسب بقسمة عدد المواليد في سنة تقويمية^(٧) على متوسط عدد السكان في خلال السنة نفسها وهو ما يكفيه عدد السكان في ١ تموز (يوليو) على أن يضرب خارج القسمة بالف :

$$\text{معدل المواليد} = \frac{100 \times \text{مو}}{\text{ع}}$$

مو عدد المواليد ، عدد السكان في منتصف السنة .

وإذا شملت الولادات المواليد الأحياء والمواليد الأموات وصف المعدل بالبعي . ولكن لا يدخل فيها على الغالب الا المواليد الأحياء فيوصف المعدل بالتابع او الواقعى . وإذا أُغفل وصف معدل المواليد فالراد هذا المعدل الأخير الذي لا يحوي الا المواليد الاصحاء . وهو المعدل المتداول الشائع الاستعمال .



على أنه من المناسب عند حساب عدد المواليد في السنة أن ننتبه لعدد المواليد العاصلة فعلاً في السنة وعدد المواليد المسجلة لأن مهلة التسجيل قد تكون في بعض البلدان طويلة تتجاوز الشهر، وهذا ما يجعل العدد الأول يختلف عن العدد الثاني أحياناً .

كذلك من المناسب الانتباه لتعريف المولود العي لأن المجتمعات تختلف في هذا الاعتبار .

في بعض البلدان يعطي مهلة ثلاثة أيام أو أكثر لتسجيل المولود ، فإذا هلك المولود خلال هذه المهلة سجل في عداد المواليد الأموات لا في عداد المواليد الأحياء .

وتحتاج اختلاف في تعريف الوليد العي عند ولادته هل يعتبر التنفس أو الاستهلاك أو أي أمارة حياة أخرى دليلاً على حياته فيُعد وليداً حياً ولو هلك بعد ذلك بوقت قصير أو هل تعتبر مدة العمل (ستة أشهر في إيطالية) أو مقدار الوزن (٤٠٠ غرام كما في تشيكوسلوفاكية) شرطاً لاعتباره قابلاً للحياة لأن الأجنة الذين يولدون قبل تلك المدة أو الذين أوزانهم أقل من ذلك قلماً يعيشون ولو ولدوا أحياءً . هذه اعتبارات تتفاوت بتفاوت التشريع .

هذا وقد اقترحت منظمة الصحة العالمية في آذار (مارس) سنة ١٩٥٠ تعريف « ولادة الوليد العي » بأنها « طرح جسم الأم نتاج العمل بصرف النظر عن مدة العمل أو اخراجه منه على أن يتتنفس هذا النتاج بعد الانفصال أو تظهر عليه أمارة من أمارات الحياة كخفقان القلب أو نبض العجل السري أو اختلاج عضلة قد تخضع لفعل الإرادة سواء قطع العجل السري أم لم يقطع وفصلت المشيمة أو لم تفصل » .

ولا شك في أن توحيد هذه الاعتبارات لدى مختلف المجتمعات ييسر الموازنة الصحيحة بين معدلات المواليد .

هذا وقد اهتم الفقهاء المسلمين منذ القدم بتعريف المولود العي وبتفريغه عن المولود الميت وأراوهم في هذا الموضوع تطابق تماماً توصية منظمة الصحة العالمية . جاء في « تكلمة البحرين الرائق شرح كنز الدقائق » : « وطريقة معرفة انفصاله حيأ أن يستهل أو يسمع منه عطاس أو تنفس أو يتحرك بعض أعضائه أو ما شاكل ذلك » (٨) .

ويجري على هذا النهج من البلاد العربية جمهورية مصر العربية . فهي تعتبر أي إمارة من إمارات الحياة كافية لاعتباره حي ، فإذا مات قبل تسجيله سجل بين المواليد الأحياء ثم بين الوفيات ولم يسجل بين المواليد والأموات . وتجري سورية على تسجيله بين الوفيات لا بين المواليد الأحياء .

وإذا تأملنا معدلات المواليد في مختلف البلدان جاز أن نصنفها تصنيفاً عاماً في ثلاثة أقسام :

- ١ - بلاد مولوديتها ضعيفة ، (وهي ماقل عدد المواليد فيها عن ٢٠ لكل ألف شخص من السكان) .
- ٢ - بلاد مولوديتها متوسطة (من ٢٠ إلى ٣٠ بالألف) .
- ٣ - بلاد مولوديتها مرتفعة (أكثر من ٣٠ بالألف) .

وفي الغالب تكون البلاد ذات الحضارة الصناعية الرأسمالية ذات معدل مواليد منخفض ، على حين أن البلاد الزراعية والبلاد الناشئة النامية ذات معدل مرتفع . والبلاد العربية مرتفعة المولودية ، ومعدل المواليد فيها على الغالب يناهز الأربعين بالألف . وستورد عما قليل بعض الأمثلة .

ويزيد معدل المواليد في بيان زيادة الشعب في السنة بوجه عام ، ولكنه غير دقيق الدلالة . ذلك أن المواليد تنسب إلى مجموع السكان في منتصف السنة ، وفيهم الأطفال والأولاد الصغار والمسنون والنساء اللواتي تجاوزن سن الخمسين . وكذلك لا يكفي الاعتماد على هذا المعدل وحده في المقابلة بين الشعوب لأن فئات الأعمار عندها ليست متشابهة ، ببعضها كما ذكرنا في بحث الأعمار فتى" وبعضها هرِّم أو مُسِّين .

وإذا أريد التدقير في الولادات لزم حساب معدل الخصب^(٤) وهو عبارة عن عدد المواليد في غضون السنة التقريبية منسوباً إلى عدد الإناث من سن العاشرة أو سن الخامسة عشرة إلى نهاية المائسة والأربعين .

فإذا كان عدد المواليد يشمل المواليد الأحياء والأموات حصلنا على الخصب الجماعي ، وإذا شمل الأحياء وحدهم كان الخصب الواقعي . وإذا أغفل الوصف كان الخصب الآخر هو المقصود .

وباعتبار معدل الخصب يمكن تقسيم البلاد ثلاثة أقسام :

- ١ - بلاد معدل الخصب فيها ضعيف (أقل من ٨٠ بالآلاف) .
 - ٢ - بلاد معدل الخصب فيها متوسطة (بين ٨٠ - ١٠٠ بالآلاف) .
 - ٣ - بلاد معدل الخصب فيها مرتفع (أعلى من ١٠٠ بالآلاف) .
- والبلاد العربية من الزمرة الأخيرة .

ان معدل الخصب أقوى دلالة على مدى الانسال في المجتمع من معدل المواليد ، لأنه بالتعريف يناسب المواليد الى الاناث في سن الانسال لا الى مجموع عدد السكان .

ان التبكيـر في تزوـيج البنـات من أهم العـوامل التي تـرفع مـعدل الخـصب في فـئـات الأعـمار الفتـنـية بين الـزـوـجـات . ولو رجـعنا إلى جـدول نـسب المـتزـوجـات لـرأـينا أن نـسب الـزـوـجـات الـلـوـاتـي أـعـماـرـهـنـ بـينـ ١٥ـ ١٩ـ ٢٠ـ ٢٤ـ ٢٥ـ ٣٤ـ فـي الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ تـعادـلـ نـسبـ عـدـدـ الـزـوـجـاتـ الـلـوـاتـيـ أـعـماـرـهـنـ بـينـ ٢٠ـ ٢٤ـ ٢٥ـ ٣٤ـ فـي فـرـنـسـةـ وـالـسـوـيـدـ مـثـلاـ . فالـتـبـكـيرـ فـي زـواـجـ الـبـنـاتـ اذـنـ حـاـصـلـ فـي الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ بـمـقـدـارـ حـسـنـ سـنـواتـ بـالـنـسـبـةـ لـلـبـلـدـيـنـ الـأـوـرـبـيـنـ الـأـنـفـيـنـ . وهذا التـبـكـيرـ أـهـمـ نـتـائـجـهـ زـيـادـةـ الـأـوـلـادـ وـاتـسـاعـ الـذـرـيـةـ .

هـذاـ وـتـرـغـبـ الـأـسـرـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الـأـوـلـادـ فـهـمـ عـدـدـ الـأـهـلـ وـعـتـادـهـمـ وـعـمـادـهـمـ وأـمـلـهـمـ الـكـبـيرـ . وـالـنـفـقـاتـ الـقـلـيلـةـ الـتـيـ تـصـرـفـ عـلـىـ تـرـبـيـتـهـمـ تـعودـ بـالـغـيرـ الـوـفـيرـ عـلـىـ أـهـلـهـمـ وـعـلـىـ بـلـادـهـمـ ، وـاـنـهـ لـشـيءـ أـغـلـىـ وـلـأـعـلـىـ مـنـ الـإـنـسـانـ وـلـاـ سـيـماـ اـذـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ الـقـيمـ الـرـفـيـعـةـ الـمـخـلـفـةـ الـتـيـ يـسـتـطـعـ تـحـقـيقـهـاـ وـاـنـشـاءـهـاـ وـابـدـاعـهـاـ .

وـالـذـيـ يـجـعـلـ الـأـهـلـيـنـ يـرـغـبـونـ فـيـ الـذـرـيـةـ أـحـيـاـنـاـ اـرـتـفاعـ نـسـبـ الـوـفـيـاتـ بـعـضـ الشـيـءـ بـيـنـهـاـ . فـاـذـاـ فـقـدـ الـأـبـوـانـ وـلـدـاـ لـهـمـارـ جـوـاـ اللهـ أـنـ يـثـبـهـمـ أـجـراـ فيـ مـصـبـيـتـهـمـ وـأـنـ يـمـوـضـهـمـ بـدـلـاـ مـنـهـ . هـذـاـ وـلـاـ رـيبـ فـيـ أـنـ مـعـدـلـ الـمـوـالـيـدـ سـوـفـ يـقـلـ بـعـدـ أـمـدـ حـيـنـ تـتـقـدـمـ الـأـحـوـالـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـتـزـدـهـرـ الـمـوـارـدـ الـاـقـتـصـادـيـةـ وـيـرـتـفـعـ مـسـتـوىـ الـمـعيشـةـ وـتـنـخـفـضـ تـبـعـاـ لـذـلـكـ الـوـفـيـاتـ .

وـشـمـةـ فـرـيقـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ قـدـ يـعـرـرـهـمـ التـفـكـيرـ الـاسـتـعـمـاريـ فـيـدـعـونـ إـلـىـ ضـبـطـ النـسـلـ وـتـقـلـيلـ الـمـوـالـيـدـ فـيـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ .

ولقد سلف أن أكثر البلاد العربية متخلغل بالناس قليل الكثافة بهم محتاج إلى العمران الذي يتم بزيادة السكان : وأيا كان الأمر فلا شك أن السبيل القويم السعي لتقليل الوفيات بتحسين أحوال المعيشة عامة وزيادة الموارد الاقتصادية والعناية بالأمور الصعبة .

فإذا تهيأ ذلك وتقدمت البلاد انخفض بطبيعة الأمر معدل المواليد ، وهكذا يبين أن الصواب البده بمكافحة الموت لا بمكافحة الحياة .

الوفيات

الولادة والوفاة بالنسبة إلى الفرد طرفاً لحياته في هذا العالم . الولادة بدايتها والوفاة نهايتها ولكنها للمجتمع وظيفتان دائمتان . فهو يضيع بالموت في كل حين قسماً من عناصره ، ويغتاضب بالولادة عن أصل جديدة . ويشبه في هذا التجدد الجسم الحي الذي يضيع بعض خلاياه ويبدل بها خلاياه حديثة .

وإذا كانت الولادات عاملاً مهماً في زيادة السكان فالوفيات تأتي في طليعة العوامل التي تنقص عددهم . ويعسب لها في كل مجتمع معدل بأن يعصي عددها في غضون السنة التقويمية ويقسم على عدد السكان في منتصف السنة ويضاعف خارج القسمة بـ $\frac{1}{2}$.

وقد يؤخذ عدد السكان في أول السنة بدلاً من منتصف السنة . فتحصل عندئذ نسبة الوفيات .

هذه النسبة الأخيرة تتضمن معنى احتمال الوفاة المعرض له كل فرد من السكان في بداية السنة . وكل من النسبة والمعدل موضع استعمال والفرق بينهما ضئيل جداً (١٠) .

هذا ويمكن في المسر العاشر تقسيم البلدان ثلاثة زمن بحسب ارتفاع معدل الوفيات السنوي .

- ١ - البلدان الكثيرة الوفيات (المعدل أعلى من ١٣ بالآلاف) .
- ٢ - البلدان المتوسطة الوفيات (المعدل بين ١٠ - ١٣) .
- ٣ - البلدان القليلة الوفيات (المعدل أقل من ١٠) .

هذا جدول بالاحصاءات العيوبية في البلاد العربية يوضح المعدلات المهمة

الدولة	السنة	المواليد بالملايين الكلي(١)	نسبة وفيات المواليد بالآلاف	معدل الوفيات الطبعية بالآلاف	معدل النمو ال الطبيعي	معدل الوفيات الطبعية بالآلاف	معدل الوفيات الطبعية بالآلاف	معدل الوفيات الطبعية بالآلاف	معدل الوفيات الطبعية بالآلاف
المملكة الأردنية الهاشمية	١٩٨٤	٦٦٦٢	٦٣٠	٢٤٩	٦٦٠	٤١٥	٦٦٠	٢٤٩	٦٦٦٢
دولة الامارات العربية المتحدة	١٩٨٦	٦٦٨٥	٤٨٩	٣٩٧	٦٦٦	٤٦٣	٦٦٦	٣٩٧	٦٦٨٥
دولة البحرين	١٩٨٤	٢٣٠	٩٥٠	٩١٥	٢٣٠	٣٢٤	٢٣٠	٩١٥	٢٣٠
الجمهورية التونسية	١٩٨٦	٦٠٠	٨٥٣	٢٤٧	٦٤٠	٣١١	٦٠٠	٢٤٧	٦٠٠
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	١٩٨٥	٦٠٠	٩٣٥	٢١١	٨٤٠	٣٩٥	٦٠٠	٩٣٥	٦٠٠
جمهورية جيبوتي	١٩٧٠			٢٤٤	٧٦٠	٤٢٠		٢٤٤	
المملكة العربية السعودية	١٩٨٦	٥٦٠	١٠٨٢	٢٤٥	١٢٨	٣٧٣	٥٦٠	٢٤٥	٥٦٠
جمهورية السودان الديمقراطية	١٩٨٥/٨٠	٤٧٨	١١٧٨	٢٨٥	١٧٤	٤٥٩	٤٧٨	٢٨٥	٤٧٨
الجمهورية العربية السورية	١٩٨٦	٥١٣	٥١٣	٣٤١	٨٣	٤٢٤	٥١٣	٣٤١	٥١٣
جمهورية الصومال الديمقراطية	١٩٨٥/٨٠	٤٠٩	١٥٤٩	٢٤٦	٢٣٣	٤٧٩	٤٠٩	١٥٤٩	٤٠٩
الجمهورية العراقية	١٩٨٦	٦٢٥٧	٦٢٥٣	٣٦٥	٨٦	٤٥١	٦٢٥٧	٦٢٥٣	٦٢٥٧
سلطنة عمان	١٩٨٤	٥٠٢	١١٦٤	٣٢٢	١٥٣	٤٧٥	٥٠٢	١١٦٤	٥٠٢
فلسطين	١٩٨٢			٢١٣	١٢٢	٤٤٥		٢١٣	
دولة قطر	١٩٨٦	٥١٥	٥١٥	٢٨٣	٤٨	٣٣١	٥١٥	٢٨٣	٥١٥
دولة الكويت	١٩٨٤	٦٩٠	١٨٥	٣١٩	٢٨	٣٤٧	٦٩٠	١٨٥	٦٩٠
الجمهورية اللبنانية	١٩٨٤	٦٦٨	٤٩٢	٢٢٧	٧٧	٣٠٤	٦٦٨	٤٩٢	٦٦٨
الجماهيرية العربية الليبية	١٩٨٥/٨٠	٥٨٣	٩٦٥	٣٤٧	١٠٩	٤٥٦	٥٨٣	٩٦٥	٥٨٣
الجمهورية مصر العربية	١٩٨٦	٦٠٥	٧١٢	٣٠٦	٨٧	٣٩٣	٦٠٥	٧١٢	٦٠٥
المملكة المغربية	١٩٨٥/٨٠	٥٨٢	٩٦٥	٢٥١	١١٣	٣٦٤	٥٨٢	٩٦٥	٥٨٢
الجمهورية الإسلامية الموريتانية	١٩٨٥/٨٠	٤٣٥	١٣٧٣	٢٩٢	٢٠٩	٥٠١	٤٣٥	١٣٧٣	٤٣٥
الجمهورية العربية اليمنية	١٩٨٦	٤٧٣	١٤٠٢	٢٨٣	٢٠٨	٤٩١	٤٧٣	١٤٠٢	٤٧٣
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	١٩٨٦	٤٩	١٣٣٣	٣١٩	١٧٨	٤٩٧	٤٩	١٣٣٣	٤٩

تقديرات من المجموعة الاحصائية العربية الموحدة

العدد الثاني نيسان/ابريل ١٩٨٩

جامعة الدول العربية

الامانة العامة

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا

١ - مدخل الفصب الكلي محضوب هنا للمرأة الواحدة وهو غير مدخل الفصب العام الذي سلف شرحه وسيأتي شرح
الفصب الكلي .

وارتفاع معدل الوفيات يشير الى عدم تقدم الأمور الصحية والاقتصادية في البلاد تقدماً كافياً وقد انخفضت معدلات الوفيات في البلاد العربية انخفاضاً ملحوظاً نظراً لتقدم الأحوال الصحية فيها .

ولكن معدل الوفيات هذا غير دقيق الدلالة . فهو يشير الى عدد الأموات عامة ويففل عاملاً مهمًا في الوفيات وهو اختلاف الأعمار ، ولذلك لا يشف تماماً عن الأحوال الصحية في البلاد . ومن المعلوم أن معدل الوفيات في السجن مثلاً أقل منه في المستشفى أو في ملأ العجزة مع أن أحوال المستشفى أو الملجأ أجود وأكرم من أحوال السجن . وقد يكون الشعبان متقارن بين في العادات والنظم الاجتماعية وفي أحوال القليم، ومع ذلك يختلف معدل الوفيات عندما لاختلف توزع الأعمار.

ولذلك تحسب معدلات الوفيات في فئات الأعمار اذا اعتبر عدد الفئة في منتصف السنة او نسب الوفيات اذا اعتبر عدد الفئة في أول السنة بحسب مقتضيات الحساب ويوانز بينها عند اللزوم فهي أصح شفوفاً عن الأحوال الصحية في المجتمعات .

ويمكن حساب نسب الوفيات لكل سنة من سني العمر وعدد الوفيات فيها أيضاً ورسم الخط البياني الدال على اختلاف نسب الوفيات مع الأعمار وكذلك الخط البياني الدال على اختلاف عدد الوفيات في الأعمار .

اما شكل المنحني الأول فهو قريب من حرف اللام العربي ، وأما شكل المنحني الآخر فهو بعد هبوطه يرتفع بذاته حتى يبلغ نهايته العظمى في سن تدعوها بالعمر النظامي أو الطبيعي أو المعتمد ، تكون الوفيات فيه أكثر منها في الأعمار التي بعده والتي قبله بصرف النظر عن وفيات الرضع .

وفيات الرضع

هي بالاصطلاح الوفيات التي تقع بين المواليد الأحياء قبل أن يتموا عامهم الأول . فالرضيع هنا بالاصطلاح من لم يبلغ تمام العام الأول مع أن مدة الرضاعة عامان .

ولحساب نسب وفيات الرضع طرق تتفاوت دقة وضبطاً أبسطها وأهمها ما يأتي :

١ - يحسب عدد وفيات الرضع في السنة التقويمية وينسب إلى عدد الرضع الذين أعمارهم أقل من سنة أو إلى عدد المواليد الأحياء في تلك السنة .

$$\text{نـا} = \frac{\text{وـا}}{\text{مـو}} \quad \text{أو} \quad \text{نـا} = \frac{\text{وـا}}{\text{مـن}}$$

ولكن هذه الطريقة تتقد بأن الوفيات الحاصلة بين الرضع الذين تقع أعمارهم دون السنة الأولى قد تصيب الرضع المولودين في السنة الفائتة .

٢ - لذلك قد تنسب وفيات الرضع في السنة التقويمية إلى متوسط المواليد في هذه السنة وفي السنة التي قبلها .

$$\text{نـا} = \frac{\text{وـا}}{\text{مـو} + \text{مـو}}$$

٣ - لكن الوفيات التي تصيب مواليد السنة المحسوبة فيها النسبة أكثر من الوفيات التي تصيب مواليد السنة الفائتة .

لذلك يعدل الدستور السابق على الشكل التالي :

$$\text{نـا} = \frac{\text{وـا}}{\text{مـو} + ٢٨٠ \text{ مـو} + ٦٢٠ \text{ مـو}}$$

باعتبار مواليد السنة الفائتة .

٤ - يسب إلى عدد المواليد في السنة التقويمية مو عدد من يتوفى منهم في السنة نفسها ول يكن و ثم في في السنة التالية ول يكن و .

$$\text{أي} \quad \text{نـا} = \frac{\text{وـا} + \text{وـ}}{\text{مـو}}$$

وكما يأتي الاختلاف من طريقة الحساب كذلك يأتي من تفاوت نظم التشريع المتعلق بتسجيل المواليد ومن تفاوت الاعتبارات حول تعريف المولود العي والمولود الميت . وقد تقدم شرح هذا التفاوت عند بحث الولادات .

ولكن هذا التفاوت يدخل في الحساب فروقاً ضئيلة لا تمنع من المقارنة والموازنة يوجه عام .

ومن المعلوم أن وفيات الرضع في البلاد العربية مرتفعة . ولا بد من تعهد هذا الجانب الغض من بنياننا القومي . ومن الضروري اقامة تشريع يكفل العناية بالأمهات العوامل ويسهل العيادات الطبية لهن ويحمل كل ولادة لا تقع الا في مستشفى أو باشراف طبيب أو قابلة مختصة . هنا ، ولا شك أن وفيات الرضع ضرب من التضييع في رأس المال الانساني ان جاز هذا التعبير . وفيه ارهاق لصحة الأمهات لا طائل فيه ولا نفع ، عدا الأحزان التي تساور نفوس الأهل عند وفاة ولديهم وعدا النفقات التي تصرف فتضييع سدى وتذهب عبثا .

وإذا كان الإنسان مسؤولا عن عمره الى حد فان الرضيع أو الطفل يبدو وكأنه وضع زمام حياته بين يدي المجتمع الذي وفده اليه . فالمجتمع مسؤول عنه ، وعلى المجتمع تقع تبعه هلاكه في الغالب حين يموت . ذلك أن المجتمع بتنظيم الأمور الصحية فيه وحماية الأمهات العوامل والأطفال يستطيع أن ينقص نقصاً كبيراً الوفيات التي تقع بين الرضع والأطفال . حتى ان مدى نقصان وفيات الرضع يستطيع أن يشف عن مقدار تقدم المجتمع .

ان وفيات الرضع مرتفعة نسبياً في الحال الطبيعية لدى مختلف المجتمعات ، وكان كل انتاج أيها كان نوعه مادياً أو حيوانياً لا بد من أن يلازم نصيب من التلف . بيد أن تقدم الحضارة يؤدي الى نقصان هذا التلف الى أصفه حد ممكناً . وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب اذا وجدنا ان لكل مجتمع نسبة لوفيات الرضع منتبطة بدرجة تطوره وصالحته لكي تكون دليلاً على هذا التطور . فهي بهذا الاعتبار معيار عددي يُستند اليه أحياناً في الدراسات الاجتماعية لبيان مدى تقدم المجتمع عامة ، لا من الوجهة الصحية وحدها ، لأن الأمور الصحية والاجتماعية والاقتصادية وأمثالهما متشاركة متضامنة متساندة . وقد ظهر من الدراسات الاجتماعية الحديثة أن هذا الجانب الغض من الأسرة يتلقى الى مدى كبير آثار التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية العامة . فوفيات الرضع قسم كبير منها تكون أسبابه اجتماعية وليس قائمة في بنية الرضيع أو الطفل .

على أن بعض الأسباب قد تكون فيزيولوجية . من هذه اختلاف الأبوين في الزمرة الدموية .

الزمرة الدموية Rh أو العامل بندر

من المعروف أن الدماء تصنف في أربع زمر أساسية وهي O , AB , B , A وأنها على ذلك تصنف في زمر أخرى مثل G , M , N , P , H . ثم كشف العالمان الأمريكيان وينس Peters وبيترز Wiener سنة ١٩٤٠ في دم القرد المسمى بندرًا Macacus Rhesus ، ثم في الإنسان ، هذه الزمرة التي دعيت بأول اسم القرد . وهي منتشرة بين الناس بنسبة ٨٥ - ٨٠ بالمائة واختلاف الزوجين في هذه الزمرة بأن يكون دم الرجل يحوي هذا العامل على حين دم زوجته خلو منه داع إلى قلة النسل ، اذ يولد للزوجين الولد البكر بسلام ، ولكن في خلال العمل يتكون في دم الأم الجسم الضدي أو الداخرة التي تؤثر في دم الجنين الثاني أو الثالث أو غيره اذا ورثوا من أبيهم العامل Rh ويستدعي ذلك اسقاطهم او اصابتهم بفقدان الدم وهلاكهم بعد الولادة اذا لم تفسد دمائهم وتبدل ، ولذلك ينصح للمقيلين على الزواج أن يحلل دماءهما ويعرفا الزمرة التي ينتمي كلها اليها . حتى اذا رغبا في الذريعة عرفَا مصيرها ان اختلفا في هذه الزمرة الدموية .

على أن كثرة شيوع هذه الزمرة بين الناس كما قدمنا يقلل احتمال تفاؤت الزوجين فيها ويفسر من أهميتها في النطاق الاجتماعي العام ، على حين يبقى اثراها من الناحية الفردية .

العوامل المؤثرة في الوفيات

يؤثر في الوفيات عوامل متفاوتة بعضها داخلي وآخر خارجي . أما الداخلي فكالملمر والجنس .

العوامل الداخلية

العمر - ان وفيات الرضع تكون عادة مرتفعة فإذا تجاوز الوليد السنة الأولى قل ترضه للوفاة وزاد احتمال تعميره اذ تهبط نسبة الوفيات هبوطاً سريعاً في السنة الثانية والثالثة وهلم جرا ، ما عدا بعض البلدان النامية ولا سيما التي حول البحر

الأبيض المتوسط ومنها البلاد العربية حيث تستمر وفيات الأطفال الصغار مرتفعة في السنة الثانية والثالثة والرابعة ثم تنخفض انخفاضاً شديداً . وقد نقصت وفيات الاطفال بفضل المضادات الحيوية وتقدم العلاج . وما وفع منها يعود أكثراً إلى طوارئ تحدث عن الطيش وعن اغفال اهليهم لهم . ثم اذا دبروا كدهم البهد وتدارو لهم الاحوال الاجتماعية والاقتصادية وهموم مهابتهم ومتغيريات اعمالهم . فاذا بلغوا عتيماً من العمر تداعى الجسم وناله التصب والاجهاد . وربما كان تداعى بنية الجسم بالكبر اشد تأثيراً في المسنين من العوامل الخارجية . بل ذلك التداعي يكون سبباً يزيد تأثير العوامل الخارجية فيه .

الجنس - ثم ان نسبة الوفيات بين الاناث أقل منها بين الذكور عامة في جميع الأعمار اذا تساوت الاحوال الاجتماعية التي ترعى الذكور والاناث جميعاً على السواء وقد سبقت الاشارة الى ذلك أما اذا كان المجتمع أقل رعاية لاحد الجنسين زادت وفياته على الجنس الآخر . ومن المعروف أن نسبة الوفيات بين الاناث في الهند أعلى منها بين الذكور وذلك لزواج البنات المبكر وتعرضهن للعمل المتكرر وما قد يرافق الولادة من حمى النفاس . كذلك تتدخل بعض العادات التي تحمل الأرامل على احرق أنفسهن بعد وفاة بعولتهن وان كانت هذه العادات صائرة الى التقصان والتلاشي .

العوامل الخارجية

اما العوامل الخارجية فهي متعددة ونحن نريد أن نتتبع أهمها باستثناء الأولياء والغروب .

الحال المدنية - لقد تبين من الاحصاء أن الوفيات بين المتزوجين أقل منها بين العزاب في الأعمار أنفسها . ذلك أن السعادة والرضا في الزواج يهيئان حياة سليمة وصحية . فالزواج أكثر ملاءمة للانسان جسماً وعقلاً من العزوبة . ولما كان الانسان يُقبل على الزواج طوعاً واختياراً فربما يكون الصدوق عنه دلالة على ضعف أو اضطراب أو قلة التكيف في بعض الأحيان .

ثم ان الوفيات بين الأرامل والمطلقات أكثر منها بين المتزوجين بل أكثر منها بين العزاب بوجه العموم . وارتفاع الوفيات هذا قد يُعزى الى سوء انتخاب القرىين من الوجهة الصحية في البداية اذ لا بد من تأثير القرىين بقرارته صحياً ، أو يُعزى الى مشاق الترمل . أما المطلقون فان قلة التلاوؤم في الزواج وقلة الاستقرار بعده أمران منفصان يهددان عيشهما ويقوضانه .

هذا وان تلك نتائج احصائية تصع في البلاد المتقدمة التي تحمل الدولة فيها القسط الأوفر من أعباء الأسر . وليس في بلادنا احصاء في هذا المجال ، وتحمل الأسر أنفسها مختلف الأعباء وشتى الهموم في اعالة أبنائها وتشتتهم كما تحمل مسؤولية صحتهم ونموهم .

المناخ – وقد يكون للمناخ تأثير في الوفاة ولكن يصعب عزل أثره وحده بين العوامل المحيطة الأخرى . فقد تتفاوت البلدان مناخاً وتتشابه في انخفاض معدل الوفيات كاسترالية ونيوزيلندة وجنوبي افريقيا وكندا حيث تشتت حمارَة القيط في بعضها كما تشتت صبارَة البرد في بعضها الآخر . وقد أصبح الانسان يستطيع أن يتغلب على سوء المناخ اذا كان غير صحي لانتشار بعض الأوبئة فيه أو العشرات أو الطفيليات . ولا شك أن للاقليم أثراً في تفشي بعض الأمراض كالبرَّداء والحمى الصفراء او يساعد ارتفاع الحرارة ووجود السباح على انتشار جراثيمها . وقلما ينتشر الغنائم والحمى القرمزية في المناطق الاستوائية . ثم ان أمراض جهاز التنفس لا تنتشر في طقس مشمس جاف . أما انتشار السل في بعض المناطق الجافة المشمسة فمرده الى سوء التغذية والفقر والاستعمار . هذا وان الزكام والانفلونزا مرضاً عامان في مختلف البلدان وان كانوا في البلاد الرطبة أكثر انتشاراً وأشد فتكاً .

الفصول – وللفصول آثار في معدل الوفيات واضحة . وقد وجد نهاية عظمى للوفيات بأوربة في غضون كانون الثاني وشباط ، وبعرض البحر المتوسط في تموز وآب . ولكن تقدم الصحة ولا سيما الصحة الغذائية واستعمال المضادات الحيوية نقصت من استفحال الأمراض التي يتسبب بها اختلاف الفصول كالاسهالات وأمراض التنفس وترتبط على ذلك انخفاض في الوفيات الناجمة عنها .

الريف والحضر - لقد مكنا الاحصاء العيوي من المقايسة بين معدلات الوفيات في المدينة وفي الريف . ولقد كان معدل الوفيات لأمد قريب في الريف أقل منه في المدن . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فأصبح في المدن أقل منه في الأرياف لأن عمران معينة .

لقد تغيرت حال المدن في العصر الحاضر عنها في غابر الدهر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتعسست مرافق الحياة وجُرِّت المياه الى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف ، كما انتشرت النظافة وأشرف الحكومات على تأمين السلع الفضورية من أغذية وملابس ومساكن الا أنه ما يزال في المدن أحياناً مجال للتحسين في أحوال المصانع ولهايا الداكن المؤذني ومحروقات مطاييا المواصلات الناقلة كالسيارات والباصات . وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن .

ولئن استطاع الطب الحديث والتقنية الجديدة أن ينقصا ضراوة الأمراض الجرثومية في المدن فان اكتظاظ المواصلات زادت في سرعة انتشار الأوبئة بين أهل المدن ان وقعت كما جعلت طوارئ الاصطدام تستفحلاً خطيراً .

ان الريف في البلاد العربية جميل ولكنه ما يزال متاخراً بالنسبة الى المدينة على الرغم من جودة مناخه وعداؤه هوائه وجمال آفاقه .

الازدحام - ان المدن الكبيرة من أحسن صفاتها الازدحام بالنسبة الى الأرياف حيث تنبسط العقول وتشتكى الغابات . ولقد أخذت الهيئات المسؤولة في الدول تبذل جهودها في تنظيم الساكن الجديدة بالمدينة بحيث تتوافق فيها الشرائط الصحية وتحيط بها العدائق كما تضع الخطط المناسبة لانشاء المدارس والموانئ والمخازن في أفضل الأحوال المريحة . ومع ذلك فان الصحة لا تتصل بالاجر وبالملاط ولا بالخدمة الصحية بل تتعلق أيضاً بعادات الناس وهي تتحكم فيها التربية والذكاء وتتعلق أيضاً بالغذاء وبمستوى المعيشة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدار الدخل ولو أن هذا الارتباط أخذت تخفف منه قوانين تأمين الطب والضمان الاجتماعي الايجابية . هذا وقد غدت الدول العربية النقطة في طليعة البلدان اهتماماً بأحوال شعبها الصحية . على أن ارتباط الأمور بالدخل يدعونا الى تأمل علاقة الوفيات بالعرفة وبالامور الاقتصادية .

العرفة – ان نوع العمل يؤثر في الوفيات . وقد أجريت احصاءات لبيان مدى هذا التأثير . ولا شك أن بعض العرف مضر بالصحة كتعدين الزئبق والقصدير والمعلم في أعماق المناجم . بيد أن هذا لا يزيد وحده في معدل الوفيات بين هؤلاء العمال ، لأن العوامل مشتبكة . فكثيراً ما يختلط الأقوياء لأمثال تلك الأعمال . ولذلك لا بد من تصفّح تأثير العرف من مختلف الوجوه .

تؤثر العرف أولاً من حيث اصطفاء المحترفين لأن بعضها يقتضي قوة في الجسم ، ولا يمكن احترافها إلا إذا كان الراغب ذا نصيب من القوة لخطورتها وتعرض صاحبها لاختلاف الأجزاء كالطيارين وسائقي القاطرات أو لقوتها ومشقة العمل فيها كعمال المناجم والعمالين ، على حين لا تقتضي حرف أخرى جهداً جاهداً ولا نسباً ناصباً ، ولذلك تندو موئل الضعفاء من الناس ومعظم ركايبهم كالعمل في الدواوين والإدارة ، وقد وجدت نسبة الوفيات بين القائمين بهذه الأعمال عالية نسبياً .

وتؤثر العرف ثانياً من حيث نوع العمل المطلوب فقد يكون شاقاً مرهقاً ، ومن حيث جو العمل كأعمق المناجم وأجزاء بعض مصانع النسيج التي تتطلب حرارة رطبة وحلق القطن الذي يشير النفاية والغبار فيصلان إلى الرئتين وচقل المعادن الذي يطير النثار الدقيق فيعلق بمجاري التنفس وتعدين الزئبق ذي الأبغرة السامة وصناعة الأصيحة التي تنشر بعض الروائح السيئة . وقد تجعل العرفة غط العيادة مضطرباً ، ينبعي مثلاً لـ لندن الفنادق أن يستجيبوا لرغبات المسافرين بعضهم يوقظ بكرة وبعضهم يثوب في الهزيع الأخير من الليل ، والعراس ينامون النهار ويشهرون الليل ونوم الليل أروح من نوم النهار أو تدفع العرفة إلى اعتياد لون من المعيشة سيء كعمال المقاهي والملاهي يعتادون المسكرات .

وتؤثر العرف ثالثاً عن طريق مستوى العيش الذي تخوله أصحابها أي عن طريق مقدار الدخل ، ولا شك أن صاحب المصرف والتاجر والموظف والطبيب والمحامي والأعمال والأجر الخ لكل منهم مستوى خاص من العيش في خارج العرف سواء في داخل البيت (من جهة المسكن ، والغذاء ، واللباس) أو في العيادة العامة (من جهة العادات الاجتماعية المختلفة والعنابة المتفاوتة بالتداوي والقدرة على

التداوي) . على أن هذا التفاوت أصبح يتضاءل بتيسير الدولة سبل التداوي لأبنائها . وهذا ما هو حاصل في البلاد العربية النفعية . والخلاصة أن تقدم الطب والشؤون الصحية من جهة وازدياد الثروة العامة من جهة ثانية هما لا شك متضامنان متداخلان .

الأجل المتوقع

في علم السكان مصطلح مهم يتلمس الحياة والموت معًا مشتبكين وهو الأجل المتوقع . ويقال له أيضًا العمر المتوقع اذا نظرنا الى مدى الحياة المتوسط التي يعيشها أفراد جيل من الأجيال . وهو معيار جيد يعتمد في علم السكان وفي علم الاجتماع وفي البحوث الاقتصادية وفي شركات التأمين على الحياة وفي تعرف مستوى المعيشة في المجتمع . وأهميته ترجع الى أنه يلخص حياة جيل كامل من حيث مدة هذه الحياة موزعة عليهم نظريًا وحسابياً بالتساوي . الجيل في اللغة أهل الزمان الواحد ولكنه هنا بالاصطلاح جملة الأفراد المولودين في سنة تقويمية واحدة (كانون الثاني / يناير - ٣١) أو في فترة زمنية مسماة واحدة . وقد يطلق على الجيل في علم السكان لفظ الفوج لأن يقال مثلاً فوج المواليد أو جيل المواليد وهم الذين ولدوا في سنة واحدة .

فإذا نظرنا الى جيل من المواليد في سنة من السنين وتعقّبنا عدد من يبقى منهم على قيد الحياة سنة بعد سنة وجمعنا الأعمار المختلفة التي عاشهـا حتى بلغوا آجالهم تباعاً وقسمنا مجموع الأعمار على عدد أفراد الجيل في البداية كان خارج القسمة هو الأجل المتوقع ، كأننا تصورنا في الخيال أنهم جميعاً عاشهـاً وسطـياً هذا العمر على التساوي . وحسابه يسير وهو نظري وواقعي معًا : نظري لأنـه يعتمد على الغالب عدد أفراد الجيل عشرة آلاف أو مائة ألف ، وواقعي لأنـه يطبق على هؤلاء مائة ألف أو عشرة الآلاف نسبـات الوفيات الجارية في المجتمع نفسه في كل عمر من الأعمار المتتالية إبان فترة زمنية محددة حتى ينقرض الجيل كله احصائياً بهذا التطبيق .

وهذا الأجل المتوقع أو العمر المتوقع هو غير العمر المتوسط وغير العمر الوسيط وللتفرقيـن بين هذه المصطلحـات نضرب مثلاً بسيطاً :

خمس سيارات خرجت من مصنع واحد في سنين متفرقة وهي ١٩٦٠ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ . فإذا حسبنا أعمار هذه السيارات عام ١٩٩٠ وهي مازالت صالحة للاستعمال كانت على التوالي ٣٠ ، ٢٠ ، ١٥ ، ١٠ ، ٥ فالعمر المتوسط لها عام ١٩٩٠ هو ١٦ سنة .

أما العمر الوسيط فهو ١٥ في الترتيب لأن قبله رقمين وبعده رقمين فهو يقسم المجموعة قسمين متساوين في العدد أما الأجل المتوقع أو العمر المتوقع فلا يحسب لهذه السيارات التي صنعت في سنين متفرقة أي هي من أجيال مختلفة وإنما يحسب لجملة من السيارات صنعت في سنة من السنين ، ولتكن سنة ١٩٩٠ ، أي هي من جيل واحد . نفرض عدده السيارات خمساً أيضاً اشتغلت جميعاً ثم تعطلت نهائياً على التوالي بعد ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٤٠ سنة فأجل المتوقع لها عند خروجها من المصنع مجموع السنوات التي اشتغلت إبانها حتى تعطّلها ١٢٥ مقسوماً على عددها أي $\frac{125}{5} = 25$ سنة .

ويجوز أن يقال لهذا المصطلح الأجل المتوسط أيضاً لأنه المتوسط العسلي للأجال : آجال السيارات أو آجال أفراد الجيل الإنساني على الرغم من التباين الشاسع بين السلع المصنوعة .. والانسان .

هذا وكلما جادت صناعة السيارات والعناء بها وحسن تمهّدها تطاول أمد استعمالها وابتعد أجلها المتوقع وبالتالي أيضاً كلما حسنت الحياة الاجتماعية والصحية والاقتصادية وغيرها في المجتمع ابتعد الأجل المتوقع أي تطاول العمر المتوقع .

واذا تطاول هذا العمر المتوقع اتسعت للفرد وسطياً فسحة الحياة للعمل والانتاج والاتقان في مختلف المجالات . ومن المعلوم أن الاتقان والانتاج والعمل أساس التقدم الاجتماعي . ولذلك كان لهذا المصطلح دلالة عميقة وفسحة في علم الاجتماع .

وللأجل المتوقع علاقة بنسبة وفيات الرضع فكلما انخفضت هذه الوفيات طال الأجل . وكان الأجل المتوقع منخفضاً في البلاد النامية قبل كشف المضادات الحيوية

(أي الصادات) ولكنه ارتفع ارتفاعاً واضحاً بعد تحسن الأحوال الصحية وتقدم الشؤون الطبية والمنية بصحة المواليد والرضع والأطفال .

ويمكن أن يحسب الأجل المتوقع للجبل في كل عمر من الأعمار التي يصل إليها ولكن على الأغلب يحسب للمواليد جملة كما يحسب للذكور والإناث كل على حدة . ومن الملاحظ أن الخط البياني الذي يدل على اختلاف الأجل المتوقع باختلاف العمر يبدأ منذ زمن الولادة ثم يرتفع أحياناً ليبلغ الذروة بعد مرور السنة الأولى على المولود . ذلك أن الوليد الإنساني يحتاج غب الولادة إلى الرأم والتعهد والعون اذ تقاوم وظائفه العيوبية تغير المحيط الخارجي الذي وفد عليه . وأكثر ما يقع من وفيات الرضع والأطفال في العام الأول وبعده من قلة المنية والنفحة .

هذا ولا يخفى أن هذه اعتبارات احصائية تفيد في تعرف أحوال المجتمعات وتبيان خصائصها من الوجهة الكمية والمقدمة كما تفيد في المازنة بينها .

أما العمر الحقيقي الذي وبه الله لكل فرد من الأفراد فعلمته عنده جلّ وعلا (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - آية الكرسي) . وقد كلفنا الدين الحنيف العناية بأنفسنا وأهلينا ومجتمعنا .

الدليل العيوي ومعدل التصب الكلبي ومعدل التكاثر

ان معدل النمو الطبيعي أو الزيادة الطبيعية وهو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات يعطي فكرة بسيطة عن زيادة السكان . ولكنه غير دقيق الدلالة . فمعدل النمو هذا سواء اذا كان معدل المواليد ٤٠ ومعدل الوفيات ٣٠ أو كانوا ٣٠ ، ٢٠ ، ١٠ ، اذ هو يساوي في الأحوال الثلاث ١٠ مع أن الفرق كبير بين هذه الأحوال لأن الزيادة نفسها حاصلة في الحال الأخيرة مع استهلاك أقل في الأرواح وصرف أقل في الولادات . ولهذا يفضل في بعض الأحيان حساب الدليل العيوي على

$$\text{معدل النمو الطبيعي وهو } \text{ح} = \frac{\text{مو}}{100}$$

حيث ح الدليل العيوي ، مو عدد المواليد، وعدد الوفيات في نفس المدة الزمنية.

ويمكن بسهولة التعميض عن عدد المواليد و عدد الوفيات بمعدليهما .

فالدليل العيوي يشير الى عدد المواليد الأحياء الحاصلة مقابل مائة وفاة في السكان . وهو دليل بسيط ومهم اذ يشير الى القوة الحيوية للشعب . فاذا حسبناه في الأحوال السابقة الثلاث كان على التوالي ١٣٣ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، وظهر الفرق واضحاً .

ثم ان معدل النمو الطبيعي أيضاً لا يشف عن حقيقة ازدياد الشعب او ثبوته او نقصانه .

فقد يكون معدل المواليد أكبر من معدل الوفيات ويكون الشعب مع ذلك متناقصاً. لا يضاهي ذلك تصور مجتمعاً فيه خمسة ملايين امرأة (آنسة وسيدة) بين سن الخامسة عشرة وسن الثلاثين . وفيه في السنة نفسها أربعة ملايين و ٧٠٠ ألف بنت دون الخامسة عشرة . فلو فرضنا أن هؤلاء البنات دون الخامسة عشرة بلغن جميعاً سن الزواج ولم تهلك واحدة منهن كان من المعتم نقصان عدد المواليد في المستقبل بعد مضي خمس عشرة سنة لأن عددهن أقل من خمسة ملايين . وبهذا يتناقص المجتمع على الرغم من ارتفاع معدل المواليد على معدل الوفيات في هذا المجتمع .

وبسبب قلة الكفاية في معدل النمو الطبيعي يعمد العلماء الى حقيقة التوالد الانثوي أي عدد ما تلده الأمهات من بنات يحلّل محلهن حين يكبرن فيندون أمهات أيضاً . فاذا كانت الأم تلد وسطياً بنتاً تحل محلها باعتبار الظروف الجارية في المجتمع من زواج ووفيات اعتبر المجتمع ثابتاً في العدد لا يزيد ولا ينقص واذا كانت الأم تلد أكثر من بنت واحدة كان المجتمع متزايداً واذا كانت الأم تلد أقل من بنت وسطياً كان المجتمع متناقصاً وذلك بصرف النظر عن معدل المواليد والوفيات.

ولحساب ذلك يلجأ الى تعرّف معدلات الخصب المُصرّبة أي عدد المواليد ذكوراً واناثاً لفئات أعمار الأمهات كما في الجدول الآتي لدولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٨٦ بين المواطنات .

معدل الخصب في الالف	فئات الأعمار
١٥٨٨	١٩ - ١٥
٣٦١٢	٢٤ - ٢٠
٣٨٢٨	٢٩ - ٢٥
٣٠٢٢	٣٤ - ٣٠
١٩١٠	٣٩ - ٣٥
٨١٤	٤٥ - ٤٠
٢٩٤	٤٩ - ٤٥
١٥٦٨	

ويلاحظ أن معدل الخصب العمري يبلغ أوجه بين نساء دولة الامارات في الفئة العمرية (٢٥ - ٢٩) ، ولما كان مدى فئة العمر خمس سنوات لزم ضرب المجموع بالمعدل (٥) فالحاصل ٧٥٣٤ ، ومعناه أن كل ألف والدة بين سن الخامسة عشرة ونهاية التاسعة والأربعين يولد نهن ٧٥٣٤ مولوداً ذكراً وأنثى . فالوالدة الواحدة يولد لها وسطياً ٥ من الذرية . وهذا الرقم الأخير يدعى معدل الخصب الكلي . وبتبير بسيط كل عشر أمهات يولد لهن وسطياً ٧٥ مولوداً ذكراً وأنثى . ولما كانت نسبة الذكورة في مجتمع الامارات بين المواليد هو ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت نضرب معدل الخصب الكلي وهو ٥ بنسية الاناث في مجموع المواليد

١٠٠

وهو — فيكون الجداء ٣٦٦ وهو معدل التكاثر ، ويوصف فيقال له معدل ٢٠٥

التكاثر الصافي اذا دخل في حسابه نسبة تعمير الأمهات . ومعناه هنا في الامارات المتحدة أن الأم في حياتها الزوجية ومرحلة قدرتها على الانسال يولد لها أكثر من ثلاثة بنات يتبوأن مكانها في الأسرة حين يكتبـُن ويفدون أمهات . فمجتمع الامارات بهذا الاعتبار مجتمع متزايد تزايداً واضحاً .

الهجرة

هي انتقال المرء من أرض تدعى المكان الأصلي أو مكان المغادرة إلى أخرى تدعى المكان المقصود أو مكان الوصول بشرط أن يتجاوز الانتقال على الأقل حدود منطقة إدارية . ولا تنطبق الهجرة بهذا الاعتبار في الغالب على من ليس له مُقام (أي محل إقامة) ثابت . فلا يدخل فيها البدو ولا أشقاء البدو في أكثر الأقطار . ويفرق أحياناً بين الهجرة والنقلة الوقتية أو الرحلة الوقتية باعتماد معيارين وهما طول الغيبة عن المكان الأصلي ومدة الإقامة بالمكان المقصود .

ويدعى المهاجر من موطنه الأصلي ظاعناً ونازحاً كما يدعى المهاجر إلى موطنه الجديد وإنداً ومترباً . ويوصف بهذا الوصف من أجمع أمره على مغادرة وطنه إما أبداً وإما إلى أمد غير محدود يتجاوز على الأقل السنة .

ويجري التفريق في الدولة ذات السيادة بين الهجرة الداخلية حين يكون المكان الأصلي والمكان المقصود واقعين في داخل الدولة ، والهجرة الخارجية أو الهجرة الدولية التي تجتاز حدود الدولة .

تؤثر حركة الهجرة في عدد السكان . مثلّها في ذلك مثل حركة السكان الطبيعية أو نموهم الطبيعي . وتقاس بصفات الهجرة في المنطقة أو الدولة وهو الفرق بين الداخلين الوافدين إليها والخارجين الظاعنين عنها . فإذا زاد الداخلون على الخارجين دعيت الزيادة فيض الهجرة وإذا نقصوا عنهم دعي النقص غيض الهجرة . ويمثل مجموع الداخلين والخارجين حجم الهجرة .

وتشمل هجرة اختيارية تتم برغبة الفرد واختياره فإذا حملت الأشخاص منفردين كالعمال مثلاً دعيت بالهجرة الفردية . وقد تحمل أسرًا برمتها فتلك هجرات الأسر . وبعضها هجرات تبعية أي تابعة لهجرة رب الأسرة ولا سيما هجرة زوجه وأطفاله . أما تنقل العمال الذي تتبعه ظروف العمل والذى يتعلق بالسكان العاملين فهو يؤلف هجرة العمل . وقد ينتقل أحد القرىتين إلى موطن القرىن الآخر رغبة في الزواج فتلك هجرة زواج . وإذا حصل الانتقال عن ترك العمل بسبب التقاعد دعي هجرة تقاعد .

وَثُمَّةِ أَيْضًا الهَجْرَةُ الجَمَاعِيَّةُ وَهِيَ هَجْرَةٌ مُنْظَمَةٌ بَعْضُ التَّنْظِيمِ يَشَارِكُ فِي رُكُوبِ مُتَنَاهِرَةٍ زَمْرَةً مِنَ الْأَفْرَادِ وَالْأَسْرِ . وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الهَجْرَةُ ضَخْمَةً تَحْدُثُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ارَادَةِ سَكَانِ الْأَرْضِ الْمَاهِرِ إِلَيْهَا فَهِيَ نَوْعٌ مِنَ النَّفْرَوِ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا النَّفْرَوِ طَوِيلَ الْأَمْدِ تَقْوِيمُ بَهْ عَنَاصِرَ قَلِيلَةَ الْمَدْدِ فَيَدْعُ تِسْلَلًا .

أَمَّا سِيَاسَةُ الهَجْرَةِ فَهِيَ جَانِبٌ مِنْ جَوانِبِ السِّيَاسَةِ السَّكَانِيَّةِ . وَتَسْنِيَ الدُّولَ عَادَةً قَوَانِينِ الهَجْرَةِ الْوَافِدَةِ إِلَيْهَا فَتَعْدَ بِهَا تِيَارَهُ هَذِهِ الهَجْرَةِ وَتَنْظِيمَهُ وَرَبِّمَا لَا تَسْمَعُ لِلْأَجَانِبِ بِالْهَجْرَةِ إِلَّا لِمَنْ تَصْطَفِيهِمْ لِحاجَاتِهِمْ وَمَا يَرَبُّهَا فَتِلْكَ هَجْرَةٌ وَافِدَةٌ اِصْطَفَائِيَّةٌ .

بَحْثُ الهَجْرَةِ وَاسِعٌ يَتَعْلَقُ بِالتَّارِيخِ إِذْ وَجَدَتِ الْهَجْرَةُ مِنْذَ وَجَدَ الْإِنْسَانَ . وَحِرَكَاتُ الهَجْرَةِ التَّارِيَخِيَّةِ تَمَلَّأُ صَفَحَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ . بَلْ نَحْنُ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ نُؤْرُخُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَجْرَةِ مُشْرِقَةِ فِي تَارِيَخِنَا . وَيَتَعْلَقُ بَعْثُ الهَجْرَةِ بِالْإِقْتَصَادِ لَأَنَّ بَيْنَ الْإِقْتَصَادِ وَالْهَجْرَةِ عَلَاقَاتٌ مُشْتَبَكَةٌ ، وَيَتَعْلَقُ بِالسِّيَاسَةِ فَقَدْ تَكُونُ دَوَاعِيهَا وَآثَارُهَا سِيَاسِيَّةً ، وَيَتَعْلَقُ بِعِلْمِ النَّفْسِ وَالْإِجْتِمَاعِ لَأَنَّ لَهَا أَسْبَابًا وَنَتَائِجًا نُفْسِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً ، وَتَتَعْلَقُ بِعِلْمِ الْأَخْرَى يَطْوِلُ اسْتَقْصَاؤُهَا . وَهَنَالِكَ هَجْرَةُ لِلْجَمَادِ كَرْوُسُ الْأَمْوَالِ وَاللِّنَابَاتِ وَلِلْحِيَوانِ وَلَا سِيمَا الطَّيْرِ . وَلَكِنَّ هَجْرَةُ الْإِنْسَانِ أَهْمَمُ أَنْوَاعِ التَّعْرِكَاتِ .

وَيُفَرِّقُ فِي الهَجْرَةِ بَيْنَ الْعِوَامِ الْتَّابِدَةِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى تَرْكِ أَوْطَانِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ وَالْمَعَوَّلِيَّةِ الْجَابِدَةِ الَّتِي تَغْرِيَهُمْ بِالْقُدُومِ إِلَى أَوْطَانِ أُخْرَى . قَدْ يَهَاجِرُ الْمَهَاجِرُونَ لِأَحْوَالِهِمُ الْرَّدِيَّةِ فِي بِلَادِهِمْ وَقَدْ تَجْذِيَهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُمْ مُغَرِّبَاتٍ فِي الْبَلَادِ الْأُخْرَى فَالْبَلَدُ وَالْجَذْبُ يَتَحَكَّمُانِ فِي تَيَارِ الْهَجْرَةِ . وَيَهْمِنَا فِي هَذِهِ الْدِرَاسَةِ تَيَارَاتُ الْهَجْرَةِ فِي الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، نَلَمْ يَبْهَا الْمَامَا يِسِّرًا وَمَفِيدًا .

يَخْتَلِفُ النَّظَرُ إِلَى الْهَجْرَةِ فِي الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِاِخْتِلَافِ مَوْقِفِ الْبَاحِثِ فَإِذَا نَظَرَنَا إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا وَطْنٌ وَاحِدٌ كَانَتِ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضِهَا إِلَيْهَا دَاخِلَيَّةً . وَإِذَا نَظَرَنَا فِي الْدُّولَ الْقَائِمَةِ فِيهَا اعْتَبَرَنَا هَاجِرَةً خَارِجَيَّةً وَدُولَيَّةً . أَمَّا المَوْقِفُ الْأَوَّلُ فَيُسَوِّغُهُ أَنَّ الشَّعْبَ فِيهَا يَكَادُ يَكُونُ وَاحِدًا . وَقَدْ اخْتَلَطَ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي غَمَارِ التَّارِيخِ مَكْوَنًا بِلْفَتَةِ وَ ثَقَافَتِهِ وَ حَضَارَتِهِ وَ عَادَاتِهِ وَ مَاضِهِ وَ أَمْجَادِهِ وَ آلَامِهِ كَتْلَةً مِنَ الْبَشَرِ مُتَجَانِسَةً مُتَمَاسِكَةً مِنْ أَرْسَخَ شَعُوبَ الدِّنَيَا كَيَانًا وَأَعْمَقَهَا وَجُودًا فِي الْأَرْضِ وَ فِي السَّمَاءِ .

وأما الموقف الثاني وهو الواقعي فيسوّغه أن لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على أرضها وعضويتها في منظمة الأمم ونظاماً اقتصادياً وسياسياً يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك العواجز مستمرة بين تلك الدوليات (التصفيه هنا للتعجب) ، لأن إقامة العواجز لا تستطيع أن تحول دون مجرى الفظواهر الطبيعية وأن تمس الجذور القوية المتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الإنسانية يحفز على الظن أن تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين . وإذا كانت أوربة على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها وماضيها تقارب وتعاون تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فإن البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولعاقبها بالموكب الإنساني الحضاري لا بد من أن تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات شتى وإن بقيت السيادة الكاملة منها مصونة ومحصنة . لقد تعرضت البلاد العربية لضرر من الهجرة الخارجية منها واليها ومن المناسب أن نلم ببعض تياراتها القوية .

ففقد حملت الهجرة ألوافاً من أهالي بلاد الشام من سوريين ولبنانيين وأردنيين مع تيار الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية وتألقت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والأدب والعلم والسياسة والاقتصاد . وأدب المهرجان الحديث يذكرنا بأدب الأندلس القديم . ولكن تلك الحالات العربية شرعت تتصدر في المجتمعات الأجنبية شيئاً فشيئاً وتنسى ذرياتها لفتها الأصلية بالتدريج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون في الأماكن التي هاجروا إليها ما عدا فريقاً أثراً الآباب إلى الأوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح أمامه أبواب العمل والرزق فانكفا إلى أهله ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكتفي أسرته فرجع حامداً تجتمعه .

ويبدو من ذلك أن لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة في البلاد الأجنبية . ويضاف أن المهاجرين لا ينسون أهليهم فهم يمدونهم بالمال في العين بعد العين . وتلوح هذه الهجرة السكانية مستقبلاً لهجرة مالية أضعف منها تجري بعكس اتجاهها ، هذا زيادة على الدعاية العديدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية .

يبد أن مساوىء الهجرة أكثر من مزاياها اذ انها تلعق بالبلاد نصباً في القوى الديمografية والاقتصادية وغيرها . فالمهاجرون كما سلف شباب أو كهول أي هم في سن العمل والانتاج . فلما هاجروا أضاعت البلاد فيهم رجالاً منتجين ، كما تضييع فيهم مجموع النفقات التي استدعتها تربتهم وتنشئتهم وريعها . ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم الجمجمة ان عادوا بها الى البلاد أو أرسلوا نصبياً ضئيلاً منها الى أهلיהם ، لأنهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتراكوا في بعض المشروعات أو استصلعوا الأرض فزادوا رأس المال هناك . ولو لبثوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت الموارد والفوائد .

اما الهجرة الى البلد العربية فكانت آفة عليها . يمكن ان نذكر هنا هجرة الفرنسيين الاستيطانية الى الجزائر والايطاليين الى ليبيا في أثناء الاحتلال ولكن استقلال هذين القطرين لفظ أكثر افراد تلك الجاليات الأجنبية .

على أن أكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والعرب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . انها غزو سياسي وعسكري وعرقي تحت ظاهر قومي لأناس ينسبون الى قوميات مختلفة وتح ظاهري دين موسى عليه السلام براء منه . وقد تسببت بجعله القسم الأكبر من الفلسطينيين أهل البلاد الأصليين الى مختلف البلدان وتح كل نجم ونشاعر ذلك كوارث معروفة . ولعل في الآفاق العالمية وفي التعاون العربي العازم ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة .

والهجرة من البلد العربية الى البلد العربي تتبع عاملين الجذب والنبذ بينها حسب المستوى الاقتصادي وفرص العمل . ويجري التيار النالب في البلد العربية المحوددة الدخل الى الدول النفطية الفنية كالسعودية ودول الخليج ولبيبا ويحمل خاصة المهاجرين من الدول العربية الآسيوية كما يحمل قلة من مصر وقليلاً من السودان أما لبيبا فتتلقى المهاجرين من مختلف البلدان العربية آسيوية وأفريقية على تفاوت في النسب . وأما المغرب العربي فان تيار الهجرة فيه يتوجه شمالاً الى فرنسة أصلاً لروابط اللغة والثقافة والسياسة ولأن فريقاً من أهله سبقت هجرتهم اليها . وتجه فروع من تيارات الهجرة الى المملكة المتحدة والبلاد الأوروبية الأخرى والى كندا واسترالية وأمريكة .

وقد نشأت تيارات للهجرة جديدة من خارج البلاد العربية الى البلاد العربية النفعية ولا سيما من الهند والباكستان وسيريلانكا والفلبين . ونبات هذه الهجرة الأجنبية موضع للتأمل والمناقشة .
الهجرة الداخلية في البلد العربي هو تغير في محل الاقامة بين قسم اداري وأخر لفترة زمنية تستغرق سنة أو أكثر كماسلتف الاشارة .

وتصنف أربعة أصناف : ريفية ريفية ، وريفية مدنية ، ومدنية ريفية ، ومدنية مدنية . وهنا على الرغم من بساطة التصنيف يلزم تعريف المركز الريفي والمركز المدنى الذي يدعى أيضاً بالحضر . والتفرق بينهما يختلف باختلاف الدول وتفاوت الاعتبارات .

أهم هذه الأصناف الهجرة الى المدن أو الحضر . انها تتبع درجة التقدم والثقافة وتبدل نمط المعيشة وتوافر فرص العمل وسبل الرقي في السلم الاجتماعي . يؤلف هذا الصنف غالبية تيار الهجرة الداخلية بحيث لا ينصب البحث الا عليه . وهو الذي ادى الى اتساع العمران ونشوء المدن الكبيرة الضخمة في العصر الحاضر . ومن الطبيعي أن يكون لها مشكلات تتفاوت بتفاوت المجتمعات وتفاوت الميادين الاقتصادية والتنظيمية والصحية وأمثالها . ويرجع هذا التفاوت الى نظام المجتمع نفسه ومدى ايلاء المسؤولين فيه الاهتمام اللازم لها للاستفادة من عناصرها الايجابية وتعافي عناصرها السلبية . المدن مراكز العلم . فيها من بيته ومعاهده ما ليس في الريف . فيقبل أبناء القرى ليتهلوا من معينها . ولكنهم بعد أن يتخرجوا يكونون قد استساغوا الحياة الحضرية فيستحبون الاقامة في المدن بسبب ذلك أو بحكم ممارستهم أعمالهم واحتياطاتهم أو بسبب ظائفهم التي قد يُسمّونَ لها . وقل أن يعودوا الى قراهم حيث لا يجدون فيها مزايا المدن من جد وكسب ، ولو أحياناً ، وتقديم في المناصب ومشاركة عبيقة في الحياة الثقافية والاجتماعية . ومن المعلوم أن تنوع الاختصاص وعلو المعايير مكانهما في المدن ولا سيما في العاصم .

ثم ان المجتمع الريفي ذو تقالييد وعادات وروح قبلية أو عشائرية أو طائفية تضفط على أفراده وتضيق مجال حرية لهم وتسمح بالتدخل في شؤونهم الخاصة . وهذا كله يدفع بعضهم الى الهرب من هذا الضغط .

ولا يخفى توافر فرص العمل في المناطق الصناعية ويسهل مختلف السلع في المدن . وقد أدى تنظيم الغلات الزراعية إلى انتقال مراكز النشاط الاقتصادي الزراعي من القرى إلى المدن كالمهيئة النهائية لمشتقات الألبان وتحضير اللحوم وحفظها ومقرن النضار في المطبات (الكنسروة) واتساع التجارة والأسواق وهكذا تتکاثر سبل الموارد الاقتصادية في المدن .

كانت القرية ذات الاكتفاء الاقتصادي ذاتي ولكن هذا الاكتفاء طرق يضعف بل يتلاشى . وأخذت القرية تعتمد في حاجاتها التموينية والاستهلاكية في الغالب على المدينة . وإذا بقيت طائفة من القرى في البلاد العربية تحتفظ بسماتها التقليدية فإن تلك السمات تتجه نحو الزوال .

واعتاد القسم الأكبر من الريفيين الذين يهدون إلى المدينة للعمل وللksesb اتخاذ أطراف المدينة موقع لبناء مساكنهم وأكواخهم وكلها تبني أحيانا دون رقابة ولا تخطيط منظم فهي سيئة البناء مكتظة بأملتها سريعة التمو والامتداد تنمو كما تنمو الفطور وكأنها قرى معلقة بأطراف المدينة وكانتا جميعا تعمل من الوجهة الاجتماعية على تريف الحضر بدلا من تحضير الريف وذلك بسبب نقص الخدمات الاجتماعية الضرورية . وما زال تيار الهجرة الداخلية في أغلب البلاد يجري عشوائيا . ومن المناسب الإشراف على هذه الاندفاعات السكانية ووقايتها من الآثار السلبية والاستفادة منها في استغلال الأراضي واستثمارها وتنظيم قوة العمل وتوفير الموارد الاقتصادية واسباغ الصحة والتقدم على المجتمع .

ولقد أصبح الارتباط بين الريف والحضر في جميع البلدان شديداً كما أصبح الارتباط بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية على درجة لا يمكن إغفالها (تبوية البلد النامية للبلدان المتقدمة في الاستهلاك والصناعة والعلم ، وتبوية البلد المتقدمة النسبية للبلاد النامية في بيع سلعها واستيراد الطاقة والماء الأولية) .

وهكذا يجدر العمل على تقليل التفاوت في الدخول المالية وفي مجالات التقدم الاجتماعي بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية وبالتالي تقليل الفروق في الدخول وفي مجالات التقدم الاجتماعي ما أمكن بين الريف والحضر . وأيا كان الأمر فإن الإنسان أهم عنصر في جميع الاعتبارات ولا بد في كل تدبير سليم من العناية على

حربيه وكرامته ومن السعي نحو تقدمه وحمايته من البؤس والشقاء وأذات الأرض وعوادي الطبيعة .

هجرة العقول :

ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة، كما ان نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة ، ولهذا طفت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمقりيات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث ومن بينها بعض أقطار الوطن العربي .

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الأخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربع الكبير الذي أفادته الدول المتقدمة في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليهاقد عز ذلك التيار ودعمه . وكل زيادة في جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر . فقد ألمت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصر ذلك التيار ولا سيما أن تلك العناصر في الغالب ناشئة فتية توّمض بالوعود . فكان فقدانها في بلادها الأصلية « ضيّقنا على ابّاله » كما يقولون مثل العربي القديم . وليس ما يمكن تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من رأس المال البشري هذا من أن تضع لامتصاصه خططاً سرية وعلنية باطننة وظاهرة .

هذا التيار جاري بين البلاد المتقدمة بحسب الاغراء المادي والعلمي والظروف الملائبة . ولكن نسبة هذه الهجرة من البلاد النامية ولا سيما من الوطن العربي أعلى وأدعي للخسران .

والذي يسترعي الانتباه ازدياد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى أوربة والولايات المتحدة . وهذه الزيادة ناشئة عن قوتي نبذ وجذب كما هو شأن تيارات الهجرة عامة . قوة النبذ في البلد الأصلي ضالة الرواتب والأجور واضطراب الأحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشيء فيها أن يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضالة فرص العمل العلمي وانعدام الردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية

في بحثه وانتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف في البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية وأعداد هائلة من الأجهزة والمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتتمام الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون أسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي . وقد يتتفوق أبناء البلاد العربية في مواطن هجرتهم على أبنائهما في مختلف المجالات الفكرية والعلمية والاقتصادية .

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الأصلية تستنزف خيراتها وتصبّح بمواردها وتعوق تقدمها . ان العالم الذي أعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه أن يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه في تقدمها ، وذلك إنما يتم في سني حياته المنتجة ، فكان هجرته إلى البلاد العنية هدية من فقير معدم جمع بُلغَ معيشته وقدمها للmosر الشري ليزيد ثراءه ويساره ، ولا سيما أن تلك السين المنتجة سوف تمضي في البلد المقصود .

ان أكثر من نصف المختصين في سوريا ولبنان والأردن مثلاً وكذلك الأمر في مصر والمغرب يغادرون بلادهم الى بلد آخر أكثر تقدماً . واذا علمنا أن البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة في تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبيّنت لنا المواقف الفاشية لهذه الهجرة والمواقف العامة لأولئك المهاجرين . ولا بد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها وإساغة التكرييم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المشر . وقد كان للعلم في ماضي البلاد العربية أعلى مكانة وأجل شأن وأسمى غاية . ومثل هذا الغبن واقع في بقية البلاد العربية . وهو من المقببات العاتية التي تتعرض في سبيل تقدمها السريع . ولا شك أن الخسارة من هذا النوع تستدعي خسائرات تالية متباقة . ان العالم في الحقيقة بثابة مدرسة يُخْرِجُ حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وإنما هي فقدان أفراد متعددون ومبانٌ طائلة واماكنات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغي اعطاء العالم مكانة طليعية في تنمية المجتمع ، وتقديم أفضل الأحوال المناسبة له ، وعونه على القيام بأعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفي المجال العالمي إن أمكن .

قضايا ومشكلات سكانية

يهمنا هنا في الدراسات السكانية للدول العربية أن نلقي بعض الأضواء على طائفة من تلك المنابر التي سلف شرحها فنتناول السياسة السكانية التي تتعلق بتنظيم الأسرة وتوزع السكان وبصحتهم والأحوال التعليمية لديهم وبجانب من الأمور الاقتصادية .

تبعد السياسة السكانية المبادئ الظاهرة والباطنة التي تعتمدتها السلطات العامة في ميادين القضايا الديمografية وجملة التدابير التي تتبعها تلك السلطات في سبيل تحقيق تلك المبادئ .

١ - يدخل تنظيم الأسرة في هذه السياسة ، اذ تنظر الدولة في أمر ازدياد السكان وثبتت عدهم ونقصانه ، فاذا كان اتجاه هذه السياسة نحو نمو السكان قيل لها نصيرة زيادة السكان ، واذا كان اتجاهها نحو ضبط النسل وعدم زيادتهم قيل لها سياسة ضابطة الزيادة او سياسة ملائمة نسبة الى القس الانكليزي ملتس (١١) .

ومن التدابير التي تحفز على زيادة المواليد أو تخفيض تناقصهم كما هو حاصل في فرنسة مثلاً الاعانات وهي اعطاء الأسرة مبلغاً من المال يتجدد دورياً ، وكذلك المنح وهي أيضاً مبلغ من المال يعطاه العروسان مرة واحدة أو أكثر من مرة عند الزواج . ومن المنح منعة الأمومة حين تتحمل الزوجة ومنحة الطفل حين يولد . ومن الاعانات تخفيض الضرائب عن رب الأسرة .

ومن التدابير التي رسمت لخفض عدد المواليد في البلاد النامية برامج السكان التي تشتمل على تعليم تنظيم الأسرة وعلى خدمة تنظيم الأسرة ، وهو يتمان اما مستقلين واما بالاشتراك مع برامج الصحة ومع برامج الرعاية الاجتماعية ولا سيما رعاية الأمومة وصحة الأطفال .

وفي تنظيم الأسرة يَبْرُز ما يدعى الوالدية المسؤولة أو الوالدية المنظمة ، وهي أن يكون للأبدين موقف واعٍ تجاه نسلهما . وقد يختلف عدد الأولاد الذي يتوقعان إلى مجيئه وينشد أنه عن عدد الأولاد الأمثل الذي يرتئيانه لمجتمعهما . فقد يرغب الزوجان في عدد من الأبناء لأنفسهما وحسب أحوالهما ، وهذا المدد

المنشود أو المرغوب فيه شخصياً غير ذلك المعد الأمثل للمجتمع عندهما . وقد يتطرق العددان . ذلك أن الرغبة في الذرية لا تتحقق دائماً بارادة الزوجين . فقد يكون بين الأزواج من لا ولد لهما أو من لها ولد أو ولدان دون المعد المنشود على حين تكثُر ذرية بعض الآباء والأمهات حتى يضيقوا بها ذرعاً . فلامثال هؤلاء أُعيدَت جمعيات تنظيم الأسرة رفقاً بهم .

وكلمة تنظيم الأسرة كلمة لائقة تشير الى اتخاذ الوسائل الواقية من العمل من أجل اقامة فترات زمنية مناسبة بين مجيء الأولاد . وهي كلمة حللت محل لفظ ضبط النسل الذي يقابل في اللغة الانكليزية لفظ Birth Control .

هذا ولا توجد في الوقت الحاضر سياسة سكانية واحدة واعية تعم البلاد العربية في قضية نمو السكان وازيداد عددهم أو العد من هذا الازيداد . وانما هنالك اتجاهات متباينة في هذا الصدد أكثرها مبني على النظر المباشر الى الواقع دون النظر الى المدى البعيد . ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات في خمس زمر .

الزمرة الأولى ذات سياسة مُعَلَّنة تسعى نحو خفض خصب الزوجات والحد من النمو السكاني وتعتمد تنظيم الأسرة وتدعوه له . وتضم هذه الزمرة مصر وتونس .

الزمرة الثانية لا تعلن سياستها ولكنها ترحب ببرامج تنظيم الأسرة وتهتم برعاية الأمومة والطفولة وتشمل لبنان والمغرب والجزائر .

الزمرة الثالثة لا ترى ضرورة لتنظيم الأسرة ولكنها تسمح به . ومن هذه الزمرة سورية والأردن .

الزمرة الرابعة تشجع النمو السكاني وهي زمرة البلدان النفعية الفنية وهي السعودية والكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة وعمان ولibia وال العراق ، وزيادة على رغبتها في النمو تتقبل هجرة الأيدي العاملة اليها وهجرة الكفاءات العلمية والتقنية ولكنها تشرف على الهجرة وتنظمها تنظيماً يومياً حاجاتها ومطالبيها . ومن المناسب الاشارة الى الاتفاقية المعقدة بين العراق ومصر سابقاً لتزويد العراق بالفلاحين المصريين .

الزمرة الخامسة بلدان فقيرة تضم موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان واليمن العربية واليمن الديمقراطية . وليس لديها سياسة سكانية . وهي بحاجة

الى النمو الديمغرافي . وقد يوجد بعض خدمات لتنظيم الأسرة لدى عيادات وزارات الصحة في أغلب هذه البلدان . هذا وان اليمن العربية سائرة في اتجاهها الديمغرافي نحو الزمرة الرابعة بسبب آبار النفط والغاز الغزيرين التي كشفت منذ سنين قليلة . كذلك السودان اذا انتظمت أمورها وتحقق وحدتها وسلكت سبيل التنمية الزراعية الناجمة تستطيع أن تستوعب عدداً أكبر من سكانها العاليين .

ان صندوق الأنشطة السكانية ومنظمة الصحة العالمية والاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية وأمثال هذه الهيئات الدولية تدعى كلها الى تنظيم الأسرة . وبحذا لو عمدت هذه الهيئات في دعایتها الشديدة لهذا التنظيم الى العمل على تقليل الوفيات في البلاد العربية ولا سيما وفيات الرضع ووفيات الأطفال الصغار وعلى الارشاد الصحي وعلى مكافحة الأمية ومكافحة الفقر وكذلك على رعاية المعوقين صغاراً وكباراً . فان هذه الأعمال الإنسانية عندئذ أحق بالثناء وأدعى الى الارتياح وأجدر بالتنويه وأدل على الاخلاص في القول والعمل .

ولا شك أن هذه الأمور الإنسانية اذا توطدت واستطاع الانسان العربي ان يعيش في ظل السلام العادل وأن يرتفع بمستوى معيشته فيصل الى حياة كريمة لائقه وشاركته المرأة في مجال الحياة الاجتماعية وفي ميدان النشاط الفكري والعلمي فان معدل المواليد سوف ينخفض انخفاضاً طبيعياً من دون حاجة الى ابتسار الشؤون واعتراض العادات والحمد المباشر للذرية فان الأولاد في الوقت الحاضر يكادون يمثلون الآمال الباقية للأباء والأمهات في الوطن العربي .

٢ - مشكلات الهجرة : أهم هذه المشكلات هي تيار الهجرة الداخلية الى المدن ولا سيما العاصم . وهي مشكلة عامة سبق شرحها وهي تحشد القادمين في ضواحي المدن فيترافقون تراكمًا سريعاً يتتجاوز توقعات الهيئات البلدية المسؤولة ويقيمون في منازل مكبلة تشبه الأكواخ في بناها العشوائي ، لا تتبع للتصميم الصعي ولا تتبع التخطيط المدنی العام ، وربما لا تتوافق لدى السلطات المسؤولة الميزانيات المالية اللازمة لتسكين أولئك المهاجرين وتمهّدهم بجميع الخدمات التموينية الثقافية والصحية الا بشقة بالغة . ولا شك أن هذه الأمور جديرة بالنظر والاعتبار وقمنة بحساب التوقعات المقبلة ورصد الأموال اللازمة ، زيادةً

على الاهتمام بالهجرات القسرية التي تُحدثها بعض الغرب أو الغزو الأجنبي أو اجتياح أراضي السكان الأصليين . هذا مع العلم أن قسمًا كبيراً من الميزانيات العامة تذهب لدى بعض البلدان العربية في حاجات الدفاع عن النفس وعن الوطن بسبب الأخطار المتلاحمة .

ولا ننس الاشارة في ضمن مشكلات الهجرة الى ما يدعى بهجرة المقول التي سبق التنديد بها .

٣ - مقاييس الصحة : سلف أن أوردنا في جدول الاحصاءات الحيوية معدلات الوفيات السنوية ونسب وفيات الرضيع والآجال المتوقعة في البلاد العربية . هذه النسب والمعدلات متوجهة نحو النقصان كما أن الآجال المتوقعة صائرة إلى الارتفاع وبالتالي إلى تطاول الأعمار المتاحة للأفراد ، وذلك بسبب التقدم الصحي في هذه البلاد ولا سيما النطفية ، ومع ذلك فالعاجة ماسة إلى زيادة التقدم واللحاق بالبلاد التي هي أكثر تقدماً ، ونحن نعطي هنا أمثلة في هذا المجال لدى بعض البلدان المتقدمة صناعياً :

الاتحاد السوفييتي	الأراضي المنخفضة (هولندا)	فرنسا	المملكة المتحدة	الولايات المتحدة	معدل الوفيات	معدل النمو الطبيعي	معدل المواليد ١٩٨٦
١٩١	١٢٢	١٤٥	١٣	١٥٧	١٠٧	٤	٦٥١
					٨٤	٤	٧٣١
					٨٢	٤	٧١٨
					١١٢	٣	٢١٨
					١١٧	٣	٢٢٤ (١٩٨٧)
					٨٦	١	٧١٤

وذلك لمقارتها بأمثالها في الوطن العربي (جدول الاحصاءات الحيوية) . ان جبلاً الانسان العربي قوية ونقية وسليمة ولم تتأثر في الماضي بالمسكرات والمخدرات ، وان وراء هذا الانسان دينه العنيف يتَّسْعَهُ بالطهارة والنظافة جسداً وروحًا وسلوكاً ولباساً . وأكثر الشفرات في صحته وفي حياته الخلقة والاجتماعية نشأت في الفظروف التاريخية السالفة ومن آثار الاستعمار في بعض أجزائه . ومع ذلك فثمة مشكلات صحية في الوطن العربي تشير إلى بعضها :

آ - نقص الفداء العام لقلة توافره . وتنفيذ المعلومات أن غالبية البلاد تعظمي بنصيب يزيد على ألفي حريمة أو سُعرفي اليوم للفرد الواحد ولكن يقل هذا المتوسط في موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان . ولا شك أن هذه المشكلة ناشبة في الطبقات الفقيرة . والنقص يقع في مادة البروتين وفي الفيتامينات . ولا ننسى أن الأحوال الفدائية في مساجد اللاجئين الفلسطينيين ولا سيما أطفالهم معزنة ومخزية . فأكثر هؤلاء الأطفال مصابون بالسعال (نقص التغذية وسوءها) . وينشأ الكساح بينهم من نقص فيتامين د .

ب - ومن الملاحظ أن البيئة في البلاد العربية مع جودتها الطبيعية قد تغدو سيئة في بعض الأرياف وفي أحياط المدن الفقيرة المزدحمة بالسكان ولا سيما حول أخصاص المهاجرين الريفيين والعمال ، وذلك لقلة توافر المياه الصالحة للشرب ولسوء تصريف الفضلات والأوساخ ، ولقلة الرقابة الصحية على المواد الغذائية ، ولانتشار القوارض والعشرات الناقلة للأمراض .

ج - وثمة أمراض مستوطنة في بعض البلدان العربية كالтиفية (التيفوئيد) والزحار (الدوسنطاري) والأمراض المعدية وفقر الدم وأمراض الأطفال كالعصبة والخناق (الدفتيريا) والسعال الديكي والاسهال والرمد والحتّر (تراخوما) وبعض الأمراض الطفيليّة كداء البلهرسيات في مصر . وهذا المرض قد بدأ ينتشر في مناطق جديدة بالأردن والعراق والسمودية وسوريا وكداء الصفر (أسكارياس) وداء الملقوّات (انكلستوميابس) وأمثالها .

د - هذا وكان هذه الأمراض لا تكتفي حتى تسربت إلى بعض البلاد العربية من الغرب آفات حديثة كمرض الإيدز أو فقد المناعة المكتسب ، وقد ظهر هذا الوباء بأمريكا وأوروبا وانتشر في إفريقيّة ويقدر أن أكثر من خمسة ملايين يحملون حمة (فيروس) هذا الداء في العالم . وهو ينتقل بالوصال الجنسي وينقل دم ملوث أو استعمال ابرة ملوثة وكذلك من الأم المصابة إلى جنينها ولم يثبت انتقاله بالمسافحة والغداء والمهواه .

ه - إن وفيات الرضيع في البلاد العربية ما زالت مرتفعة بل أيضاً وفيات الأطفال الصغار في السنة الثانية والثالثة وأحياناً الرابعة ولا ريب في أن ذلك راجع إلى قلة المناعية بهؤلاء الأطفال ولا سيما البنات والى سوء التغذية والى تفاوت

درجات الحرارة بين الليل والنهار لأن أكثر أمراض الرضع والأطفال هضمية وتنفسية .

٤ - الحالة التعليمية - يصنف الناس حسب هذه الحالة . فمن كان يعرف القراءة والكتابة فهو متعلم أو غير أمي . ومن لم يعرفهم فهو أمي . وتعتمد احصاءات التحصيل العلمي على مدة الدراسة أو سنوات التحصيل الكاملة أو على الشهادات المحصلة . وهذا كلّه متعلق بنظام التعليم . ودرجات نظام التعليم هذا ثلاثة : ابتدائي وثانوي وعال . وثمة معاهد تقنية متقدمة الأنواع والدرجات .

على أن ثمة تعبيراً في البلاد المتقدمة وهو الأمية الوظيفية . ويطلق على الذين قضوا بعض السنوات في مدارس ابتدائية دون أن يكتسبوا القدرة على القراءة والكتابة في مجال أعمالهم الوظيفية . فهم كالأميين في هذا الاعتبار .

ولا بد من اعتبار السن في الأمية . وأكثر ما تتعدد سن الخامسة عشرة فما فوق لبيان مدى تفشي الأمية .

هذا وصروف البلاد العربية التاريخية بعد طول حضارتها المتألقة جعلت الأمية تسري وتستفعل في ربوعها . والعمل متواصل في مكافحة هذه الأفة المعاوقة .

وتحتاج جمعيات أهلية وهيئات رسمية تعمل في هذا الميدان . ويلزم أن يُنتبه خاصة إلى الأطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي دون أن يكونوا مسجلين في المدارس .

٥ - القوة البشرية وقوة العمل ومعدل الاعالة . يختلف مدى للعمر الذي يعمل فيه المرء من مجتمع إلى آخر ، متى يبدأ المرء بالعمل ومتى يتتقاعد أو يحال إلى المعاش ؟ تتأخر هذه السن عادة في بدايتها وتتكرر تسيبياً في نهايتها وذلك في البلاد المتقدمة عنها في البلاد النامية . تعتبر سن المثلث في أوروبا والولايات المتحدة ممتدة من الخامسة عشرة إلى الرابعة والستين للذكر والرابعة والخمسين للإناث . وقد تتأخر عن ذلك . وتتكرر هذه السن في البلاد النامية ، ومنها العربية . يعتبر بعض هذه البلاد بدايتها في الثانية عشرة بل تبدأ في بعضها بالعاشرة . وتختلف نهايتها لدى الموظفين الذين يتتقاعدون في سن

الناتعة والخمسين ولدى العاملين في مختلف الميادين الأخرى حيث تنتهي بالعجز عن العمل .

وفي علم الاقتصاد مصطلحات تتعلق بالسكان نجملها هنا للفائدة . فالقوية البشرية عادة تشمل فئات الأعمار من سن الخامسة عشر إلى سن الرابعة والستين . أما من هم خارج القوة البشرية فهو الذين أعمارهم أقل من خمس عشرة سنة والمرضى المزمنون والمجزأة والذين هم في سن الخامسة والستين فما فوقها . وهناك قوة العمل وهي جزء من القوة البشرية وتشمل المشتغلين أولى النشاط الاقتصادي والمعطلين . أما من هم خارج قوة العمل فهو الطلاب والمتفرغات للأعمال المنزلية من ربات البيوت .

هذا ويحسب معدل الاعالة على الشكل الآتي :

$$\text{معدل الاعالة} = \frac{\text{من هم دون الخامسة عشرة + الذين هم في الخامسة والستين فما فوقها}}{\text{م عدد السكان بين الخامسة عشرة والرابعة والستين}} \times 100$$

هذا المعدل متصل بتركيب السكان العمري ولا يكشف عن مدى النشاط الاقتصادي . ولهذا يحسب معدل هذا النشاط الأولى ، وهو يمثل عدد الأشخاص ذوي النشاط الاقتصادي منسوباً إلى عدد السكان كله . ومن الطبيعي أن يتاثر بتركيب السكان العمري أيضاً . ويحسب كذلك معدل النشاط الاقتصادي العام . وهو عدد الأشخاص ذوي النشاط منسوباً إلى عدد السكان في سن العمل ، كما يحسب على الوجهين السابقين معدل النشاط للذكور ومعدل النشاط للإناث . والتفريق ضروري لأن الأول أعلى وأثبت من الثاني إذ يكون دخول الإناث في النشاط الاقتصادي ضئيلاً وهامشياً ومتقطعاً ولا سيما في البلاد العربية وخاصة مدنهما . ولذلك كانت مقايسة النشاط للذكور بين المجتمعات أصلح وأرشد . ومع ذلك فلا يجوز الاقتصار عليه لأن نشاط الإناث في بعض المجتمعات قوي . ويحسب أيضاً معدل النشاط العمري لأحد الجنسين فينسب عدد العاملين في فئة الأعمار إلى عدد أفراد الفئة . وجميع هذه المعدلات تؤخذ عادة في المائة .

والسبب في اعتماد النشاط الاقتصادي ومعدلاته هو أن العمل جوهر الحياة الإنسانية وينبع الشروء والتقدم وأساس الحضارة . ومن المهم في هذا الميدان

السعى للقضاء على البطالة في المجتمع أي التعلل عن العمل . وقد نجد في المجتمعات العربية نسبة ليست بالقليلة من المتعطلين في مختلف المجالات وذلك بسبب ضيق الموارد المالية وقلة الوظائف التي ينبغي أن تسع ل تستوعب جميع من هم في سن العمل .

هذا ويصنف السكان العاملون حسب قطاع النشاط الاقتصادي في ثلاثة قطاعات :

القطاع الأول : يشمل الزراعة والطرد وصيد الأسماك والمناجم .

القطاع الثاني : يضم الصناعات التي تحول المواد الأولى سلماً مفيدة أي الصناعات التحويلية .

القطاع الثالث : هو انتاج الخدمات .

وفي البلاد النامية قد يفرد صنف خاص هو القطاع التقليدي يحتوي العرف التقليدية المتراثة .

هذا وقد أعدت منظمة الأمم المتحدة تصنيفاً دورياً بجميع أنواع النشاط الاقتصادي يحسن الرجوع اليه عند الموازنة بين المجتمعات . كما تصدر الجامعة العربية مع اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربية آسيا منشورات تعرض فيما تعرض معدلات النشاط الاقتصادي في البلاد العربية .

هذا ما سنبعث لنا عرضه في بحث الميراث الديمغرافي العربي . ولم يكن لنا بدّ فيه من الاستطراد الى شرح بعض التصورات في علم السكان وجلاء بعض مصطلحاته الحديثة ومن الاشارة في العين بعد العين الى القضايا والمشكلات والعقبات السكانية الطارئة بالقياس الى التقدم الاجتماعي . لقد طاول البحث ولكننا نرجو في هذه الافاضة توكييد بعض القضايا وانارتها انارة علمية وانسانية .

□ الموارثي :

- ١ - ضبط الأموال المدنية يقابل في الفرنسية *Statistique de l'état civil* والاحصاء العيسي يقابل في الانكليزية *Vital Statistics* . وللنقطان رائجتان في البلاد العربية يصعب التأثير السايك لكل من الثقافة الفرنسية والانكليزية وهذا يعني واحد .
- ٢ - مساحة الاتحاد السوفيتي تعادل سدس مساحة المعمورة فهو اوسع من البلاد العربية ولكنه مؤلف من قوميات عدّة .
- ٣ - اوربة دون اراضي الاتحاد السوفيتي .
- ٤ - الاصل في اللغة ان المدنى نسبة الى يكرب مدينة الرسول(ص) والمدنى نسبة الى المدينة . ولكن العرب منذ القديم استعملوا لفظ المدنى يعنى المدينى فقلالوا مثلاً الانسان مدنى بالطبع اي اجتماعى مائل فى تجمع كالمدينة . ويستعمل فى هذا المعنى ايضاً لفظ الحضري .

٦ - أكلا العصر : الصماء

٦ - نستعمل هنا لفظ المواليد بدلاً من الولادة لأن الولادة قد تكون توأمية .

٧ - السنة التقويمية المتدوالة في علم السكان هي من أول كانون الثاني (يناير) إلى ٢١ كانون الأول (ديسمبر) .

٨ - المؤلف محمد بن حسين بن علي الطواري الحنفي . المطبعة العلمية تصویر من ٥٧٤ ص

٩ - شاع لفظ الفصوبية في الأحصاء . ولكن هذا المصطلح ليس وارداً في المعجمات العربية . والمراد بالفصوبية والخصب الالقاح .

١٠ - تبعث العلاقة الرياضية البسيطة بين المعدل والسبة مدين المذكورين من أجل جيل مسمى فلا تدخل فيه المواليد .

١١ - $\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} \cdot \frac{\text{ن}}{\text{ن}} \cdot \text{ن}$ باعتباره $\text{ن} = \text{المعدل السنوي بالآلاف}$ و $\text{ن} = \text{عدد الوفيات في السنة}$ ، و $\text{ن} = \text{عدد السكان في منتصف السنة}$.

١٢ - $\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} \cdot \frac{\text{ن}}{\text{ن}}$ هذه النسبة السنوية بالآلاف و $\text{ن} = \text{عدد الولايات في السنة}$ و $\text{ن} = \text{عدد السكان في أول السنة}$.

نقول المواليد لأننا نعتبر جيلاً مسمى وتفرض أن الولايات موزعة بين الجيل بانتظام في فضون السنة ، فيجوز أن نعتبر

و

$$\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} + \frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} + \frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}}$$

و عند ذلك يت Helmatica يسهل حساب ن بافاده ن و حساب ن بافاده ن :

$$\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} + \frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}}$$

$$\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} + \frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}}$$

$$\frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}} + \frac{\text{ن}}{\text{ن}} = \frac{\text{ن}}{\text{ن}}$$

١٣ - يرى أن الناس يزورون كالمتوالية الهندسية والسوادلذائية تزيد كالمتوالية العكسية . والفرق كبير بين الزيادات في شخص للمرء تاجيل زواجه حتى يتضمن اعالة ذريته . أما اتجاهه فيجذرون ضبط النسل بعد الزواج .

المصادر :

نذكر المصادر الآتية زيادة على ما سبقت الاشارة اليه في حواشي المقال:

- في علم السكان :

د. عبد الكريم اليافي - مطبعة جامعة دمشق - ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ مـ .

- المجتمع العربي ومقاييس السكان :

د. عبد الكريم اليافي - معهد الدراسات العربية العالمية - القاهرة - ١٩٦٣ مـ .

- قصور في المجتمع والنفس :

د. عبد الكريم اليافي - دمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ مـ .

- الفصل الثاني من كتاب « المجتمع العربي » :

د. عبد الكريم اليافي - جامعة الامارات العربية - ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ مـ .

- المجمع الديمغرافي متعدد اللغات « السفر العربي » :

الطبعة الثانية د. عبد الكريم اليافي - اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لتنمية آسيا - بغداد .

عصر الترجمة و العصر الذهبي للطب العربي

د. عبد الرزاق الشقيري

- ١ -

أمتنا العربية أعطت العالم في العصور السالفة كثيراً من المعرفة فقد ظلت ردها طويلاً من الزمن تعمل راية العلم ، ومشعل العرفان ، لتنير السروب ، وتبيد الظلمات . . . كانت بعث خير أمة اخرجت للناس . . . تمكنت من استيعاب المعارف الإنسانية التي وصلت إليها الأمم من قبل . . . ثم انطلقت في رحاب النور تخطي للدنيا حروفاً مشرقةً مغربيةً . . . تهدي بها السادرين في بیج الصلال . . . وترشد التائهين إلى ضفاف الأمان والسلام .

كانت أمتنا خالدة في كل ما قدمته للعالم . لأنها تحمل ذهناً تقيناً صافياً ، ونظراً صادقاً . وحساً تعريبياً ، وميلياً فطرياً إلى المؤلفة بين الفكر وبين التجريد والتلبيق . . . ولقد تعرضت لفزوارات ولصنوف من القهر وأشكال من البغي والاستبداد . . . وابتليت بالاحتلال ولكن هل ركمت وضاعت كما ضاعت أم من قبلها . . . كانت لها حضارة فهل يامت؟ . . . كان لها مجد فهل صار مع الدارسين؟ لقد أوقفتها المحن عن المسيرة المجادة في مضمون المعرفة والعلم ، ولكنها حين أفاقت في هذا المصير من غفوتها أفلتها أن وجدت نفسها وراء الركب الذي كانت تتقدمه ، وكان لا بد من التهوض ، وكل جواد كبوة . . . وكل سيف نبوة . . . ان نظرة قصيرة إلى ماضينا الناصع التليد ، المماضي بنور العرفان تبده فيينا غياها بالياس والقنوط ، وتزيد الإرادة صلابةً وعزماً . . . ولعمري هل ينطلق السهم من القوس ان لم نرجع الوتر ونشد به إلى الوراء . . .

. . . اسمعوا لي أن أفتح أمامكم صفحة من ماضينا ، سطّرها التاريخ بأحرف بارزة وضاءة . نقرأ فيها بعض ما أسمهم به الأولون النوايغ ، فكانوا أوائل من ألموا العالم . . .

ورسموا معالم الحضارة الإنسانية .. اسمحوا لي أن أطلعكم على صفحة مشرفة من عصرنا الذهبي للطلب العربي ..

إن أول طبيب عربي كان أحد أقرباء رسول الله (ص) .. وهو العارث بن كلدة .. درس الطب في جند يسابور، وكانت له مناظرة مع الملك المساسني (أتو شروان) في موضوع الصحة .. ثم عاد إلى مكة والطائف حيث وجده إليه الرسول الكريم بعض المرضى لعلاجه .. وتقول لنا المصادر التاريخية أن ابنه الفخر بن العارث كان طبيباً أيضاً .. وعلى الرغم من هذا الاتصال المبكر بين المسلمين الأولين ومدارس الطب الأجنبية ، فإن المسلمين لم يواصلوا التعلم في هذا الميدان ، ولم يقبلوا على الطب التقليدي إلا بعد أن توعدت اللغة العربية في البلاد ، كلغة للطب ، وتناثرت المعرفة الطبية في حياة العرب اليومية .. وحينما فتح المسلمون (جند يسابور) (الاسكندرية) .. كان فيما مدرستان تملان كمركزين للتعليم الطبي ، وكانت الأولى بصورة خاصة في أوج نشاطها .. ولكن لم تتم ترجمة آية رسالة طيبة إلى اللغة العربية قبل العصر الأموي ..

لقد امتد ملك الأمويين ما بين سرقة شرقاً وأقصى الأندلس غرباً ، وكانت دمشق متاردة تشع بسورها على أرجاء واسعة من العالم .. فقد احتلت اللغة العربية مركزاً لا مثيل له في التاريخ ، إن أول من أمر بنقل العلوم إلى اللغة العربية هو مروان بن الحكم .. وقد تم بهدف ترجمة كتاب أهون القس من السريانية إلى العربية ، من قبل طبيب من البصرة يدعى ماسجوحه .. وبقي هذا الكتاب المترجم محفوظاً في بيت مال المسلمين إلى أن جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بنسخه ونشره ..

لقد اتصل العرب بسكان سوريا وبالرافدين قبل الفتح الإسلامي ، فاتللموا على حضارات تلك الشعوب القديمة ، ووجهوا إليها ما يرضي رغبهم الشديدة في المعرفة والعلم ، لذلك أكرموا علماء وأطباء السوريان بعد الفتح ، وتركوا مدارسهم قائمة في آنطاكيه وحرمان ، اكراماً للعلم والدين ، وحفظوا إقامات الكتب العلمية .. وقد أحب أولئك النصارى المسلمين الفاتحين ، لما تحلىوا به من التسامح الديني ، والبالغة في اكرام العلماء ، وبأدلوهم الأخلاص والولاء ..

لقد استعانت لفتنا العربية كثيراً من الألفاظ والمعاني والعبارات السريانية ، بعد أن صقلتها بما يلائم قواعدها .. أوليست لفظة الفاروق ، أي المنقاد ، سريانية الأصل ؟ وقد أطلقوها على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي أنقاده من اضمحلاد الروم .. لقد درج المؤرخون على تسمية المرحلة التي سبقت ازدهار العلوم عند العرب، بمرحلة النقل والترجمة .. ولا بد من الاشارة إلى اسهام السوريان في تلك الحركة :

اما السوريان فهم بقایا سكان سوريا وبالرافدين القدماء .. وكان من أعظم كتّابهم ومترجميهم قبل الاسلام « سرجيوس الرأسوني »، المتوفى عام ٥٢٦ م .. وقد نقل بعض مؤلفات جاليوس الطبية ، بعد أن أمضى زمناً في مدينة الاسكندرية ، أتقن خلالها اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها .. أما شأنه فكانت في مدينة رأس العين ، شمال سوريا .. ولا تزال بعض ترجماته محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني ..

كان الرسول العربي الأمي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أول من وجّهه إلى تعلم اللغة السريانية ، واقتباس العلوم منها . وقد جاء في الجزء الأول من كتاب مصبع الأعشى ما يلي : « روى محمد بن عمر المدائني ، في كتاب القلم والدواة ، قول الرسول لزيد بن ثابت : « أتَخْسِنَ السَّرِيَانِيَّةَ؟ .. قال : لا .. قال : تعلّمها .. فتعلّمها زيد ... » .

لقد فتح العرب « الـ رـ هـا » في القرن السابع الهجري ، وهي مدينة سريانية عظيمة كانت مهدًا للثقافة الأدبية والدينية ، وفيها مدرسة تخرج منها عدد كبير من المدارسين ، حتى أتّهم سُمّوها « أثينـا » سوريـة . وفي مدينة حـرـان ، التي قيل أنها أول مدينة بنيت بعد المطوفان ، كان فيها أيضًا مدرسة للعلوم الرياضية والفلك تخرج منها علماء من أشهرهم ثابت بن قرة وأولاده ، وأبو عبد الله البشـانـيـ وغـيـرـهـ . وقد رب بعض الباحثين عدد المدارس التي كانت فيما بين النهرين بنحو خمسين مدرسة .

لقد استفاد الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، من هذه المدارس ، فترجمت الكتب من السريانية إلى العربية ، ولم يترك كتاب في العلم أو الحكمة إلا عربوه . وقد أدى هذا التماส بين العرب المسلمين والنصارى السريان إلى تبادل الود والإحترام بينهم ، حتى أن بعض رجال الدين من السريان أتقى بتعلم أولاد المسلمين التعليم الراقي ، حيث كانت العلوم وفقاً لهم ، يورثه الآباء لمن يجدونه أهلاً من ابنائهم .

لقد بعث الإسلام قوة جديدة ونشاطاً باهراً في إمكانات العرب الكامنة ، مما أدى إلى تقدمهم في حقل العلوم ، حتى أنهم كانوا يقولون(القد كان « اليوناني » أباً للعلم فجاء العربي المسلم فعله محله في أبوة العلم) . ويقول المستشرق ولتر « إن حفائق العلم والنور جاءتنا ، نحن الأوربيين ، عن طريق العرب ، ولم تصلنا عن طريق اللاتين ... » . لقد كان باستطاعة القديسين من الصحراء ، بمعقولهم التزكيـةـ ، المولـعةـ بالاطلاع والجـرـأـةـ النـادـرـةـ ، أن يفتحوا العالم أجمع لو بقوا سائرين سيرتهم الأولى ... » .

وإذا سألنا أنفسنا تُرى ما هي الأسباب التي جعلتنا ، نحن العرب ، متعطشين إلى الاطلاع على علوم من سبقنا من الأمم ، حفاظاً لها ، ومبتكرين فيها ، وناشرين لها ؟
نقول :

أولاً - القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهما قد حبـيا المسلمين بالعلم ورفقاً مكانته ، فما يصبح في نظرـها أثـنـنـ شيءـ بمـدـاـلـيمـانـ . واعتـبرـ الـ اـسـلـامـ الـ لـلـمـلـمـاءـ وـرـثـةـ الأنـبـيـاءـ ، وـرـتـبـةـ الـلـمـ الـ أـلـىـ الـ رـتـبـ .

ثانياً - طبيعة العربي ، فقد خلق بعثـاً محبـاً للـ اـطـلاـعـ ، فـماـ أـنـ جاءـ الـ اـسـلـامـ ، وـدـانـ بهـ أـكـثـرـ الـ عـربـ ، حتىـ رـغـبـواـ فـيـ اـقـتـبـاسـ الـ عـلـمـ .

ثالثاً - تشجيع العلـفـامـ والأـمـرـاءـ منـ الـ مـسـلـمـينـ لـلـنـاسـ عـلـىـ طـلـبـ الـ عـلـمـ ، فقد روـيـ منـ عـلـيـ (كرـمـ اللهـ وجـهـهـ) ، أنهـ قالـ « الـ عـلـمـ خـيـرـ مـنـ الـ مـالـ .. الـ عـلـمـ يـعـرـسـ وـأـنـتـ تـحـرـسـ الـ مـالـ . الـ عـلـمـ حـاـكـمـ وـالـ مـالـ مـحـكـومـ عـلـيـهـ ، مـاتـ خـازـنـ الـ أـمـوـالـ وـبـقـيـ خـازـنـ الـ عـلـمـ » .

وما قاله خلفاء العرب عن العلماء « انهم صفة الله في خلقه ، ونخبة من عباده ، صرفوا عنائهم الى نيل فضائل النفس الناطقة، فكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر » ٠٠٠
رابعاً - استعاب الأمم التي فتح الله قلبها للإسلام ، فأمنت به ، وأعجبت به اجاز القرآن وبلاحة الحديث ، فقصدت عن التأليف بلغتها ، واليفت العربية بعدها فنتت بها ٠٠
لقد اشتهر الخلفاء العباسيون بجهودهم وتقديرهم للعلم وأهله ، فكان المتصور يتحف ملوك الروم بهداياته الشفينة من أجل أن يصلوه بما لديهم من كتب الحكماء . وكان يخصص لها مهرة المترجمين ، ويبذل لهم الطعام . فراجعت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وكانت الترجمة عمل دولة لا عمل أفراد . وفي عهد الرشيد ازداد نشاط العلماء والأطباء ، وامتلأت خزائن دار الحكمة بالمخطبات وانتقل كبار الأطباء والتراجمة والباحثين عن العلم والمعلم إلى مدينة بغداد ، فكان عند الرشيد من يطبه على طريقة اليونان أو الهند أو الفرس او الكلدان ٠٠٠

وكان الخليفة المأمون ذا ولع بالطب . ومن غريب ما يروى عنه أنه أسلم لخاسته ووضع لهم أكثر من ثلاثة لرون من اللوان الطعام ، وكلما وضع لون نظر إليه المأمون وقال : هنا يصلح لكذا ، وهذا ينفع لكذا . . . ومن أحب الزباد في لعنه فليأكل من هذا ، ومن كان قدسه النساء فليقتصر على هذا . . . وما زالت تلك حالة حتى رفت الموائد . . . فقال يحيى بن أثيث « يا أمير المؤمنين إن بعثت في الطب فأنت جالينوس . . . وفي معرفة النجوم فأنت هرمس ، وإن ذكرنا السخاء فانت حاتم » .

لقد اقتدى بالخلفاء العباسيين وزوارتهم عدد كبير من رجال عصرهم ، فأصبحوا يتنافسون على اقتناص الكتب القديمة من يونانية أو سريانية أو فارسية ، كما سمعوا منقلها إلى اللغة العربية . ومن الأسر المشهورة بمارسة الطب وترجمة الكتب آل يختيشعون . وهي أمارة نصرانية - نسطورية ، توارثت صناعة الطب ، وكانت لأنفادها حظوة عند الخلفاء العباسيين ، منذ زمن المتصور ، فانتفعوا ونفعوا بطبهم ومؤلفاتهم . وكانوا من أجمل أهل زمانهم ، لما لهم من شرف النقوس ونبيل الهم . لذلك توارثوا رئاسة الأطباء في مدينة بغداد مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولكن مؤلفاتهم الطبية كانت موجزة وقليلة المدد .

كان جرجس بن يختيشعون (ت - ١٥٤ هـ) ، عميد هذه الأسرة ، رئيساً لبيمارستان ومدرسة جنديسابور . وكان أول من جاء إلى بغداد بناءً على طلب المتصور . ثم تبعه عدد كبير من أطباء أسرته ومدرسته ، وكان منهم ولده جبرائيل وبختيشعون ، وتلميذه ماسويه الغوزي وأبنه يوحنا .

عمل يوحنا في ادارة البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في بغداد ، كما أشرف على المترجمين الذين كانوا يعملون في دار الحكمة . وكان يعقد مجلساً مساء كل يوم يحضره جمع من تلاميذه ، فيفحص أحدهم بعض المرضى ، ويشخص الأمراض ، ويصف الأدوية . استمر عمله في خدمة الخلفاء العباسيين منذ عهد الرشيد حتى أيام المتوكل ، حيث توفي عام ٨٥٧ هـ .

قام يوحنا بوضع عدد كبير من المؤلفات العلمية والصيدلية ، اقتبس أكثرها من كتب اليونان ، وخاصة أبقنط وجالينوس . لقد كان هناك أسر وأفراد يعود إليهم الفضل أيضاً في جمع المخطوطات والسمعي في ترجمتها ، نذكر منهم أسرة موسى بن شاكر ، وعلى بن يحيى المنجم ، ومحمد بن عبد الملك الزيارات وغيرهم ...

سما لا شك فيه أن حنين بن اسحق ، تلميذ يوحنا بن ماسويه ، كان أنيق المترجمين ، فقد كان ضليعاً باللغة العربية إلى جانب اتقانه اللغتين السريانية والاغريقية . وقد لقبوه بحق شيخ المترجمين ، لأنه نقل أمهات كتب اليونان ، بينما اكتفى غيره بترجمة المؤلفات الموجزة لجالينوس ، وهو ما نطلق عليه اسم جوامع الاسكندرانيين .

لقد أغرم حنين بممؤلفات جالينوس فلم يترك كتاباً إلا ترجمه . يضاف إلى ذلك أنه قام بتأليف عدة كتب طبية هامة منها كتاب العشر مقالات في الملين وكتاب المسائل في الطب ...

استقرت العلوم في بغداد ، ونشأ جيل من العلماء المسلمين فهم هذه العلوم فهما صحيحاً ، وكان على رأسهم أبو يعقوب الكندي الذي ثق ما يزيد على واحد وعشرين كتاباً في الطب . وكان للكندي اهتمام خاص بالصيغة التي جانبه اهتمامه بالطبع وبالعلوم الطبيعية والهندسية بصورة خاصة .

تلك عجالة قصيرة عن مرحلة النقل والترجمة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين . ولكن اسمحوا لي أن أمر سريعاً إلى حركة نقل العلوم الطبية في الأندلس لما لها من أهمية في اتساع هذا الموضوع :

لقد عُني الخلفاء والأمراء في الأندلس، وعلماؤهم وذوو الوجاهة والثروة منهم ، بتشجيع انتقال كتب العلم ، المترجمة والمؤلفة، في شرق العالم العربي الإسلامي إلى خزانتهم . كما سعوا لتفسير واصلاح ما ترجم منها سابقاً . فقد جاء في كتاب ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) أن كتاب ديسقوريدس في الأعشاب قد ترجم في بغداد أيام الخليفة جعفر التوكل ، من اليونانية إلى العربية ، على يد الطبيب اسطفان بن ياسيل . وقد وردت نسخة إلى الأندلس ، من الترجمة المذكورة ، وفيها تنص كثیر ، وذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، الذي عُرف بين ملوك الدنيا برغبته في المعلوم . فكانوا ي Purchasen الكتاب . وقد أهداه (أرمانيوس) ملك القسطنطينية هدايا من بينها كتاب (ديسقوريدس) ، بصورة فيه بالألوان بعض المبتاحات الطبية . ولما لم يكن في ذلك العين في قوبطية من يقرأ الخط اليوناني . فقد طلب عبد الرحمن من أرمانيوس أن يبعث إليه برجل يحسن اليونانية واللاتينية ، ليقوم بشرح وتفسير ما غمض من أطباء الأندلس ، وبينهم محمد المروف بالشجار ، وأبو عثمان الجزار ، وسعيد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن اسحق ، وأبو عبد الله الصقلي . فصحح هؤلاء ببعوثهم بعض أسماء العتاقير الواردة في ترجمة الكتاب ، كما صحووا النطق باسمائها .

لقد نشأ في الأندلس مدرسة لترجمة المعلوم من اللاتينية إلى العربية ، فأنجابت عدداً من العلماء ، أغنوا بعضهم ببعوثه علوم الطب والطب والفلاحة وعلم النبات . فجمع الطبيب أحمد بن محمد الفانقي (ت - ٥٦٠ هـ) نباتات إسبانيا وأفريقيا ، وسمى كل منها باسمها العربية واللاتينية والبربرية ، وكذلك فعل معاصره الشريف الأدريسي ..

مرحلة التدوين والتاليف ، وهي ما نعبر عنها بالعصر الذهبي للعلوم عند العرب :

لقد بلغ الطب العربي التقليدي ذروته في القرن العاشر للميلاد ، أي الثالث للهجرة . ويكون بذلك قد سبق الطب العربي بعده بمتات السنين ، ففي البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة ظهرت بيمارستانات تضم مدارس للطب ، قصدها الراغبون في العلم من كل عرق ولون ودين .

ونحن سنكتفي بذكر ما له بالطب صلة وثيقة ، فقد تعمق المسلمون في دراسة علم وظائف الأعضاء ، وحفظ الصحة ، وعلم المقاييس والأدوية ، وما زال كثير من عقائدهم وأدويتهم يستعمل حتى الآن .

لقد عرف المسلمون التقدير بالاسفنجية ، وأتقنوا على اجراء عمليات جراحية متعددة ومبتكرة ، فكان النجاح حليفهم في حسن تنائجها . وكانت الرسومات الطبية ، لبعض أعضاء وأجهزة الإنسان تزيين مؤلفاتهم أحياناً . واكتشف الكيميائيون من المسلمين مركيبات كثيرة هامة أشهرها الكحول ، وأنواع الزجاج ، وأزوّات المفتة ، والسلسليات الاكال ، كما اكتشفوا عدة حواسٍ منها حامض الخل ، وحامض الكبريت وروح الملح بالإضافة إلى عدد كبير من المطور والأملأح والأصبعة . وعرفوا استخراج السكر والنشاء وأنواع الزيوت .

إن أهم ما يميز العصر الذهبي للطب العربي هو إنشاء البيمارستانات وتاليف الأقربابانيات والموسوعات ، وتأسيس نظام الحسبة ، وسنكتفي بالكلام عن بعض ما ظهر من الموسوعات خلال هذا العصر .

أولاً - كتاب فردوس العكمة لعلي بن سهل رابين الطبرى :

وهو أول كتاب منظم على شكل موسوعة يضم علوم الطب ، ظهر باللغة العربية ، وقد استفاد مؤلفه من المراجع السريانية والاغريقية والهندية ، دون الرجوع على ما يبدو إلى ترجمات حنين . وتشتمل عمله على أبواب في المبادئ العامة الكونية وفروع الطب . وأفرز ترساً خاصاً بالطب الهندى وبهذين العالمين الكتىدى والطبرى ببدأ عهد العالىات العربى المستقل .

في هذه الفترة ، كان أهم ما في التراث الطبى من العالم قد نقل إلى لقتنا العربية . نسماً . في ذلك الوقت وعلى الأساس الذى أرساه الطبرى من ناحية وحنين من الناحية الأخرى ببدأ الطب الاسلامي في الإزدهار وسرعان ما ظهر محمد بن زكريا الرازى الذى يعتبره الباحثون شيخ الأطباء المسلمين وخاصة من الناحتين التجريبية والسريرية في الطب .

ولد الرازى في الري ، وبدأ تعليمه في هذه المدينة واتجه إلى الكيمياء في مستهل حياته ، ولم يتحول إلى الطب إلا في فترة متأخرة . ثم جاء إلى بغداد حيث كان على رأس المستشفى الرئيسي فيها ، وأخيراً عاد إلى الري حيث مات سنة (٢١٣/٩٢٥ م) . ومن الصعب أن نتصور صورة تاريخية واضحة في هذه المرحلة من حياته . ولكننا نقول : نفذ كانت له تجربة سريرية واسعة ، وقد درب عدداً كبيراً من الطلاب وكتب كثيراً من المؤلفات وكان متفوقاً في شتى ميادين المعرفة من الفلسفة وعلم النفس إلى الكيمياء والطب .

وكان ، أعيج المؤرخ والعالم الفنّد البيروني بكتابات الرازى كبيراً . حتى أنه قضى سنوات عديدة في جمع تلك المؤلفات ، وتسبّب لها في مهوس خاص ، وقد بلغ مجموع هذه المؤلفات /١٨٤/ مؤلفاً تختص بالطب والمواضيع المصلة به . . . واهتمام هذه المؤلفات الموسوعة الضخمة (الحاوى) وهذا الكتاب الموسوعة ذات صيته في الشرق والغرب وهو يقوم على ملاحظات الرازى اليومية في فحص مرضاه وعلاجه . . . ويعتبر ذخراً ثميناً من ناحية الملاحظة والتجربة أكثر من الطب النظري . ومن كتب الرازى الأخرى «كتاب المنصوري» وكتاب «تقسيم العلل» وكتاب «الفاخر» ، ولعل أكثر مؤلفاته ذيوعاً رسالته في «الجدري والحصبة» ، وقد ترجمت إلى اللاتينية .

ان كتب الرازى تشمل كل فروع الطب . وهذا الرجل الذي كان يعتبر نفسه نداً لأفلاطون وأرسطو ، جمع بين التراث الطبى القديم ، وبين قدرته الشخصية على الملاحظة والاستنتاج للكشف عن المديد من الأمراض لا يتجاوز وسائل حديثة في ميدان الطب التقليدي . فهو يمثل بحق قمة شامخة في الطب الإسلامي . وان أثره في العالم الإسلامي وفي الغرب في فروع الطب كافة لم ينفعه كل تقدير وشهرته منذ ألف سنة مضت لهي خير دليل على الأثر الذي تركه في تاريخ الطب الإسلامي وخاصة وفي الطب العالمي بعامة .

وقد خلف الرازى أبو نصر الفارابي ذلك الفيلسوف الكبير ، ولكن اهتمامه بالطب لم يبلغ درجة سلفه ، ومع ذلك فقد أبدى بعض الآراء في الطب . . . وخاصة في طرقه ومبادئه ، بل روى أنه زاول الطب حين كان في حلب ودمشق .

وهنالك على بن عباس المجوسي ، الثّكتاب «كامل الصناعة الطبية» ، وكان يقول: ان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمها قدراً وأجلها خطراً ، وأكثرها منفعة لجاجة جميع الناس إليها . وكان على هذا مديراً لمارستان عضد الدولة الشهير في بغداد ، وقد دل كتابه ذلك على معرفة واسعة ليست مكتسبة من قبله الكتب وحسب ، بل هي نتيجة تجربة شخصية واسعة .

ثم جاء ابن سينا الشّيخ الرئيس : وهو من أذكياء العالم ، وكان يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ، ويفضل الفلسفة بأنه طبيب ممتاز . . . وقد أنزله دانتي في منزلة بين أبقراط وجالينوس ، حفظ ابن سينا القرآن أولاً ، والأدب العربي ثانياً ، وتلّم الفلسفة اليونانية والعلوم الطبيعية . ثم تابع المطالعة حتى برع في الرياضيات ثم بالطب ، وهو ما يزال في سن السادسة عشرة من عمره . . . تقول المستشرقة (مدام جواشون) : انه حينما بلغ

ابن سينا السادسة عشرة كان طبيباً معروفاً وقد ملا اسمه الآفاق مما جعل سلطان بخارى يستدعيه لمعالجته . وفعلاً فقد شفي السلطان على يديه ٢٠٠ فاكرمه بان وضع مكتبه الضخمة بين يديه ، حيث أخذ يعب العلم من هذه المكتبة .

- بلغ عدد مؤلفاته أكثر من / ١٦٠ / كتاباً ، فيها سبعة عشر كتاباً في موضوع الطب ومن أهمها كتاب القانون الذي ترجم إلى اللاتينية ، وأصبح مرجحاً هاماً للدراسات الطبية في أوروبا وقد كان يدرس هذا الكتاب في جامعتي فيينا وفرانكفورت طوال القرن السادس عشر . كما يقي يدرس في جامعة مونبليه ولوغان حتى منتصف القرن السابع عشر . وقد ترجم الكتاب إلى لغات مختلفة فتداركه الأسرائيليون المشتغلون بالطب بين أرجاء العالم بأسره . وقد تعددت طبعاته حتى قاربت الأربعين طبعة . في الوقت الذي كان فيه الطب خاضعاً لسلطان السحر والشحوذة والتدمير (في أوروبا) وكان ابن سينا يفضل به طبٍ وفلسفته فصلاً علمياً دقيقاً في موضوع الفحص والمبالغة اذ يحاول أن يصل مع مرضاه إلى علاج نفسي ، فإذا لم يتمكن من ذلك حاول أن يستعين بالأدوية . ولقد قضى ابن سينا جل حياته في البحث العلمي . ووفقاً إلى إدخال التصحیحات على ما جاء في طب الأقدمين حول عوارض الفالاج ، وامراض الكبد ، والصدر وعلاقة بعض الامراض بيافرها . كما أنه اكتشف مرض التهاب السحايا ، وقد ذكر الدودة الشيسية (الأنكلوستوما) في مؤلفاته ووضع حدوداً لآلام الأعصاب بعد ملاحظتها ، وإجراء تجارب عليها . ولقد توصل ابن سينا في ملاحظاته إلى أن الحصبة أكثر ما تنشر عدواها في الربيع والخريف . كما كان ابن سينا شاعراً ، وله قصيدة من أروع القصائد في وصف النفس :

هبطت اليك من المعل الأرفع ورقام ذات تعزز وتمتع محبوبة من كل مقلة عارف وهي التي سرفت ولم تتبرق

كان ابن سينا متعاظماً ، معتقداً بنفسه ، طموحاً متعالياً ، لذلك فكانت حياته سلسلة من الأحداث والاضطرابات ، كان كتابه القانون موسوعة طبية شاملة ، لكل العلوم الطبيعية المدونة . وقد حوى هذا الكتاب على ما يقارب المليون كلمة ، وما يقال في الأرجوزة :

وكل طعام يعجز السن مضغفه فلا يتغيفه فهو شر المطاعم
ولَا تتعرض للسواه وشربيه مدى النهر الا في احتمال العظام
ولَا تعبس الفضلات عند اقتضائها ولو كنت بين المرهفات الصوارم
وكل من مستحماً كل يومين مرأة وحافظ على هنفي الغلال وداوم

ذلك: ابن سينا الذي سجل في الخالدين لقوله :

(الاجمل الزمن أحب إلى أهله من النسم) . ونحن لو فكرنا ملياً في هذا القول الرائع لمعرفنا مبلغ الدرجة الإنسانية الرفيعة التي ارتقى إليها الطب الإسلامي . وأين هذه الكلمة من أولئك المشرعين الذين نادوا بقتل(المرضى المزمنين) باسم الإنسانية . أين هذا

القول من أولئك الذين نادوا في برمادات الغرب بأن تخلص البشرية منهم !! باسم القتل الرحيم .

ولكته النور الذي ملا الأرجاء ، ولكنه الإيمان الذي عمر القلوب . . .
وبعدئذ هل ننسى الطلب في الأندلس . هل ننسى العلوم في فردوسنا المفقود . . .

كان أول من أنجبتهم قرطبة الزهراوي . . . الذي يعتبر أعظم جراح في تاريخ الطب الإسلامي وقد كتب « كتاب التصريف » وهو موسوعة علمية ، كانت دليلاً للجراحين في أوروبا حتى عصر المهمة . اذ قدم وصفاً دقيقاً فيها عن أدوات الجراحة في الطب ، وقد شم الكتاب ثلاثة أجزاء أولها في الكلى ، كما يشير به الطب النبوي ، ويقترحه الزهراوي لعلاج المسرع ، والثاني في العمليات التي تجري بالمشروط ، وعمليات العيون والنفم ، والثالث : في أنواع المظام وخلعها ثم في التوليد .

وفي الأندلس أيضاً نبغ الطبيب العربي ابن زهر .

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان : ان ابن زهر كان من أهل بيت كلهم علماء ورؤساء وزراء . نالوا المراتب العليا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم . . . كان يحفظ شعر ذي الرمة ، وهو ثلث لغة العرب - وقد أوصى أنه اذا مات تكتب على قبره هذه الآيات . وفيها اشارة الى طبّه ومعالجه للناس :

تأمل بحقك يا واقفا
للاحظ مكاناً دفعنا اليه
تراب الفضريح على وجنتي
كاني لم أمش يوماً عليه
اداوي الانعام حدار المنون
وها أنا قد صرت رهناً لديه

اما المؤرخ المعاشر فؤاد آفراام البستانى فقد ذكره في دائرة معارفه فقال : ان شهرة ابن زهر تقوم اضافة الى طبّه في شعره . ولاسيما في موشحاته المبتكرة التي كان فيها من المقدمين في هذا الفن الجديد . وقد جمع الى ثقافته الطبية ثقافة لغوية أدبية .

ويقول الدكتور الأستاذ أحمد شوكت الشطبي في كتابه « الطب في الإسلام والطب » : بنو زهر اسم يطلق على أفراد من أسرة من علماء الطب في الأندلس منهم : أبو مروان ابن زهر طبيب وفقيه ، وأبو العلاء بن زهر بن مروان طبيب لاشتهر بحسن التشخيص ، ومنهم أبو مروان بن أبي العلاء ، ولد في إشبيلية ، اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، وله اختراعات في علم الجراحة . . . ومنهم أبو بكر بن أبي العلاء ، برع في الطب وله كتاب في « طب المريض » .

لقد كانت « قرطبة » منارة العلم والعرفان . . . ذات صيتها في الآفاق ، وقد بلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونافار وبرشلونة كانوا يتقصدون إليها . كلما احتاجوا إلى طبيب أو جراح أو مهندس ، وذلك ما حدث مع طولما / ملكة نافار فقد أوفدت بولدها سانتاكا البدين لمعالجه من السمنة على أيدي أطباء قرطبة . . . ثم هل ننسى جامعة قرطبة التي بلغ عدد المتسبّبين إليها بضعة آلاف من الطلاب . وأصبحت شهانتها سبيلاً إلى الوصول إلى

أسمى المراتب ، وأرفع المناصب . وكانت النساء شقائق الرجال في اجتماع الحقوق العلمية، فاشتهرن في الأدب والطب عدد كبير . ثم هناك جامعة غرب ناتحة التي أسسها يوسف أبو العجاج (سابع سلاطين بني نصر ١٢٣٣ - ١٢٥٤) وقد وضعت في مداخل هذه الجامعة تماثيل أسود من العجر كانوا تعرسها ، وكان لهذه الجامعة ، جامعة غرب ناتحة ، فروع ومحاولات درس فيها علوم الطب والكيمياء والفلكلور والفقه والدين ، وهناك قول مالوف كان ينشئ غالباً فوق أبواب هذه المعاهد وهو أن العالم يقوم على أربعة أمور :

- علم الحكمة ، وعدل المظمام ، ودعام الصلحاء ، وشجاعة الشجعان .

أما قرطبة فقد تفردت بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس . وكان انتشار الكتب آنذاك سبيلاً للمنافسة بين الناس ، ولاباس أن تورط هذه الخادمة للاستثناء : قال الحضرمي : أقمت بقرطبة ولازالت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي بطلبها اعتناء إلى أن وقع وهو يخط جيد ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في شمنه فيرجع إلى المنادي بالزيارة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلتلـه : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغ إلى ما لا يساوي ...

قال : فأرابي شخصاً عليه لباس رياسته فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بینتنا فوق حده ، فقال لي : لا أزيد ما فيه ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاعتمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته خسن المط جيد التجليد استحسنـته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير (!!)

ذلك غيض من فيض .. أو قطرة من يحرر ولو نقلنا اليكم ما قاله الأوليـون في تراثنا الطبعي العربي الإسلامي لأملـنا .. ولكنـا نريد أن ترك ذلك للدارسين والباحثـين ..

ترى ماذا حل بتلك المؤلفـات جميعاً ؟؟ نعم لم يصلـنا منها إلا القليل القليل فقد ارتكـب أعدـاء الإنسـانية جرائمـهم في كل مـكان .. وهـل هناك أقطعـ مما ارتكـبه التـتار في بغداد ، حيث أحرقوـا ما في بغداد من كـتب والـقوا في نـهر دجلـة ما القـوه .. وفي غـرب نـاطـة أو لم يـصادرـ « كـسيمنـس » كـتبـنا الخـالدة ويرتكـب بـعـقاوـعـقـ العلمـ والـإنسـانية جـريـمةـ كـبرـى تحـاكـى جـريـمةـ التـتـارـ فيـ بـغـادـ .. فـقد جـمـعـهاـ فيـ أـكـواـمـ فيـ سـاحـاتـ غـربـ نـاطـةـ وأـشـعلـ فيهاـ النـارـ ..

لقد أـفـلـ نـيـمـ الـمـرـبـ حـيـثـنـدـ فـبـهـتـ نـورـ الـلـمـ ثمـ زـالـ وـعـ الدـنـيـا الـظـلامـ ..

واليـومـ ماـذاـ يـمـكـنـ أنـ نـقـولـ هـلـ نـعـرـفـ نـعـنـ الـمـرـبـ مـكـانـةـ عـلـمـانـاـ .. هـلـ نـعـرـفـ قـدرـهـمـ وـمـنـزـلـهـ مـهـلـ نـهـمـ بـهـمـ مـثـلـاـ يـهـمـ بـهـمـ غـيرـ نـاعـلـيـ الـأـقـلـ .. ماـذاـ فـعـلـنـاـ مـنـ أـجـلـهـمـ ، انـ مـعـاهـدـنـاـ وـجـامـعـاتـنـاـ مـقـصـرـةـ فيـ هـذـاـ الـمـجاـلـ .. لـيـسـ يـكـفـيـ أنـ نـذـكـرـهـمـ كـلـمـاـ مـرـتـ منـاسـبـةـ ، اوـ انـقـضـيـ منـ الـأـعـوـامـ الـفـ .. لـيـسـ يـكـفـيـ أنـ نـكـتـبـ عـنـهـمـ : وـنـقـولـ أـنـظـرـوـاـ ماـذاـ فـعـلـ أـجـادـنـاـ وـتـامـلـواـ حـسـنـ صـنـيـعـهـمـ .. فـالـبـشـرـيةـ كـلـهـاـ تـعـرـفـ بـجـمـيـلـهـمـ وـتـعـيـيـنـهـمـ ..

وعلماء المشرق والمغرب يقترون ويحترمون، في الثابر والحاضر ، يقتدون ويترسمون خطواتهم في كل سبيل ..

إذا نحن بحاجة الى اهتمام دائم بتراثنا ، نحن بحاجة الى النظر فيه باستمرار ونشره وإحيائه . وأن تسلمه أيدٍ أبية ملخصة ، أيدٍ مؤمنة صادقة تخاف الله وتؤمن به وتعمل في سبيله . أيدٍ نظيفة لم تلوثها نزعات الهوى . ولا زيف القلوب والضمائر، أيدٍ تعمل بصدق، وتكتب بصدق ، وتبث بصدق ، وتسعى دائمًا الى الصدق ..

آخر ما قرأت لكم هذه النادرة التي تدل على مجدنا العلمي المبكر .. كان ذلك في نهاية القرن الثاني الهجري . فقد انصرف عبد الله بن غانم يوماً من الجامع الأعظم بالقروان ، بعد صلاة الجمعة . فدخل عليه بعض أصحابه، فسأله ابن غانم ؟ هل حضرت الجامع ؟

قال : نعم ..

قال ابن غانم : كيف رأيت ؟

قال : رأيت أصلحك الله ، سبعين قلنوسة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنوسة عالم ..
فتوجع ابن غانم وقال متأسفاً :
مات الناس يا أبيا الحسن ؟

أسأل الباحثين اليوم .. هل زاروا جامعتنا ؟ وكيف رأوا الناس هناك ؟

نعم .. إن الجواب سيكون مؤسفاً لو عرف آباءنا الأولون في رموسمهم هذا لأنكروا ذلك .. غالباً الله نصرع أن يفتح لنا في تاريخنا الماشر صفحه جديدة مطرزة بالمجده والكرامة والчесть لعمل أجيالنا تكمل رسالة السلام والعيشة والحضارة في ربوع العالم ..
وتجديد ومن كان ماضيه حريماً بالاعجاب والتقدير أن يصل الحاضر بالماضي ليسير في الركب لأن ركب الحضارة يسير حيثما مستنداً إلى أصالة نبيلة والى ماضٍ مجيد يزيده علمًا وعملاً وطموحاً وأملًا ..



العرف العربي

بين الأصالة والحداثة

حسن عباس*

أولاً - تمهيد وتوضيح :

لـ دراسة لغوية موسعة أجزتها ولـ تنشر بعد تحمل عنوان « العرف العربي والشخصية العربية » ، قد تناولت في هذا المقال بعضًا من مسائلها مما يدور حول أصالة العرف وحداثته .

ولكن قبل أن أتحدث عن (الأصالة والحداثة) في العرف العربي أرى أن القyi أولاً بعض الأضواء حول تعامل الناس معهـا ، كـما أضع مفهـوم كل منهاـ في إطاره (الثقافي - الاجتماعي) العام .

خلافـة بين (الأصالة والحداثة) قد تـعرضت عندـنا ولا تزال تـعرضـ للمزيد من النقاش والجدل على شـقـ الأصـدةـ وـ فـيـ مـخـلـقـ المـجاـلاتـ الـثـقـافـيـ وـ الـجـتمـاعـيـ ، سـوـاـ فـيـ الشـعـرـ أوـ اللـفـةـ اوـ المـادـاتـ وـ الـمـقـدـدـاتـ وـ الـتـقـالـيدـ ..

فـماـ أـكـثـرـ الأـقـلـامـ وـ الـأـسـنـ الـوـاعـيـ وـ غـيرـ الـوـاعـيـ ، الـقـيـ تـصدـتـ لـهـذـهـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـهـماـ باـعـتـارـهـاـ مـشـكـلـةـ الـأـنـسـانـ الـرـبـيـ الـمـعاـرـضـ .ـ وـ مـعـ التـسـلـيمـ بـأـنـهـ كـنـدـلـكـ ، فـهـيـ لـيـسـ وـلـيـدـهـ عـصـرـنـاـ هـذـاـ وـانـ كـانـتـ بـالـفـلـمـ مـنـ أـهـمـ قـضـيـاتـ الـمـصـرـيـةـ وـ أـخـطـرـهـاـ .

فـمـوقـفـنـاـ نـعـنـ مـنـ الـأـصـالـةـ وـ الـحـدـاثـةـ اـسـاـهـوـ كـمـوـقـفـ شـعـوبـ الـعـالـمـ مـنـهـاـ عـلـىـ مـرـيـضـ .ـ فـكـلـ ظـاهـرـ تـطـورـ فـيـ أيـ مـيـالـاتـ الـثـقـافـيـ وـ الـجـتمـاعـيـ اوـ الـلـلـمـيـةـ ، كـانـتـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـ زـمـانـ هـيـ بـالـذـاتـ مـوـضـعـ خـلـافـ وـمـيـثـارـ جـدـلـ بـيـنـ أـصـحـابـ (ـالـأـصـالـةـ وـ الـحـدـاثـةـ)ـ ،ـ كـمـ كـانـتـ أـيـضاـ مـعـرـضاـ عـلـىـ الزـرـاعـ بـيـنـهـماـ فـيـ شـتـىـ الـمـجاـلاتـ الـأـخـرـىـ .

* باحث لغوي من القطر السوري .

فالبعض يتمسّك بالتراث الموروث باسم الأصالة لأسباب من قوة الاستمرار ، أو الالفة والقداسة أو تعبّر الفكر ، أو الحفاظ على الواقع المكتسبة في ظله ، فيتذكر لكل حداثة وتجديده . والبعض الآخر يستعين بالمستجدات الحديثة لزحزحة التراصين عن مواقعهم زحاما على المكاسب والمنافع . اختلاف في الموقف كان من ضحاياه المستضعفون من أصحاب العداثة والأصالة على حد سواء .

على أن البعض الثالث من المستشرقين الاحرار ، كان يصالح بين الأصالة والعداثة في معاذلة ذكية تجمع بين محسنهما وتستبعد شوائهما سلماً أو حرباً . ومن معاذلة إلى أخرى أذكي وأشمل في شق المعارف والمقاييس والعلوم، أوجدو اعمراً متطلوراً مستنيرأ بعد عمر . وهكذا الأمر حتى انتهينا اليوم إلى هذا الوعي المعاصر المتراكب اللامعصور ، محصلة معاولات موقف لا حصر لها من التصالح والتآخي بينهما في شق المجالات ، مما يشير إلى وحدة الوعي في الوجود .

ولذلك فان أصحاب (الأصالة والعداثة) في أي مجال ، اذا لم يعتنوا بما توصل اليه الوعي المعاصر في شق القطاعات الاجتماعية والثقافية والعلمية ، تظل بعوثهم وموافقهم قاصرة بمسافة ما يتبعون عنه فقلة او تفقللاً . وللقابل ، فإنهم يعتقدون ما يعتقدون هذا الوعي ، تتاح لهم الفرصة المواتية كيما يكتشفوا عن جذور (الأصالة) أعمق وأصدق ، ويلاشوا بينها وبين (العداثة) على الواقع الراهن بما هو أشمل وأحكم .

فالأخذ التي تعرّض لها دراسات أصحاب(الأصالة والعداثة) في العرف العربي مثلًا ، تعود إلى عدم اعتمادهم ما استجده من العلوم والتاريخية والأثرية والصوتية والجمالية والنفسية والفلكلورية والجيولوجية . وما أبرى دراستي من هذا المطعن ذاته .

في بين الأصالة والعداثة خوار أبيدي ، هو حصاد حيوية وعصاره جهد ومعرض تطور ومخاض ولادة ، لولا له ليهت الحياة وتأهت : رتابة قديم لا جديد له ، وانفلات حديث بلا ضوابط .

فالاصالة فيما أرى ، ليست قديم أمسنا ولو كان من تراثنا العربي ، وإنما هي ما قبل قبلي تختذ منه سلماً للعودة بنا إلى أصول أصالتنا ، إلى يوم استجاب الانسان العربي به عفو قظرته السوية للتعدديات البيئية والانسانية التي اعتبرضته في مسيرة العيابية ، مرحلة متطرورة بعد مرحلة ، معتمدين في رحلتنا الطويلة هذه بما يتاح لنا من شق المعرف والعلوم .

كما أن العداثة ليست جديداً يومنا مما يتعارض مع قديم أمسنا ، ولو اعتراه البلي . وإنما هي وهي جديدة للأصالة ، وصياغة مثلث لها في عملية ابداع تتلاءم مع واقع كل مرحلة متغيرة من مراحلنا في شق المجالات .

وهكذا فالعداثة ، هي وعي متتطور من نسيج الأصالة نوظفه فيما يلائم واقعنا سداً ل حاجاتنا ، تصالح فيه متطلبات العربية مع شروط الالتزام . فلا تجثت العداثة جذورنا

التراشية ، فنضيئُ هويتنا ونفقد مقومات شخصيتنا ، ونصبح ريشة باهتة في مهب الأعاصير . ولا يعيق التراث حركة تطورنا الانساني وتقدمنا الحضاري ، فيسحقنا تطور الآخرين وتقدمهم .

ولذلك لا بد أن نقيم حواراً هادئاً نزيهاً بين الأصالة والحداثة في شؤوننا (الثقافية والاجتماعية) تراعى فيه القيم الجمالية والانسانية ، فتتحرر الأصالة في ميادينه من شوائها ، ومساً انتابها في عصور انحطاطها من الترهل والجمود . وبذلك تستعيد الأصالة نضارتها في قوام حضاري غضٌّ رشيق . كما أنَّ الحداثة تزهو مع هذا الحوار وتزدهر في رعاية الأصالة، برصانة تعفيها من المبوعة والانحلال ، وبوضوأبط تقينها من الانحراف والشطط .

ثانياً - وافن ماذا عن أصالة العرف العربي وحداثته ؟

١ - حول أصالة العرف العربي :

أخذنا بما عرضته آنفاً عن المفهوم العام للأصالة يمكنني تعريف أصالة العرف العربي بما يلي :

تتجلى هذه الأصالة أولاً في **خصائص الفطرية** التي اكتسبها العرف العربي عبر مسيرته مع الإنسان العربي منذ نشأتهم الأولى قبل التاريخ في الجزيرة العربية . فظلاً يتفاعلون هناك مع بعضهما البعض وبيع الطبيعة والمجتمع والعن ونفس مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة ، إلى أن استوفيا شروط تضجيماشمراً وبطلولة في المصر الجاهلي ، وفصاحة وبلافة وقيماً مثل في القرآن الكريم .

كما تتجلى هذه الأصالة ثانياً ، في أن **خصائص الفطرية** للعرف العربي لا تزال عالقة به حتى يومنا هذا ، فكان المعنى التراشى للكلمة العربية المعاصرة هو محصلة خصائص الأحرف التي تشارك في تركيبها .

وهكذا فإن **أصالة الكلمة العربية** مرتبطة بأصالة العرف العربي . هو الأصل وهي الفرع . فلولا أصالتة لانعدمت فطرتها . ولكن لو لم تعافت هي على فطرتها لفانت أصالتها ، كما وقع للكلمة وأحروفها في اللغات الأجنبية .

ولكن علماء العربية القدامى والمحديثين من قالوا بفطريَّة اللغة العربية قد تعاملوا جيمعاً مع العرف العربي بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أنه هو الفرع والكلمة العربية هي الأصل . لا يجرح حكمي هنا أن قال بعضهم بأن العرف العربي هو أصل العربية ، مثل (الملالي) وغيره . ولكن القول شيء والعامل شيء آخر . فيبدل أن يسموا إلى استغلال معاني الكلمة العربية بالرجوع إلى خصائص أحروفها ، حاول معظمهم استغلال معايير العرف العربي بالرجوع إلى معانٍ بعض الكلمات التي يتتصدرها ، وقليل من لما منهم إلى المثل التي يقع العرف في آخرها . (محمد عنبر) ونظريته جدلية العرف العربي(١) .

ولما كانت خصائص كل حرف تتغير وتقالطريقة النطق بصوته : مشدداً عليه ومقمعاً في أول الكلمات أو مرقاً ومنعماً ومخفياً في نهايتها ، أو بين بين في وسطها ، فقد كان

لا بد أن تقيّب عنهم جميعاً ، ليس معظم التصانيف الفطرية المعروفة العربية فحسب ، وإنما معظم معانيها أيضاً . فتعمد عليهم بذلك الاكتشاف عن أصله العرف العربي في خصائصه ، ليتعدّر عليهم أيضاً استخلاص معاني الكلمات العربية بالرجوع إلى معانٍ حروفها . ولئن أصابوا جميعاً في بعض الأمثلة المختارة التي ضربوها ، فقد أخطأوا جميعاً في بعضها الآخر . (كما سيأتي في مقال لاحق بشيء من التفصيل) .

وهكذا فإن اعتبار الكلمة العربية هي الأصل والعرف فرعاً منها قد اخذ بمعظم علماء العربية المتألّفين بفطريتها إلى البحث أولاً عن معانيه ، وليس عن خصائصه . فكان هذا الاعتبار هو العقبة الأولى في طريقهم إلى أصله العرف العربي وحداثته . هذا مع الاشارة إلى أن الكثيرون منهم لم يعنوا باستخلاص معاني العروف العربية . كما أن بعضهم حاول استخلاص خصائص بعض العروض بالرجوع إلى صدى صوت العرف في النفس ، مثل (ابن جني والأرسوزي) . ولكنهم لم يلاحظوا تأثير خصائص العرف في معانٍ جميع الكلمات التي يشارك في تراكيبها للكشف عن معانيه ، ففاقت عنهم معظم خصائصه ومعظم معانيه . ولكن قبل أن يتشعب الحديث بنا عن هذه المقتبات ، أرى من المفيد أن أبدأ أولاً بتعريف حداثة العرف العربي .

٢ - فماذا عن حداثته؟

تجلى حداثة العرف العربي في الأمور التالية :

- ١ - استخدام خصائصه الفطرية لتعديل المعنى الفطري للكلمة العربية التي يشارك في تركيبها ، وهو حسي في الأصل قد تفرع منه المعنى المجرد العلاقة معنوية بينهما ، كما في : « الشرف من الشرفة ، والصلة من الصلة ، والمقل من المقال ... » إلى ألف الأمثلة .
- ٢ - الاحتكام إلى خصائص العروف العربية في كل خلاف وقع أو يقع حول معانٍ أي مفردة عربية وحول أصول استعمالاتها ، سواء في الماجم الفوبي ، أو في قطاعات (حروف المعانٍ والضمائر وأسماء الإشارة وما إليها) .
- ٣ - ابتداع ما تحتاجه من الكلمات للتعبير عن المعانٍ المصرية المستجدة في شتى المعارف والعلوم بما يتوافق مع خصائص آخرها حفاظاً على أصالتها ، مع أخذ دلالة موازين الكلمات بعين الاعتبار .
- ٤ - تصحيح الكلمة المصححة بإعادة العرف الذي يبدل منها بما يتوافق مع معانٍها الفطري .

وما أحسبني مبالغاً ولا مثالياً لو قلت إن خصائص العروف العربية هي العارس القوي الأمين الذي حمى ويحمي أصله اللغة العربية من كل هجنة واصطلاح ، ومن كل غزو ثقافي مضاد . ولقد بلغ القرآن الكريم قمة البلاغة والفصاحة في تعامله مع خصائص العروف العربية الفطرية ، ليس تعيراً عن معانٍ فحسب ، وإنما توضيحاً لقيمه أيضاً ، مما لم تجد له مثيلاً في شعر أو نثر ، وما لم ينتبه إليه أحد حتى الآن . كما لاحظت ذلك في

استعماله أحرف : النون في (نازع) والخام في (خاصم) والفين في (غفر) والعين في (عنف)
والشين في (شكر) والعام في (حمد) ومشتقاتها بما يتوافق مع موجياتها الصوتية .

ونظراً لأن خصائص المعرف العربي هي المور الذي تدور حوله مسائل هذا المقال ،
لا بل وكل مسألة تتعلق بأصلة اللغة العربية وفطرتها ، أرى من المفيد أن أنهد للقارئ
بالقاء بعض الأضواء عليها هنا قبل أن ندخل في مباحثات العقبات التي وقفت في طريق علماء
العربية إلى أصلة المعرف العربي وحداثته .

٣ - فمادا عن خصائص المعرف العربية :

إن المعرف العربية من حيث خصائصها، فيما خلصت إليه من دراستي عن (المعرف
العربي والشخصية العربية) موزعة بين ثلاث فئات، هي : (الهيجانية والإيمائية والإيحائية).
وهذه الخصائص هي أصول معانى المعرف العربية .

ولكن كيما نستطيع اكتشاف كل حرف من كل فئة منها ، لا بد من النطق بصوته
مفخماً وبشيء من الثاني ، فتتضخم بذلك خصائصه اللغوية ، وتتووضع في سمع القارئ
وفي نظره . وذلك على مثال ما نضع الاشياء الدقيقة تحت عدسة المجهر ، فتضخم أجزاؤها
التي يتعدّر رؤيتها بالعين المجردة .

لم أقتبس هذا التقسيم من أحد . فكان لاكتشافه قصة من نسيج المنطق والمقولية على
الواقع اللغوي بلا استشفافات ولا استشرافات، سأسردها بشيء من التفصيل في موقعها من هذا
المقال .

فماذا عن هذه الفئات ؟

١ - الأحرف الهيجانية :

هي (المهزة والألف اللينة والواو والياء) . قد ورثناها عن المهد النافيا التي مررت
على الانسان العربي في الجزيرة العربية ، وانتهت بنهاية المصر الجليدي الأخير حوالي
الالف (١٢) ق.م .

فالمهزة انبعاج صوتي يثير انتباه السامع ، فاستعملها العربي في مقدمة معظم أحرف
النداء . كما يدل صوتها الانبعاجي على المضمر والمظهر والبروز ، فتصدرت ضمائر
المتكلم والمخاطب وما إلى ذلك . والألف المتداة صوتي يشير إلى فوق . والواو تدافع صوتي
يشير إلى الأمام والفعالية . والياء حفرة صوتية تشير إلى تحت والنسبة .

وقد استخدم العربي هذه الفئة من المعرف ببراعة فائقة في قطاعات (حروف المانع
والضمائر وأسماء الاشارة . . .) بما يتوافق مع خصائصها الهيجانية . ولم الحظ أن أحداً
قد أشار إلى خصائص الهيجانية في المعرف العربية سوى (الأرسوزي) . ولكنه أستدعاها إلى
أحرف « الخط » في آخر النون في أن وـ الـ وـ هـ . وهي أحرف إيحائية لا هيجانية . أما

(الهمزة والألف) فقد أسد إليها خاصية العركة في ضمير المتكلم (أنا) : (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة^(٢) ص ٢١١ + ١٥١ + ٢٣٦) . ولنا عودة إلى هذا المثال عند الحديث عن الأرسوزي .

ب - الأحرف الإيمائية :

هي (الميم - اللام - القاء - الشاء - الذال) . وقد ورثناها عن المرحلة الزراعية التي تلت المرحلة الغابية وانتهت حوالي الآلف (٩ - ٨) ق.م وكانت الزعامة في هذه المرحلة للمرأة الأم (الزراعة) . قد فرضت عبادتها على الرجل : ربة للخصوصية تارة ، وربة للزراعة تارة أخرى . فأبدعت الأصول المركبة لهذه الأحرف خصيصاً للتعبير عن حاجاتها الأسروية والمنزلية والمهنية في المرحلة الزراعية .

ولم يهدى أي من علماء العربية وفقهائها إلى الخصائص الإيمائية لهذه الأحرف التي تتجلّى في طريقة النطق بأصواتها . فلم يفيدهم وآمن بهذه الخصائص في تحديد معنى أو استعمال أي مفردة عربية .

نقوس (الميم) المغم يبدأ تشكّله بضم الشفة على الشفة بشيء من التأني جسماً للنفس ، ثم يكتمل بانفراجها عن بعضهما البعض . وهاتان المركبتان الإيمائيتان تمثلان أحداث (المس والرضاع والحلب والاستغراق من الأشياء الم gioفة) . فكان لهذه المعاني (٣٢) مصدرًا جذراً تبدأ بها عشرت عليها في المجم الوسيط وهو مرجعي في كل أحصاء . فاطلقوا على الأم المرضع (ما - ما) ثم أطلقوها على كل (أم) أمرضاً كانت أم غير مرضع . وقد تسرّبت هذه اللقطة يقيناً إلى اللغات الفريبة . ثم تحولت (ما) الزراعية إلى (أم) الفسيحة في المرحلة الشعرية ، تخلصاً من (غوغائية) الأحرف الجوفية (ا - و - ي) (تهذيب المقدمة اللغوية للعلالي)^(٣) - ص ٥٠ - ٥١ .

اما صوت (اللام) المغم فيبدأ تشكّله في المرحلة الأولى بالصاق اللسان بسقف الحنك ، بما يضاهي حالات الالتصاق والتلامس . فكان لهذه المعاني (٨٢) مصدرًا تبدأ بها . ثم يكتمل تشكّل صوتها بانفراج اللسان عن سقف الحنك . وفي حال تكرار هاتين المركبتين ، فإن تلاعيب اللسان بصوت (اللام) يضاهي أحداث المضغ واللثوك واللحس ومتطلبات الأطعمة . فكان لهذه المعاني (المطبخية) المتعلقة باختصاص المرأة أصلاً (٥٢) مصدرًا تبدأ بها . وهذه المعاني (المطبخية) الفطرية ، أعرق في الزمن من معاني التلامس والالتصاق الحضارية . وهكذا الأمر مع (القاء) لمعاني الشق والعفر والتلوّح والتوسيع والانفراج . و (الشاء) للخصائص الأنوثية و (الذال) للخصائص الذكورية .

ج - الأحرف الإيجائية :

هي ما يبقى من المعروف العربية . قد ورثناها عن مرحلة رعوية رائدة بدات في الجزيرة العربية منذ الآلف (٩ - ٨) ق.م . تعتزّ زعامة الرجل .

تتجلى خصائص هذه الفتنة من العروض في صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن معانيها . ولقد انتبه علماء العربية جميعاً من قالوا بفطرة اللغة العربية إلى الخصائص الایحائية لبعض العروض ، ولكنهم عموماً اعتبّطوا على سائر العروض .

فما قاله (ابن جني) في توضيح كيفية قيام المعربي بابداع كلماته تعبيراً عن معانيه : (حدواً لسموع الأصوات على محسوس الأحداث) . كما قال أيضاً : « سوقاً للغروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد » . يُعنى أن المعربي كان يصور الأحداث بأصوات الغروف . فيضع العرف الأول بما يضاهي أول الحدث ، ويوضع العرف الثاني بما يضاهي وسطه ، والثالث بما يضاهي نهايته . وضرب لذلك أمثلة موقعة في (بعث - قبر - قطر - قبر - شد - دش) (الخصائص^(٤)) ج ٢ من ١٦٢ - ١٦٣ .

ومما قاله الأرسوزي : ان معنى العرف هو صدى صوته في الوجودان ، (أي النفس) . على أن ما عرضناه آنفاً من تعامل القائلين بفطرة القائلين بفطرة اللغة العربية مع خصائص المعرف الایحائية قد اقتصر على بعض خصائص بعضها في لمح ذكية لا ترقى إلى النهج العلمي عمقاً وشمولاً . وذلك لأنهم اعتبروا الكلمة العربية هي الأصل ، والعرف المعربي فرعاً منها . فكان هنا الاعتبار هو أصل المقربات جميعاً إلى (اصالة العرف المعربي وحداثته) .

ثالثاً - فماذا عن العقبات إلى اصالة العرف العربي وحداثته ؟ العقبة الأولى : تبعية العرف العربي للكلمة العربية :

هي من أهم المقربات وأصلها جميعاً . تتجلّى في اعتماد بعض علماء العربية (معاني) الكلمات لاستخلاص معنى العرف الذي يقع في أولها أو في آخرها ، ثم يعتمدونه في تحديد معانيها .

وذلك بدلًا من اعتماد (خصائص) المعرف التي تشارك في تراكيبيها لتجديد معانيها بصورة مباشرة . فماذا إذن عن الفروق بين معاني العرف العربي وخصائصه ؟

ساقتصر في حديثي هنا على الخصائص (الصوتية) للمعرف العربية التي اهتمى كثير من علماء العربية إلى بعضها ، تاركًا الحديث عمّا لم يفلتوا إليه من خصائصها (الهيجانية والأيمائية) إلى متناسبة أخرى . إن الخصائص الصوتية لأي حرف هو : « صدى صوته في النفس » ، كما مرّ بنا . وهذا الصدى يوحّي بمعنى معين لا بل وبعيد من المعاني . فصوت (الشين) يوحّي بالتفشي والانتشار والجذاف وهكذا (الصاد) للمسقط والصفاء والصلابة . و (الرائي) للعدة والاهتزاز والانزلاق (واللون) للرقّة والأناقة . فكان لخصائص كل حرف نسبة متوية ملحوظة من معاني المصادر التي يشارك في تراكيبيها .

ولكن علماء العربية القدامى منهم والمحدثين منهم تعاملوا مع معاني المعرف كانوا غالباً ما يستعرضون معاني بعض الكلمات التي يتتصدرها حرف معين ، وليس كلها كما أسلفنا . فإذا وجدوا أن ثمة رابطة حسية أو معنوية ظاهرة تجمع بينها ، اعتبروا هذه الرابطة هي معنى العرف ذاته . ولكن دون أن يربطوا صراحة بين هذا المعنى وبين خصائصه الصوتية .

فمعظم علماء العربية القدامى والمحدثين، قد لاحظوا رابطة (الغزور والخفاء الفيبيوية) في معانٍ الكلمات التي يتصدرها حرف (الغين)، كما في (غرق - غاص - غاض - غطس - غرب - غاب - غطش - غيش - غل) - غضن - غام - غفل - غدر - غبي) . ف قالوا عن هذه الرابطة من (الغزور والخفاء الفيبيوية) هي معنى (الغين) . ولكن أحداً منهم لم يستدعا صراحة إلى خاصية (الغمضة) في صوتها بين فيهم (الأرسوزي)، الذي قال بـان (الغين) للفيبيوية والغنوش (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة^(٥)) ص ٨٧ - ٨٨) . فخاصية (الغمضة) في صوتها توحى فعلًا بالغزو والخفاء ، وبما يتعرف عنهما من معانٍ الظلام والسوداد والفيبيوية الحسية والمعنوية في (٧٦) مصدرًا جذرًا تبدأ بها لهذه المعانى . ولكنهم لو اعتمدوا خصائصها الصوتية في تقصياتهم عن معانيها ، لعنوا أيضًا على (٢٢) مصدرًا جذرًا لمعانٍ (الاضطراب والب بشرة والتخليط) بما يتوافق مع خاصية (الاهتزاز وبعثرة النفس) في صوتها .

وهكذا الأمر مع الحروف الأخرى التي استخرجوا بعض معانٍها ، من حيث عدم توضيح هذه الرابطة الفطرية بين الخصائص الصوتية للحروف وبين معانٍها إلا في بعض اللمح الذكية كما في قول (ابن جنی) في خصائصه: « في الخام رخاؤه وفي القاف صلابة . ف قالوا خضم للرطب وقضم للباس » (المصنفات^(٦)) ج ٢ من ١٥٧) .

وعلى كل حال فمن الثابت أن علماء العربية لم يعتمدوا الخصائص الصوتية للحروف العربية (صدى أصواتها في النفس) في تقصياتهم عن معانيها بالرجوع إلى معانٍ الكلمات التي تتتصدرها جميعاً .

وهكذا ، قد خفت عنهم الرابطة الفطرية التي تجمع بين معانٍ الكلمات التي يتصدرها حرف مدين وهي (حسية) في الفالب ، فلا يحيثون عن معناه في المصادر الأخرى التي يقع في آخرها ووسطها . ويبقى مثل هذا العرف للديهم وكأنه بلا معنى ، فيهملونه . ما شدَّةُ عنهم سوى (العلاليي) الذي اتبع نهجًا خاصًا شديد التعميق كان محفوفاً بالذائق والمغاطر، بمعرض قيامه بتحديد معانٍ العزوف العربية جميعاً ولكن بالرجوع إلى (النصوص المحفوظة) ، وليس إلى خصائصها الصوتية فأصاب حيناً وجانته الدقة أحياناً . وبذلك تبقى الكلمة العربية لدى (العلاليي) في التعامل كما لدى غيره ، هي الأصل والحرف العربي هو الفرع .

وهكذا ، فإن انصراف علماء العربية وأساتذتها عن الخصائص الصوتية للحروف العربية يعود إلى معالجتهم مسألة أصلاء الحرف العربي في ظل الكلمة العربية ، باعتبارها هي الأصل ، وهو الفرع فحق الأرسوزي الذي ابتكر التعريف الفلسفـي - النفسي لمعنى الحرف العربي بأنه : « هو صدى صوته في الوجودان » قال « الكلمة هي ملكوتني » (المجلد الأول من^(٩)) . ولم يستطع هو ولا غيره إلتقافات من هذا الملكوت . وهذا ما حال دون اهتمامهم إلى خصائص العزوف العربية ومعانيها جميعاً .

فكيف تجاوزت هذه العقبة؟

لقد اعتبرت العرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع . فهو الأقدم منها بآلاف الأعوام ، إن لم أقل بمئات الووفها . كما اعتبرت خصائص العرف العربي ، تبعاً لذلك هي الأصل ، وان معاناته المستفادة من معانى الكلمات التي يشارك في تراكيبها هي الفرع .

فكيف تعاملت مع خصائص الحروف العربية ومعاناتها ؟

تبسيطاً للحديث ، سأظل هنا مع علماء العربية أيضاً في نطاق الخصائص (الصوتية) للحروف العربية بعيداً عن خصائصها (المهجانية والإيمائية) .

فلو أخذنا (الهام) وفخمنا صوتها لوجدنا أنه يوحى (بالاهتزاز والاضطراب) ، وهو من خصائصها الصوتية . ولو استعرضنا معانى الكلمات التي يتصدرها لوجدنا أن بعض معانيها قد توافق مع خصائص (الهام) الصوتية الحسية في الاهتزاز من (اهتمام وتغريب واهتزاز وقشر وهدم وتهشيم) في (٦٢) مصدراً جذرالهامي المعنوي . أما البعض الآخر منها فقد توافق مع خصائصها الصوتية في الاضطراب ، من «أمراض نفسية واضطرابات عقلية وعيوب أخلاقية وتشوهات جسدية» ، وما إلى ذلك من الأصوات والمشاعر الإنسانية الرديئة في (١٦٩) مصدراً جذراً تبدأ بها . فكانت (الهام) بذلك هي (المصح) المقللي في اللغة العربية ، قد أفرد فيه جناح خاص بالتشوهات الجسدية وذلك على مثال ما كانت (الخام) حاوية قمامه لرديء المعانى وبذريتها وقدرها وفاحشها .

وهكذا الأمر مع (الصاد) لوحيات (الصقل والصفام والملاطبة) كصدى صوت له في النفس . ومع (الراء) لوحيات (الحركة والتكرار والتتمفصل) . ومع (القاف) للقرة والمقاومة . ومع (الشين) للتفشي والانتشار والجفاف ، ومع (الطاء) للطراوة والمطاءة والضخامة .

ولقد قمت بتطبيق هذا النهج على باقي العروض العربية ، في مسح شامل لها ولجميع المصادر التي تبدأ بكل واحد منها بحثاً عن معانىه الفطرية التي تتواافق مع خصائصه الصوتية وغير الصوتية . فإذا كانت نسبة تأثير خصائص العرف في معانى الكلمات التي يتصدرها تراوح بين (٥٠ - ٩٠) في المائة ، اعتبرت هذه الخصائص هي من معانىه الفطرية الأصلية . وقد يكون له غيرها مالهم أهتم إليه .

ومهما تكن نسبة تأثير خصائص العرف في معانى الكلمات التي يتصدرها ، فغالباً ما أعمد إلى استعراض معانى الكلمات التي يقع في آخرها أو وسطها . وذلك بحثاً عن معانىه الأخرى التي تتواافق مع خصائصه (الصوتية وغير الصوتية) ، والتي لا تظهر إلا في تلك الواقع ، كما سيأتي :

والآن يستحسن بي أن أوضح متى الآن ماذا أعنيه من مصطلحات : (المصدر الجذر ، أو المصدر ، أو الكلمة ، أو اللقطة) التي استعملها عادة بمعرض الحديث عن معاناتها .

فأي مصطلح منها ، قد يكون اسمًا أو فعلًا ، أو واحدًا من مشتقاتها ، ولكن على أن لا يكون : مولداً بعد عصر التدوين ، ولا خيلاً ، ولا سماً أقرته المجامع اللغوية ، ولا عامياً ، ولا اسمًا لجماد أو نبات أو حيوان غير مشتق من فعل . وإن يعتمد من سائر معانيه واستعمالاته ما هو الصق بالقطرة: حسياً أو لا ومعنى ثانية ، وغالباً مااكتفي بمحضي واحد وذلك كله حرصاً شديداً مني على استخراج الخصائص الفطرية البكر للغة العربية وفق ما اعتمدها العربي عند ابداع كلماته تعبيراً عن معانيه ، بلا شائبة لاحقة ولا شبهة .

ويطيب لي أن أنقل هنا للقارئ كشفاً عن النسب المئوية لنماذج خصائص العروض العربية (الهيجانية والإيمائية والإيحائية) في معاني المصادر الجندر التي تبدأ بها أولاً ثم انتهي بها ثانياً وترجمنا في ذلك المعجم الوسيط .

الباء (٥٣) الثناء (٢١-٢٢) . الشاء (٥٤-٥٦) الجيم (٦٥-٥٥) العام (٥٣-٢٥) العام (٧٣-٨٥) الدال (٥٨) الذال (٧٠) السراء (٧٠-٦٢) الزاي (٧٢-٥٧) السين (٣٥-٥٦) الشين (٤٨-٤٩) الصاد (٦١-٦٧) الفاء (٩١-٨٦) الطاء (٩٤-٩٥) العين (٨٨-٦١) الفنون (٧٣-٢٧) القاف (٥٠-٥٢) الكاف (٦٣-٥٢) اللام (٥٠-٤٨) اليم (٥١-٥٦) الهماء (٩٠-٧٦) النون (٧٦-٩٠) . ولقد أمضيت في استخلاص هذه التقبضة الصغيرة من الأرقام ثلاثة أيام ونحوها .

وأما (الهمزة والآلف والواو والماء) ، وإن لم يحظ أي تأثير يذكر لها في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، إلا أنها قد فرضت خصائصها (الهيجانية) بصورة خاصة على (حروف المعاني وأسماء الاشارة والكتابية والضمائر) ، مما منح شخصياتها في هذا القطاع (الصرفي – النوعي) قوة لا يضاهيها في ذلك أي حرف آخر .

وبهذا المسح الشامل لخصائص العروض العربية ومعانيها قد تبين لي أن لكل حرف عدداً من المعاني يحسب مواقعه من المصادر . وذلك لأن خصائصه (الصوتية وغير الصوتية) تتغير بحسب مواقعه منها .

ولا يضر (شخصية) العرف العربي المتمثلة في خصائصه ، أن تتغير ملامحها بحسب موقعه من الكلمة . فإن ملائحة شخصية كل إنسان تقدر أيضاً بحسب موقعه في مقدمة الصفوف من المجتمع ، أو في آخرها أو في الوسط .

وهكذا فإن التباس خصائص العروض العربية ومعانيها تعود إلى أن الفكر اللغوي القديم والجديد قد عالج مسألة أصلية العرف العربي وحياته في ظل الكلمة العربية الشاعرة المستوفية شروط نسبتها باعتبارها هي الأصل وهو الفرع . فكان لا بد لعلماء العربية وأساتذتها أن يتعاملوا مع العروض العربية ومعانيها بكثير من المزاجية الشخصية وقليل من الضوابط العلمية .

أما أنا، فيلجنوني إلى الأحصاء الرياضي، بعرض استخراج معاني المصادر التي تقع العروض العربية في أوائلها وأواخرها وأواسطها أحياناً، وبتأمل خصائصها على النحو مهتم

من الثاني والتروي ، قد ابتعدت عن الغواط الشاردة والمزاجية الشخصية ، فتجنبت بذلك الكثير من المزالق (السمعة والبصرية والشمرية) .

وسرى القاريء أن هذه المقبة هي أصل المقتبن التاليتين ، لا بل وكل العقبات الثانية التي حالت بين علماء العربية وأساتذتها ، وبين الاهتمام إلى أصالة الحرف العربي (خصائص ومعانٍ) ومن ثم إلى حداثته .

العقبة الثانية – ظاهرة الفوضى في تدوين اللغة العربية :

لقد ظلت الفصحى العربية بصيغة مفرداتها وقواعد صرفها ونحوها وما اليها سماعية في معطليها يتداولها أبناءها الخالص على سجيتهم عفو القطرة في بواقيهم وحواضهم على صفحات المذاكرة جيلاً مثقلاً منهم بمدخل ، وبلا تدوين حتى ما بعد نزول القرآن الكريم .

وعندما بدأ اللحن يتسلب إلى الفصحى العربية في المجتمع العربي الإسلامي الجديد بفعل الاحتكاك مع شعوب غير عربية ، قام في منتصف القرن الهجري الثاني لفيف من العلماء بتدوين (المحدث والفقه واللغة وقواعد الصرف والنحو) . وذلك ضبطاً لقراءة القرآن الكريم وغيره على الفصحى العربية من العلائي والضياع .

ولما كان التدوين يتناول أصلاً ما هو غير مدون ، فلقد كان السماع يداهه هو المرجع الرئيس المعتمد في حركة التدوين . ولكن علماء اللغة بصورة خاصة ، حرصاً منهم على سلامة مدوناتهم في شؤون اللغة والصرف والنحو من أي مطعن لحن أو شبهة هجاءة ، قد اشتروا فيمن يجوز السماع منه والأخذ عنه ثلاثة شروط رئيسة :

الشرط الأول :

أن ينتهي إلى أحدى القبائل التي ظلت مشردة في بواقيها وصحابيتها ، فلم تتحتك بغير الأعراب على مدى تاريخها . فأخذوا كثيراً عن (قيس وتميم وأسد) وقليلًا عن (هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين) فقط .

الشرط الثاني :

أن يكون خشنًا في جلده جلفاً في مظهره ، لم يعرف حياة الترف .

الشرط الثالث :

أن يكون فسيحاً في لسانه ، رجلاً كان أو امرأة . ولا يسمع من أحد ما لم يتواتر فيه الشيطان الأولان . (البلقة في أصول اللغة^(٧) ص ١٩٥ – ١٩٦) .

وكان أول من نهج من علماء العربية النهج (الرياضي) في جمع شتات كلمات اللغة العربية جمياً من أفواه (أجلاف) الفصحاء ، هو المبقرى صاحب الأوزان الشعرية : (الخليل بن أحمد الفراهيدي) في كتابه (معجم المعين) . فكان أول معجم عربي وأول معجم

من نوعه في تاريخ اللغات . ثم سار على هذا النهج (أبو بكر محمد بن الحسن الشافعي ٢٢٣ - ٢٢١ م) في كتابه (الجمهرة) (البلغة^(٨) ص ١١٥) وهذا النهج يتلخص فيما يلي :

- ١ - لقد حصر الكلمات العربية باربعة اوزان هي (الثنائي والثلاثي والرباعي والخمساني) .
- ٢ - ثم أخذ يركب الحروف الهجائية بعضها مع بعض : (مثنى وثلاث ورابع وخمس) . مستوفدا بذلك التراكيب النظرية المكتبة من الاواني الازدية . فقيل انها بلغت (٤١٢،٣٠٥،١٢) : (تكوين العقل العربي^(٩) لمؤلفه د. أحمد عابد الجابري ص ٨٢).
- ٣ - ثم راح هو وعلماء اللغة طوال قرن من الزمن يستفسرون من (أجلاف) الفصحاء عن الكلمات المكتبة التي ركبواها نظريا فيما اذا كانت قد وردت فعلًا على السنة العرب، وما هي معانى ما ورد منها .

فمن أين تسربت الفوضى الى حرفة التدوين ؟

المتفق الأول : لقد التزم الملمام في تدوين اللغة العربية نهج (الفراهيدي) بالانطلاق من الامكان الذهني الى الواقعى . فكان تعاملهم مع المعرفة الهجائية تعاملًا (رياضيًّا) يعتمد . وبذلك قد انقلبت عملية التدوين من جمع اللغة المتداولة فعلاً الى عملية (التماس سند واقعى لفرض نظري) من آفواه الفصحاء (الأجلاف) . (المرجع السابق^(١٠) ص ٨٣) .

ولئن كانت لا شبهة تذكر حول الكلمات التي وردت في الشعر الجاهلي ، بصورة خاصة ، الا أن هذه الشبهة تعود حول كثير من غرائب الكلم ، مما لم يرد في الشعر . وما يزيد في الشبهة حول ذلك ، أن فصحاء حضريين من غير (الأجلاف) قد تسبروا الى بوادي الفصحاء (الأجلاف) يكتشفون مثلهم ويخشوشون كيما يؤخذ عنهم ، وذلك سعيًا وراء الشهرة المعنوية او المكافآت المادية السعية . (تكوين العقل العربي^(١١) ص ٨٤) .

ومن هنا بدأ تسرب الفوضى الى لفتنا .

المتفق الثاني: لقد شملت حرفة التدوين اقطalar (العجمان واليمن والشام والمراق) وتقت على أيدي عشرات العلماء من متفرجين وغير متفرجين لهذه المهام نقلًا عن آفواه آلاف (الأجلاف) من الفصحاء طوال قرن كامل من الزمن في رحلات متلاحقة الى البوادي .

« فالكسائي مثلاً يمضي الى أهل البوادي ومعه (٤٥) قنتينة حبر، وظل يكتب ما سمعه من آفواههم حتى نفذ ما عنده . (رسف المباني في شرح حروف المسانى^(١٢)) للإمام أحمد بن عبد النور المالكي ص ٥٦) .

وقد نتاج عن ذلك أن يكون للكلمة الواحدة ومشتقاتها المزيد من المعانى والاستعمالات. فكان لغفل (حفل) و مشتقاته في المعجم الوسيط^(٤٩) معنى واستعمالاً ، يغضها يتعارض مع بعضها الآخر مما لم نجد له مسوغاً من خصائص حرفي (العام والتام) ومعانיהם . وكان لكل من (لا - ما) في (معنى الليب للأنصارى)^(١٣) أكثر من (٥٠) معنى واستعمالاً .

كما نتاج عن ذلك أن يكون للمعنى الواحد المزيد من الكلمات . فكان للأسد (٤٢٠) اسم وصفة وجاء في (البلقة ١٤) ص ٣١٧ أنها بلغت (٦٠٠) وكان للداهية (٣٥٤) ، وللسيف (٢٢٠) وهكذا الأمر مع كثير من المسميات وحروف المعاني . (قاموس احياء الألفاظ ١٥) لأسامة الطيببي .

ولئن كان التدوين سبباً من ألواء (الأجلاف) الفصحاء قد حفظ لغة العربية فطرتها، إلا أن هذه الفطرة قد جعلت بمعناها على ساحات واسعة من الكلمات والمعاني الحسية لا بل ومتوارية أيضاً خلف ستار من التشابه والكتابات والتوريات والممانع المجردة . كما كان للتخصيص المصري (الكتابي) والمعجمي دورهما أيضاً في هذه الفوضى .

ومن هنا جاءت العقبة الثانية في طريق العلماء إلى أصله المعرف العربي وحياته .

فلما كانوا اعتبروا الكلمة العربية هي الأصل والعرف العربي هو الفرع ، وحاولوا استخلاص معانيه بالرجوع إلى معانٍ الكلمات التي يقع في أولها أو آخرها ، كما أسلفنا في (العقبة الأولى) .

ففقد كان من الحال عليهم أن يستخلصوا منها معانٍ الفطرية جميعاً .

فأي الكلمات هي الجذر الأصل ، وأي معانٍ لها هو الفطري ، وأي استعمالاتها هو الصحيح ، مما يجوز اعتماده في استخلاص المعنى الفطري للعرف العربي بحثاً عن أصلاته؟ وإنها لمن أعوص المشاكل .

فنلى الرغم من أن علماء العربية وأساتذتها قد لاحظوا العلاقة الفطرية بين معانٍ الكلمة العربية وبين الخصائص الصوتية لأخرها منذ عصر التدوين ، إلا أن أحداً منهم لم يقدم حتى الآن باعتماد خصائص العرف العربي للتثبت من معانٍ الفطرية بالرجوع إلى معانٍ الكلمات التي يتضمنها الا مصادفة أو في أضيق العدد .

فحتى (الارسوزي) الذي قال بأن (معنى العرف العربي هو صدى صوته في النفس) ، وأسند إلى (الباء) معانٍ (البيان والانبعاث والظهور) ، وهي صحيحة ، لتوافقها مع خاصية الانفجار في صوتها ، إلا أنه لم يربط بين هذه المعانٍ وبين هذه الخاصية ، وشأنه (٤٧) مصدرأ جنراً تبدأ بالباء لهذه المعانٍ . ولو أنه ربط بينهما لكان بحثاً أيضاً عمّا توحشه في النفس خاصية الانفجار في صوتها من معانٍ (الحفر والبقر والشق والبعير ...) إلى (٥٠) مصدرأ جنراً آخر لهذه المعانٍ أيضاً ولكنه لم يفعل ، لأنه لم يعتمد خاصية الانفجار في صوتها بمعرض البحث عن معانٍ لها جميعاً .

لقيت تجاوزت هذه العقبة؟

لئن كان النهج الذي اتباه علماء اللغة في مصر التدوين قد أربك المثقف العربي طوال ما بعده من المصير حتى يومنا هذا . وذلك بما ورثنا عنه من كثرة كثيرة في الكلمات للمعنى الواحد ، ومن كثرة كثيرة في المعانٍ للكلمة الواحدة ومشتقاتها ، إلا أن هذا النهج العبراني

الصحيح قد حفظ للفة العربية أصالتها وفطرتها من الضياع على مدى التاريخ . كما حفظ أيضاً للشخصية العربية مقوماتها الأصلية على مدى التحافات الفازية وتقليبات المصور . ولكن هذه (الفطرة والأصالة) في اللغة العربية قد أطلق عليها أحد المفكرين العرب المعاصرين مصطلح (لا تاريخية) اللغة العربية، كماخذ اداته بعها ، وليس كميزة من فضيلة وامتياز .

فالدكتور (محمد عابد الجابري) من المقرب الشقيق ، يبني على اللغة العربية وعلى المقل العربي في كتابه (تكوين العقل العربي)، هذه الأصالة والفطرة . فيقول بالحرف الواحد : « ... ان (لا تاريخية) اللغة العربية مثلها مثل طبيعتها الحسية ، ليست فضيلة فيها ولا مكمنا لفلسفه موهومة خاصة بها وباهله يجب استخراجها وابراز أصالتها ... كلا ان (لا تاريخية) اللغة العربية وطبيعتها الحسية معطى واقعي تاريخي يجب ان ننظر اليه بعين النقد ، وليس بعين الرضى والمدح ، ان العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية ، او على الأقل جمعت فيه ... (عالم حسي لا تاريخي) عالم البدو من العرب الذين كانوا يعيشون زمناً متقداً كامتداد الصحراء . زمن التكرار والرتابة ، ومكاناً، بل فضاءً (طبيعاً وحضارياً وعقلياً) فارغاً هادئاً : (كل شيء فيه صورة حسية - بصرية - سمعية) . هذا العالم هو كل ما تقلله اللغة العربية الى أصحابها ، اليوم وقبل اليوم ، ويظل هو هو ما دامت هذه اللغة خاضعة لمقياس عمر التدوين وقيوده (١٦) (ص ٨٦ - ٨٧) . »

ولنسمعه يقول أيضاً :

« ان الاعرابي هو فعلًا صاحب (العالم العربي) ، العالم الذي يعيشه العربي على مستوى الكلمة والعبارة والتصور والخيال . بل على مستوى العقل والقيم والوجودان . ان هذا العالم فغير ضحل جاف - حسي - طبعي لا تاريخي ، يعكس ما قبل تاريخ العرب - العصر الجاهلي ، عصر ما قبل الفتح وتأسيس الدولة (المراجع السابق (١٧) ص ٨٨) . »

ان تعامل (الجابري) على أصالة اللغة العربية وفطرتها ، وما استتبع ذلك من تعامله على العقليّة العربية والشخصية العربية ، يعود الى بقائه فوق سطح اللغة العربية (الحسي) ، لم ينفعه بوجوده قيد أملأه واحده الى أعماق باطنها (الفنى الاخلاقى الشعري) أثوم مقومات (الشخصية العربية) . فكان من طبيعة الامور أن لا يجد في العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية الا فضاءً (طبيعاً وحضارياً وعقلياً) فارغاً هادئاً كما زعم . فمن يتعامل مع اللغة العربية بعقله صرفاً بلا وجودان يستشف به ، لا يمكن أن يجد فيها سوى الفراغ (اللاتاريجي) مهما يبلغ من المعارف والعلوم المقلية .

وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب (الجابري) في قسم من آقواله عن عالم البدو ولقتهم : كل شيء فيه صورة (حسية - بصرية - سمعية) .

فهذه الشهادة على صحة خصائص اللغة العربية (الحسية - البصرية - السمعية) من نقائد متعامل . وان ثابت عن ذاته خصائصها (الفنية - الاخلاقية) ، ثبتت أصالة اللغة

العربية وفطرتها وبداعتها وبداوتها . واذن فلا هي هجينة لغات كما يزعم بعض المرضين ، ولا كلماتها مصطلحات على معانٍ كما يرى بعض الابرياء غير الصليبيين في خصائص اللغة العربية .

فهذه «الخصائص» (الحسية - البصرية - السمعية) في اللغة العربية هي التي أعادتني على تجاوز هذه المقدمة من ظاهرة الفوضى في التدوين بكثير من الثقة والاطمئنان ، وان تعددت وتتنوعت مزاياها ومخاطرها تذكير كان ذلك ؟

اذا كانت معانٍ الكلمة العربية محصورة فعلاً في نطاق (الحسي - السمعي - البصري) كما لاحظ (الجابريري) وغيره ، فان هذه المعانٍ تكون بالضرورة محصلة «الخصائص» (الحسية - البصرية - السمعية) لأصوات اخرتها . مع التذكير بأن البعض العروف العربية خصائص شعورية أخرى لم يفطن (الجابريري) لها كما في آخر (الحاء - العين - الهاء - الخام) .

واذن لا بد لنا بعرض البحث عن المعانٍ الأصلية للحرف العربي أن نبحث عن المعانٍ التي تتوافق مع خصائص الفطرية في المصادر التي يشارك في تراكيبيها .

وهكذا لا تأبه الكثرة مشتقات الكلمة ، ولا لكتة معانٍها (الحسية والبصرية والسمعية) والشعورية أيضاً ما دمنا نعتمد خصائص الحرف العربي دليلًا يهدينا إلى الكشف عن المعانٍ التي تتوافق مع هذه «الخصائص» في المصادر الجنور التي يشارك في تراكيبيها ، لتكون بذلك هي من معانيه .

فترة فرق كبير في اليسر والدقة ، بين أن نبحث عن معنى الحرف الذي يتصدر كلة معينة في غابة ممتدة من معانٍها ومعانٍ مشتقاتها ، وبين أن نتخذ من خصائص هذا الحرف قبساً ينير لنا طريقنا في تلك (الثابة) إلى المعانٍ الفطرية التي تتوافق مع هذه الخصائص .

وقد يتساءل البعض :

واذن ما هو موقفنا من أي مصدر جذر أو مشتق منه لا تتوافق معانٍه مع خصائص الحرف الذي يتتصدره ؟ فهل نعتبره خيلاً أو معرباً ، أم ماداً ؟ فأجيب :

ان المعنى الفطري للكلمة «العربية» هو بالضرورة محصلة خصائص اخرتها ومعانٍها + . فلكل حرف عربي من المعانٍ يمدد ما له من «الخصائص» . ولكن هذه «الخصائص» تتغير أيضاً بحسب موقع الحرف من الكلمة في أولها أو آخرها أو وسطها ، كما أسلفنا .

ففي المصادر التي تبدأ بحرف (النون) مثلاً ، عثرت على (١٦٥) مصدرًا جنداً لمعانٍ الانبات والتفاذ في الأشياء ، وعلى مصادرتين (اثنتين) فقط للاستكانة والاستقرار هما : (نام، أناخ) أما المصادر التي تنتهي بـ (النون) فقد عثرت على (٣٤) للاستكانة والاستقرار . ولم أعش إلا على اثنين للانبات هما (بن - عن) وواحد للتفاذ في الأشياء هو (طمـن) .

وهكذا لا يجوز أن نقول أن من معاني (النون) في بداية المصادر (الاستكانة والاستقرار) ولا من معانيها في نهاية المصادر (الانبعاث والنفاذ) .

وفوق ذلك ، فإن ثمة زحاماً حقيقياً بين خصائص العروض العربية على معاني كل كلمة . فتارة تتقلب خصائص العرف الأول كما (الباء) للحرف في أول المصادر من (بمعجم) . وتارة تتقلب خصائص العرف الأخير منها كما (النون) للاستكانة والاستقرار في آخر المصادر من (سكن) . وكما (الصاد) في الوسط من (عصر) للصلابة والفعالية . ولكن قلماً تتقلب خصائص العرف الوسط ، وهذا بخلاف ما ذكر (محمد عنبر) من أن الفعلية هي دامماً للحرف الأخير ، كما جاء في كتابه (مع نقده جدلية العرف العربي^(١٨) ص ٧) . وهو مطبوع على الآلة الكاتبة محفوظ في مكتبة الأسد .

وإذن ، عندما تندم الروابط بين معنى الكلمة العربية أو مشتقاتها ، وبين خصائص أحرفها تكون أمام واحد من المكنات الثلاثة :

- ١ - أما أن تكون الكلمة دخيلة غير عربية الأصل .
- ٢ - وأما أن يكون معناها مصلحها عليه غير قطري .
- ٣ - وأما أن تكون قد تعرضت أثناء التدوين إلى تصحيف بصري أو سمعي .

وهكذا تسنح الفرصة الطيبة لعلماء اللغة وأساتذتها المعاصرین والأئمۃ للتخلیص لغتهم من المفوضی التي لحقت بها في عصر التدوين وما بعده ، وذلك باتباع ما يلي :

أ - أن يهملا ما استطاعوا تداول أي كلمة وأي مشتق لها لا تتوافق معاني كل منها مع خصائص أحرفه فيستعيضوا عنها بالكلمة البديل المناسبة .

ب - أن يهملا تداول أي معنى لكل كلمة لا يتوافق مع خصائص أحرفها .

ج - أن يقوموا بتصحيف التصحيف البصري والسمعي في أي كلمة لا تتوافق معانيها مع خصائص أحرفها وذلك بالاستعاضة عن العرف المصحف بالحرف النظير له كتابة بدون تنقيط أو صوتاً ، اذا توافقت خصائصه مع معنى الكلمة التي أصابها التصحيف .

فما أكثر ما شكا علماء العربية من هذين النوعين من التصحيف كما قيل في كلمة (جرش) لصوت الطير ومعناها الأصلي قشر ، فهي مصفحة عن أصلها (جرس) . وذلك لأن (الثين) للتفسی والتنتشر تناسب القشر ، وأن (السين) الصفيرية تناسب صوت الطير . (موالد اللغة للعاملي^(١٩) ص ٩٢-٩٦ ونشرة اللغة العربية^(٢٠) طلكرمي ص ٢٢) .

د - أن يعيد أصحاب الماجم تمثیف مشتقات المصادر الجذور ومعانيها ، فيضمنوا في المقدمة ما هو حسي منها ، لأنه هو الأصل ، ثم المعنوي المجرد المتفق من العسى . وأما ما يبقى من المشتقات التي لا تتوافق معانيها العسی والمعنونی مع خصائص حروفها فتوترن في آخر الشرح . ولا يحذفونها حرفاً على تراصنا اللغوي ، ولاحتمال الافادة منها في الدراسات اللغوية المقارنة وغير ذلك . فنعد تقيد الماجم ، ولا سيما القدیم منها بهذا المهج

في ترتيب معانٍ المصادر قد ساهم في حجب التصانص الفطرية للغُرُوف المُربَبة عن اذهان وانتظار علماء المُربَبة وأساتذتها .

فباستعراض معانٍ مادة (فار) في (السان العربي لابن منظور) مثلاً ، نجده قد بدأ الشرح بقوله :

« الفار معروف ، وجمله فشان وفترة والأنثى فارة ، وقيل الفار للذكر والأنتي . وبعد أن يستعرض بضعة عشر استعمالات للفار ينتهي إلى القول : « فار الرجل حَفَرَ حَفْرًا الفار . وقيل فار بمعنى ، حفر وشق » .

وهكذا قد جمل معنى الحفر متفرغاً من (الفارة) بينما العكس هو الصحيح . فمن معانٍ (القام) الشق والحفر .

كما جاء فيه أيضاً حول مادة (فقر) . « الفقر والفقير بفتح الفاء وكسرها » ضد الفنى . وبعد أن يستعرض استعمالات مادة (فقر) لمعانٍ (ضد الفنى) ولمعاني الفقرة (من المود الفقري) ، في ١٢ عموداً من المعجم يخلص إلى : « فقر الأرض - حفرها » . وهذا هو المعنى الحسى الأصل لها .

فكيف يمكنني للباحث أن يلحظ مع هذه القوسي في تصنيف المشتقات والمُعاني خاصية الحفر والقطع في (القام) وإن كان ثمة (٥٨) مصدرًا تبدأ بها لهذه المُعاني :

ولكن أن يتلزم أصحاب المعاجم بهذه التصنيف المقترن : (الحسى أولاً ثم المعنوي المجرد) . فتلك مهمة ولا أشق ، ولعلني من أخبر الناس بها ، إن لم أكن أخبرهم .

فمن (٢٩٣١) مصدرًا جذرًا ومشتقًا تبدأ بحرف (النون) مثلاً ومن آلاف المُعاني ، قد وقع اختياري على (٣٨٦) ، واعتمدت لكل منها معنى أصلًا واحدًا حسياً أو معنوياً ، وقليلًا ما اعتمدت معنيين اثنين . وقد اتبعت هذا النهج في تصصياتي عن معانٍ باقي المُرُوف في المصادر التي تشارك في تراكيبها . مع الاشارة إلى أننى اعتمدت أحياناً قليلة بعض المشتقات كمصادر .

فمن (٤٩) مشتقًا ومعنى للمصدر الجذر (حَفَرَ) مثلاً ، اخترت (الحُفِيف) ومعناه صوت مرور الرياح في الشجر وهو مشتق . وذلك لأن هذا المعنى هو الأكثر توافقاً مع خاصية الحُفِيف في صوتي (الطعام والناء) . كما اخترت أيضًا معنى ثانية له هو (حَفَرَ) الشيء حفافاً، استدار حوله وأحدق به وذلك لأنه الأكثر توافقاً مع أحدي خصائص (الناء) في الاحاطة والاحتواء ، كما في (حاط - حوى - حبس - حضر - حظر - حام - حدق - حمى - حفل - حبر - حاز - حرز - حاق - حجز) . إلى (٥٣) مصدرًا جذرًا لهذه المُعاني .

مع الاشارة إلى أنه كان ثمة معانٍ آخرى لهنـا المصـدر الجـذر ومشـتقـاته تتوافق أيضـاً مع المصـائـص المصـوتـية لـحرـفـيـ (الـعـامـ وـالـفـاءـ) فيـ (جـهـةـ) ، وـمـعـنـاـيـ الـاحـتـواـءـ وـالـاحـاطـةـ فيـ (الـعـالـمـ) . ولكنـ منـ المـسـتـغـرـبـ آنـ يـكـوـنـ مـعـنـاـيـ مـشـتقـاتـهـ : «ـ الـبـاسـ -ـ الـخـوـشـةـ -ـ تـشـمـثـ الـشـمـرـ -ـ الـقـشـرـ -ـ الـقـبـرـينـ -ـ ضـائـقـةـ الـعـيـشـ -ـ الـقـسـجـ -ـ الـدـمـ)ـ .ـ إـلـىـ كـثـيرـ غـيرـ ذـلـكـ

مما لا يتوافق مع خصائص حرف (العام والفاء) كان يجب تصنيفها في آخر المعايير وليس في أوائلها وأواسطها كما جاء في المعجم الوسيط .

واعتقد أن اتفاق ثلاثة أعمام ونيف لترويض هذه المعقبة من فوضى التدوين لم يكن ثمناً باهظاً .

العقبة الثالثة : حول ضبابية نشأة اللغة العربية :

لم يستطع أي من علماء اللغة وسواعدهم من العلماء أن يكشف عن أصول النشأة البكر لأي لغة أو لهجة في : (التاريخ والطبيعة) .

يقول (الملاة توفار) : « يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد أن أنعمنا النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل » . وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية إلى أن تقرر في أول نظام لها عام ١٨٦٦ (١٨٦٦) عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة . ولم يرتفع هذا الحرجان وان تم خرقه فعلاً (تاريخ علم اللغة ٢١) لجورج مونين من ١٦-١٧ . وقد نحت الألسنية العديدة هذا المنحى ، فقالت بعدم جدوى البحث عن نشأة اللغات ، وعدم وجود علاقة بين معنى الكلمة وأصوات حروفها ، فهي مجرد مصطلح على معنى .

ولم يشد علماء العربية عن هذا المجزء بصدق نشأة العربية وإن قالوا بفطريتها . فمعى بذات أصولها البكر ؟ . وفي أي بيئه طبيعية وانسانية ترعرعت مرحلة حياة بعد مرحلة ؟ . ثم كيف استوفت شروط نضجها ؟ .

لقد تصدى الكثير من علماء العربية ودكتورتها لواحدة أو أكثر من هذه المسائل الثلاث ولكن بلا نتائج مرضية .

ولو أن واحداً منهم استطاع أن يجيب بدقة ، على هذه التساؤلات الثلاثة في تفصياته لذن لكان اهتمى إلى أصللة المعرف العربي في خصائصه الفطرية : (الهيجانية والإيمائية والايحائية) ، وذلك للعمليل طبيعة التواصل اللغوي في المراحل (الفايية والزراعية والرعوية) التي مر بها أبناء العزير [العربية غير التاريخية] بما يتوافق مع مستوىياتهم (المعيشية والاجتماعية والثقافية) ، وبما يلبى حاجاتهم مرحلة حياة متطلبة بعد مرحلة .

ولكن قديامي علماء العربية كانوا يقترون جميماً إلى علوم (التاريخ والجغرافيا والأثار والبيولوجيا والمجتمع) التي لا يدمى الاستعانته بها للرجوع بالانسان العربي وحروفه إلى ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية . فيهبطون منها من هناك مرحلة حياة بعد مرحلة إلى ن استوفيا مقوماتها (الشخصية) بطولة وشمراً في العاهليه ، وقىما مثلث وفصاحة وبلافة في القرآن الكريم .

أما علماء العربية ودكتورتها المحدثون ، وإن حظي عصرهم الراهن بهذه العلوم جميماً وما إليها من علوم (الطبيعية والفلك والنفس والبيولوجيا والأصوات والتشرير ووظائف

الأعضام) وفي رعاية الحاسوبات الالكترونية ، مما يتصل بعلم اللغة ، فانهم لم يستثمروا إلا القليل من قليلها في تقصياتهم عن نشأة المرببة وأصالة حروفها ، فجانبهم التوفيق . وما أبرز دراستي من التقصير . فالباحث عن (اصالة العرف العربي وحداثته) ، انا هي مهمة فريق متكامل من شتى الاختصاصات العلمية والثقافية طوال اعوام عديدة ان لم أقل عشرات الأعوام ، وليس مهمه باحث بمفرده مهما يطل المعر به .

وبالمقابل لو أن علماء العربية المحدثين ودكتورتها تعاملوا مع العرف العربي على أنه هو اصل الكلمة لا فرع منها ، فاعتمدوا على خصائصه في تحديد معانيها، اذن لكانوا اهتدوا الى فئات العروض ذات الخصائص (الميجانية والإيمائية والإيعانية) . ولكنـ: صاغوا سرا عنهم الى ما قبل التاريخ للكشف عن المراحل الحياتية التي تم فيها ابداع كل فئة منها بما يتناسب مع مستوياتها (الميشية والاجتماعية والثقافية) (٢٠٠) كما اسلفت .

وعلى الرغم من هذا التطابق المدهش بين خصائص الحروف المرببة (الميجانية والإيمائية والإيعانية) وبين المراحل: (الغائية والزراعية والمعرفية) التي مر بها الانسان العربي في جزيرته : تخلقاً لتخلف ، ورقياً لرقي ، فانتـا نـرى لـدى (العلـاـليـيـ) رأـياً مـخـالـفاً لـى حـدـ ما . فهو يقول : « .. ومن ثم كان من الخطأ أن نـفسـرـ اللـفـةـ بـتـارـيـخـ الـرـبـ ، وـاـنـاـ نـكـونـ أـكـثـرـ قـصـداـ اذا فـسـرـنـاـ تـارـيـخـ الـرـبـ بـالـلـفـةـ وـسـتـكـشـفـ الـأـيـامـ عـنـ هـذـاـ هـيـرـ يـسـيرـ » . (المقدمة اللغوية (٢٢) ص ١٦٤)

وقد صدقـتـ نـبـوـتـهـ . فـهـاـ نـعـنـ نـرـىـ كـيـفـتـمـ تـفـسـيـرـ (تـارـيـخـ) الـرـبـ بـالـلـفـةـ ، بـكـثـيرـ مـنـ الـمـوـسـعـيـةـ كـمـاـ قـرـدـ (الـعـلـاـليـيـ) ، وـلـكـنـ قـدـ تـمـ تـفـسـيـرـ الـلـفـةـ بـتـارـيـخـ الـرـبـ أـيـضاـ خـلـالـاـ مـاـ زـعـمـ .
فـمـاـ حـصـيـلـةـ عـلـمـاءـ عـلـرـبـيـةـ وـدـكـاتـرـتـهـاـ مـنـ تـلـكـ الـمـحاـولـاتـ ؟

بعد تجوالي في ربوع عشرات المراجع اللغوية التي عالجت مسألة نشأة المرببة ، برصانة وجدية حيناً قليلاً ، فدرستها ومحضتها برصانة وجدية أيضاً ، وبسطحة ومزاجية أحياناً كثيرة ، فتصفحتها على عجل .

بعد تجوالي ذلك ، يعزـنـتـيـ أنـ أـقـولـ اـنـ آـيـاـ مـنـهـمـ لـمـ يـتـوـصـلـ إـلـىـ شـيـءـ عـلـىـ مـوـسـقـ بـصـدـهـاـ .

فلئنـ عـادـواـ جـمـيـعاـ بـالـعـرـبـيـةـ إـلـىـ مـاـ قـبـلـ التـارـيـخـ ، إـلـاـ أـنـ آـيـاـ مـنـهـمـ لـمـ يـعـرجـ عـلـىـ الـمـراـحلـ العـيـانـيـةـ الـتـيـ عـاشـتـهـاـ فـيـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ ، فـغـابـتـ عـنـهـمـ بـذـلـكـ خـصـائـصـ حـرـوفـهاـ الثـلـاثـ ، وـعـزـ عـلـيـهـمـ بـصـورـةـ عـامـةـ تـحـدـيدـ مـعـانـيـ الـكـلـمـاتـ بـدـقـةـ عـتـىـ الـتـيـ اـخـتـارـوـهـاـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ الـأـمـلـةـ الـتـيـ ضـرـبـهـاـ .

كـمـاـ أـنـ آـيـاـ مـنـهـمـ لـمـ يـعـاوـلـ اـعادـةـ مـعـانـيـ وـاسـتـعـسـالـاتـ أـيـ منـ (حـرـوفـ الـمـعـانـيـ وـالـضـمائـرـ) وـاسـمـاءـ الـاـشـارـةـ وـالـكـنـيـةـ وـماـ الـهـيـاـ) إـلـىـ خـصـائـصـ الـحـرـوفـ الـتـيـ تـشـارـكـ فـيـ تـرـاكـيـبـهاـ .
ماـ شـدـ غـنـمـهـمـ سـوىـ (عبدـالـعـقـفـاضـلـ) مـعـ ضـمائـرـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ كـتـابـهـ (مـغـامـرـاتـ لـغـويـةـ) (٢٣ـ) فـاصـابـ قـلـيلـاـ وـجـاتـهـ التـوفـيقـ كـثـيرـاـ . (صـ ٢٤٧ـ ٢٦٥ـ)

ولما كان عرض آراء من تصدى لنشأة العربية من قدامهم ومحدثهم ، يكتفى من الموضوعية والانصاف ، وعلى شيء ما من العمق والشمول ، سيقتضي العديد من الصفحات ، ان لم أقل المئات مما لا متسقه في هذا المقال ، فاني سأرجو الحديث عنها الى مقال لاحق اذا ما اتسع له صدر مجلتنا التراثية الموقرة . وقد اخترت مشروع هذا المقال مسبقاً عنوان « العرف العربي على موائد علماء العربية » ، وربما يصبح عنوان كتاب مستقل .

ولم يتسع المجال للحديث عن (ضبابية نشأة العربية) لدى علمائها ، فانه لا بد من الحديث هنا عن كيفية تجاوزي هذه المعقبة الأخيرة استكمالاً للحديث عن تجاوزي المقربين السابقتين . وذلك كيما أروي للقاريء قصة اهتدائي الى خصائص العروض العربية وفاة للوعد الذي قطعته له .

كيف تجاوزت هذه المعقبة ؟

لأن كانت تبعة العرف العربي للكلمة العربية ، هي أصل بالعقبات جديها الى اصلةه العرف العربي وحداته ، الا ان (ضبابية نشأة العربية) كانت الأعجمى على الترويض .

فما قصتي مع هذه المعقبة المعرفة ؟

لقد عرضت في (المعقبة الأولى) اثني اعتبرت العرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع . وانطلاقاً من هذا المبدأ ، قد اعتمدت الخصائص الصوتية لكل حرف عربى في البحث عن مدى تاثيرها في معانى المصادر الجنور التي شارك في تراكيبيها . فيكون من معانى ما يتوافق من خصائصه الصوتية مع معانى تلك المصادر بحسب متوية مقبولة ، كما أسلفت بشيء من التفصيل في (الفين) .

ولكن بعد أن أمضيت قرابة السنين في استخراج معانى المعروف العربية باعتماد خصائصها الصوتية فحسب ، ولدى مراجعتها في احدى المرات ، لفت انتباھي أن خصائص الرقة والضعف والوهن في صوت (الفاء) كما ياتيقول عنها (ابن جني) في خصائصه ، لم يؤثر الا في (٢١) مصدراً جنراً تبدأ بها من أصل (٢٢١) ، بما نسبته أقل من (٠٪) . فتساءلت :

لماذا شدّ هذا العرف عن غيره من المعروف العربية ، وقد رأوحت نسب تأثير خصائصها الصوتية في معانى المصادر التي تقع في اولها وآخرها بين (٥٠-٩٠) في المئة ، باستثناء قلة من المعروف كما أسلفت ؟

وباعادة تدقيق المانى الحسية الأصل لهذه المصادر جديها ، لاحظت أن ثمة (٥٨) منها لها مانى (الشق والفصل والغير) ، يتطلب احداثها من القوة والشدة ما يتعارض مع صدى صوت (الفاء) الواهى في النفس .

كما عثرت أيضاً على (٤٨) مصدراً لها مانى (الانفراج والبساطة والتوضیح) ، وعلى (١٤) لها مانى (البعثرة والتشتت والانتشار) مما لا يتوافق أيضاً مع صدى صوت (الفاء) في النفس .

وبعد تكرار النطق بصوت (الفاء) مفخماً ، وتأمل طريقة النطق به على فترات متقطعة من الأيام وربما الأسابيع (لم أعد ذكره) ، تبين لي أخيراً أن هذه المعانى تتواافق مع العركات (الأيمائية التثليلية) التي ترافق مراحل اصدار صوتها، مما لا علاقة له بصياغة في النفس . وكانت مفاجأة مذهلة .

فالنطق بصوت (الفاء) مشبعاً مفخماً ، كما كان يلفظ في المراحل اللغوية البكر ، يتم على ثلاثة مراحل :

المراحل الأولى :

تبدأ بضرب الأسنان العليا خفيفاً على الشفة السفلية حسناً للنفس ، مما يضاهي ضربة بعزم حيواني أبيض على أرض طرية . فكان لهذه المرحلة (٥٨) مصدراً لمعانى (المفر والشق والفصل والقطع) كما في : (فاس - فاي - فار - فقر - فل - فشع - فدغ - فلق - فرخ - فطم - فلح) .

المراحل الثانية :

تبدأ بانفراج الأسنان العليا ، وانفتاح الفم واسعاً ، مما يضاهي الأحداث التي يتم فيها : (الانفراج والتبعيد والتلاشي) . فكان لهذه المرحلة (٤٨) مصدراً ، كما في «فتح - فسع - فجا - فلك - فسك - فرشخ - فق - فقص - فرغ - فقر - الفم) .

المراحل الثالثة :

تنتهي بصدر صوتها مع النفس البعض خارج الفم ، مما يضاهي الأحداث التي تم فيها (الابتعاثة والتشتت والانتشار) ، كما في : « فرش - فشع - فشل لحيته - فشى - فاح - فاع - فاج » (١٤) إلى (١٠٠) مصدراً .

وما أكثر ما اضطررت إلى التنوية بهذا الاكتشاف المدهش في متن الدراسة .

وهكذا ، لما كانت نسبة المصادر التي تأثرت معاناتها بخصائص حرف (الفاء) في الصحف والآلومن أقل من (١٠٪) ، وكان تأثير طريقة النطق بصوتها أيماءً وتمثيلاً قد بلغ (٥٤٪)، فقد أطلقت على هذا العرف مصطلح (الأيمانية - التثليلي) .

وب إعادة دراسة العروض العربية جيمعاً للكشف عن خصائصها الأخرى غير (الصوتية)، تبين لي أن ثمة آخرًا أخرى غير (الفاء) قد استمدت معظم معاناتها من طريقة النطق باصواتها (أيماءً وتمثيلاً) هي : (الميم واللام والثاء والذال) . وإن بعضها الآخر قد استمد نسبة قليلة من معاناته من طريقة النطق بصوته مثل (الباء) . فكان ثمة /٣٩/ مصدراً (للاتساع والامتلاء والعلو) وفقاً لانفتاح الفم واسعاً عند خروج صوتها المغمضة .

كما تبين لي أيضاً أن ثمة آخرًا أخرى تستمد معاناتها (الصرفية - التنوية) ، وليس (المعجمية) من خصائص أصواتها (المهيجانية)، وهي (الهمزة والألف اللينة والواو والياء) كما أسلفته .

ولقد ترافقى لي أن الأحرف (المهيجانية) أنفه الذكر ، هي من مستحاثاتنا اللغوية التي ورثناها عن مرحلة لغوية مفرقة في القدم ، كان الإنسان العربي خلالها كغيره من ينتسبون إلى المراحل الفاييية البكر يعتمد الأصوات المهيجانية والحركات الجسمية (اللارادية) . وهذا يثبت صحة (النظريّة الفريزية) في نشأة اللغات التي رفضها الدكتور (وافي) لأن القائلين بها لم لم يحظوا بمثل هذه الشواهد من مستحاثاتنا اللغوية النظرية (علم اللغة (٢٤) ص ١٠٠ - ١٠٢) . فنحن لا نزال حتى الآن نوظف الخصائص (المهيجانية) لهذه الأحرف للتعبير عن بعض المانع التي كان يتداولها الإنسان العربي الفجر في المرحلة الفاييية . وذلك كما في (المهمزة) التي كان يفيد من خاصية الانفجار في صوتها لفت الانتباه إلى خطأ ما أو منفعة أو التعبير عن حالة نفسية ، فأصبح يفيد من خاصية الانفجار هذه بلفت انتباه السابع (للنداء والاستفهام) ، وغير ذلك من المانع في (حروف المانع والضمائر وأسماء الاشارة ٠ ٠ ٠) .

لقد أطلقت مصطلح (المهيجاني) على (المهمزة) للطابع الانفجاري في صوتها . كما أطلقته على أحرف (أو-ي) للطابع الغوغائي في أصواتها . وبهذا السبب أطلق علماء اللغة عليها مصطلح (الصائنة) تارة و (الجوفية) تارة أخرى . وذلك لقلة تدخل جهاز النطق في إصدار أصواتها ، مما يثبت انتمامها إلى المرحلة اللغوية الفريزية الفاييية .

كما أن الأحرف (الإيمائية التمثيلية) هي أيضاً من مستحاثاتنا اللغوية قد ورثناها عن مرحلة حيالية أقل غوراً في التاريخ وأكثر تطوراً من مرحلة الأحرف (المهيجانية) الفايية . كان أبناء الجزيرة العربية خلال هذه المرحلة يعتمدون في تواصلهم اللغوي بصورة (ارادية) حركات جهاز النطق : (شفة - لسان - فم - فك سفلي - رأس) وما إليها من الحركات الجسمية الارادية الأخرى مترافقه بالضرورة مع الأصوات المساعدة . وبتقسيماتي الأثرية والتاريخية الجيولوجية والدينية والاجتماعية ، قدرت أن هذه المرحلة تتوافق مع الحياة الزراعية التي تزعمتها المرأة العربية في الجزيرة العربية بعد الأول (١٢) ق.م . فتبعدها الرجل ربة للخصب تارة وربة للزراعة والجمال تارات أخرى ، ثم انتقلت عبادتها مع الموجات البشرية التي طردتها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير من الجزيرة العربية منذ الآلف (٩) ق.م إلى المناطق الزراعية المجاورة ألف عام بعد الف . فكان لهذه العبادة طقوسها في الأساطير السومرية والبابلية والمكشانة والفرعونية ، ثم اليونانية وما إليها . وذلك ارثاً أنشروا عن المرحلة الزراعية العربية .

أما ما تبقى من العروض العربية التي تستمد معظم معانيها من خصائصها الصوتية فقد أطلقت عليها مصطلح العروض (الإيحائية) . وهذه العروض تنتمي إلى أرقى مراحل تطور اللغة العربية التي تتوافق مع طبيعة الحياة الرعوية في الجزيرة العربية التي بدأت تقديرها أيضاً منذ الآلف (٩) ق.م . ففي هذه المرحلة اعتمد العربي الراعي الخصائص الصوتية للعرف العربية صرفاً بلا حركات جسمية الاما يقتضيه النطق بها ، وذلك لعدم جدواها عبر المسافات الطويلة وهو يرعى القطبي نهاراً ، ولا عبر الظلام وهو يعرسه ليلاً .

وقد استعاد الرجل المغارب مالك القطبي من المرأة زعامة المجتمع . فكان لأنوثته المقام الأول في الأساطير الأنفة الذكر ، ارثاً ذكور يابن المرحلة الرعوية ، وكان للمرأة فيها المقام الثاني .

وهكذا ، بانطلاقي من خصائص العرف العربي الأصل ، بمعرض البحث عن معاناته الفطرية في الكلمة العربية (الفرع) ، قد اضطررت إلى الصعود مع اللغة العربية ، قسراً عنني ، إلى ما قبل التاريخ ، في رحلة طويلة وشاقة لا تخلو من المخاطر ، للكشف عن خصائص ومعانٍ «العرف» العربية (الهيجانية والإيمائية والإيحائية) على واقع الماجم اللغوـية دامت ثلاثة أعوام ونـيف .

ولكن أين نشأت اللغة العربية وكيف تطورت عبر (التاريخ والطبيعة والمجتمع والنفس) ، حتى استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ؟ .

فكان لا بد لي من الهبوط مما قبل التاريخ مع الإنسان العربي واللغة العربية ، مرحلة حياة بعد مرحلة حتى الإسلام فاقتضاني ذلك جهود قبضة ونصف من الأعوام .

ولقد تبين لي من الدراسة الأصل : «العرف العربي والشخصية العربية» أن المعرف العربي هو أعرق الجذور الثقافية في بنية شخصية الإنسان العربي وأنقاها أصالة وأحوالها لقيمه الجمالية والأنسانية وألواعها الأحكام المقلية وأحفظها لتقاليده الاجتماعية الصنعية واكتشفها بالتعالي عن سمات : «الشخصية العربية» . فكان العرف العربي بخصائصه (الهيجانية والإيمائية والإيحائية) هو (تاريخ) العربي .

□ وختاماً :

لمل القارئ الكريم قد انتبه إلى بعض ما عاننته من المشقة في هذا المقال عن (اصالة العرف العربي وحداثته) . ولقد كان بحكم تشعب جوانبه وتتنوع مسائله كثير المخاطر والمزالق .

وإنه ليسعدني ، لا بل ، و (التمس) من ذوي الاختصاص أن يتفضلوا مشكورين بتوضيب وتصحح أي خطأ يغترون عليه في هذا المقال . وذلك ليس خلصة جلائي لي فحسب (وقد استحقها) ، وإنما قبل ذلك ، خلصة للغة العربية . فخصائصها وحمياتها ورعايتها ، إنما هي مسؤولية ذوي الفيرة والاختصاص من أبنائها ، وليس مسؤولية واحد متعمّس مغامر بمفرداته .

«وقوّة كلّ ذي علم علىِّم» .



المراجع :

- ١ - جدلية العرف العربي وفiziائية الفكر والاداة محمد عتبر ط ١ - ١٩٨٧
- ٢ - المجلد الأول من المؤلفات الكاملة - لزكي الارسوبي ط ٢ - ١٩٨٧
- ٣ - تهذيب المقدمة المنقوية - ميد الله العلالي - تحقيق د. أسعد على ط - ١٩٦٨
- ٤ - الفصائض - أبو لفتح عثمان بن جني ج ٢ ط ٢ القاهرة - ١٩٥٥
- ٥ - المجلد الأول للارسوبي
- ٦ - الفصائض - لابن جني
- ٧ - البلقة في اصول اللغة - محمد صدقي حسن خان - تحقيق محمد نمير مكتبي بيروت - ١٩٨٨
- ٨ - البلقة
- ٩ - تكوين العقل العربي د. احمد عايد الجابري ط ١ - ١٩٨٤
- ١٠ - تكوين العقل العربي
- ١١ - تكوين العقل العربي
- ١٢ - رصف المبني في شرح حروف المانع - احمد عبد النور الملقى - تحقيق احمد الغراط دمشق - ١٩٨٥
- ١٣ - مفتني الليبب عن كتب الاعاريب د. عبداله بن هشام الانصاري - القاهرة
- ١٤ - البلقة
- ١٥ - قاموس احياء الانفاظ - اسامه الطبيبي ج ١ - ١٩٦٧
- ١٦ - تكوين العقل العربي - للجابري
- ١٧ - تكوين العقل العربي - للجابري
- ١٨ - مع نقدة جدلية العرف العربي - محمد عتبر - طباعة على الة الكاتبة ١٩٨٩
- ١٩ - مولد اللغة احمد رضي العاملی - تعليق نزار رضي - بيروت - ١٩٦٨
- ٢٠ - تاريخ علم اللغة - جورج مونین ، ترجمة بدر الدين قاسم ط - ١٩٨١
- ٢١ - نشوء اللغة العربية واتكالها - اكتفالها - انسناس ماري كرملي ط ١ - القاهرة - ١٨٣٨
- ٢٢ - المقدمة المنقوية للعلالي
- ٢٣ - مقامات لغوية د. عبد الحق فاضل
- ٢٤ - تاريخ علم اللغة - جورج مونین . ترجمة بدر الدين قاسم ط ١ - ١٩٨١



سید قریش

رواية بين الواقع التاريخي والواقع الفنـي

عبداللطيف أرناؤوط

العجب أن تعطى صفة رواية (سيد قريش) من أذهان الأجيال العربية اليوم أو تقاد ، مع زوال المرحلة الأدبية التي مثلتها ، فما ان غاب طيف الأدب الرومانسي في أدبنا حتى غاب معه اسم (معروف الأرناؤوط) (*) أو كاد من ضمير المثقف العربي ، والناس يalfون كل جديد ويتعلقون باهدايب العاشر وكانهم يلتفتون الى الماضي باللمع العابر ، ويقتعون عيونهم للحاضر بكل جوارحهم ، وقد فاقتهم أن العاشر ليس الا حلقة من حلقات متواصلة أسهمت في بنائه قيم الماضي وتطلعت كل جيل ، وما من شك في أن معروف الأرناؤوط بادبه الروائي قد أسمهم في تغيير الوعي الوطني والقومي في جماهير الأمة العربية في فترة كانت تواجه فيها الاستعمار الغربي بشتى صنوفه وأشكاله ، واضطاعت روایته / سید قریش / بالعبء الأكبر من تلك الرسالة ، اذ كتبها مؤلفها في فترة النضال الوطني في عام ١٩٢٩ وأهداتها [الى فتیان الشام والعراق والجزيرة ، الذين مشى آباؤهم تحت ظلال قریش الى نواحي العالم لتهذیبه وتعلیمه] .

وقد فطن الأديب الدكتور منير العجلاني الذي قدم للرواية الى الغایات القومية من وراء تأليفها فهو يقول : (وأظن أننا في حاجة الى إثارة النضال بين القديم

(*) ولد معروف الأرناؤوط في مدينة بيروت عام ١٨٩٢ هاجر والده احمد الأرناؤوط من البانيا الى لبنان أيام الحكم العثماني

اهتمام (معروف) بالأدب العربي والتاريخ الإسلامي ٠٠٠ انتقل الى مدينة دمشق ٠٠٠ وعمل في الصحافة ٠٠٠ أصدر جريدة (الاستقلال العربي) ٠٠٠ وانشأ مجلة (العلم العربي) ثم أصدر جريدة (فتن العرب) انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي ٠٠٠ تولى في دمشق في ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٨ ٠

كتب الرواية التاريخية الإسلامية - وترجم العديد من المؤلفات الأدبية ٠

وال الحديث ، حتى ولو لم يكن يفهم الكثيرون ، ما هو القديم وما هو الحديث ، لأن النضال يهز الحياة الساكنة الخامدة ، وحسبنا هذا من النضال)

وأحسن اذ أشار الى التزام كاتبها برسالة التوجيه والتوعية ، يقول :

[أيها الأدباء ، هذه رواية سيد قريش بين يديكم ، فيها عطر وموسيقى ، وفيها عنصر من الشعر تكتبها صاحبها لا ليلعب ولا ليثير منحة الكتابة التي أعطيها ، ولكنه تكتبها كما أنفسانا وأنت بسائق القيام بالواجب ، وليس بسائق البذخ]

شكل رواية (سيد قريش) مَعْلَمًا بارزاً من معالم النتاج الأدبي في الوطن العربي ، فهي حتى يومنا هذا أطول رواية تاريخية صدرت في الأدب العربي ، اذ بلغت صفحاتها (٨٠٧) صفحات حوت عالماً غنياً باللحمات والصور ، وتعليلاً تاريخياً ماتعاً ، وعرضًا لعدد وافر من الشخصيات التاريخية الحقيقة والتخيلة حتى ليتمكن مقارنتها برواية (العرب والسلام) لتوستو من حيث ضخامة العجم ، واتساع الأفق التاريخي ، ولا تكاد الروايات التاريخية التي صدرت بالعربية قبلها أو بعدها تدانىها من حيث الضخامة والفنى .

وضع معروف الأرناؤوط نصب عينيه خمسة حواجز أساسية تشكل بمجملها الدافع لكتابه روايته ، فقد أراد أولاً أن يعرّف الأجيال الصفحات المشرقة من تاريخ الأمة الإسلامية ، ويعرف في النقوس المشاعر القومية التي أيقظت الأجداد لبناء مجدهم ووحدتها ، وجمع كل منها في مواجهة الأعداء ، لكنه لم ينشأ أن يعرض التاريخ ويرده إلى عوامله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . بل آثر أن يكتب التاريخ بروح غنائية غنية بالألوان ، وبنفس ملحمي شاعري يشير الوجودان ويحرك الهمم .

والحافظ الثاني هو ما دفعه إلى كتابة هذه الرواية التاريخية . أن الكاتب قرأ رواية (فلورينته البيزنطية) للكاتب الفرنسي : (رينيه دي سيكونزانك) عن تاريخ العرب في الأندلس . فلمس فيما تشويفاً مريعاً ومسخاً للأحداث التاريخية .

وأما الحافظ الثالث فيتجلى في اختياره حقبة من تاريخ الأمة الإسلامية تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي عاش فيها هو « معروف » قبل الإسلام بمقود كان العرب يمانون من التجزئة والتشتت ويغضبون لدوبيلات عربية تدين بالولاء للفرس والروم ، وقد مزقتهم التجزئة وأذلّهم الجهل والولاء للأجنبي ، ثم شاءت

الأقدار بأن يتوحد شملهم ويتحرك وجدانهم القومي بعد دخول الأحباش الفرباء جزيرة العرب ، واكتساح الفرس سورية، والفرس الذين سموا بالأبناء في اليمن . فكانت هذه الأحداث تمهد لظهور الاسلام وجمع كلمة العرب تحت راية التوحيد ، وكان المجتمع العربي في فترة صدور الرواية يعيش في ظروف مماثلة للظروف التي مرت بها الأمة قبيل الاسلام فهو يعاني من التجزئة والشترذم ، وتضطجع أجزاءه للاستعمار الفرنسي والإنكليزي والإيطالي ، وقد ضرب المستعمرون طوقاً حديدياً على الأدباء ، فما كانوا قادرين على النقد والتصریح ، بل كانوا يؤخذون حتى بالكلمة العابرة أو التلميح ، وكان مصير أكثرهم النفي والسجن ، فوجد معروفاً الأرناؤوط في التاريخ ضالته المنشودة ورأى أن إسقاط أحداث الماضي على الحاضر من شأنه أن يبعث النفوس ويحرك الثورة في الرؤوس دون أن يتعرض للملائحة .

أما العاشر الرابع فيتجلى في تركيز الكاتب على الجيل المهيأ لمغارعة الاستعمار ، فهو في (سيد قريش) يفصل في تصوير الصراع بين جيلين ، جيل متمسك بالقديم مستسلم لواقعه يتمثل بزعماء قريش التقليديين وأصحاب الأموال من تجارها ، وجيل جديد من الشباب المؤمن بالتغيير والثورة يتمثل بشخصية الرسول الكريم وأنصاره من أبناء الشعب ، ولا سيما الفقراء والمساكين ، فلم تكن دعوة الاسلام عند مؤلف الرواية دعوة دينية فحسب ، بل إنها دعوة قومية وحركة نضالية ذات أهداف اجتماعية وسياسية من أبرزها توحيد العرب وتعزيز أرضهم وتجدد قيمهم الاجتماعية والانسانية نهض بها جيل الشباب .

ومما يدخل في هذا الهدف عناية المؤلف بالمرأة وحرصه على إبراز دورها في النضال والثورة ، فليلي الكندية وهند بنت امرئ القيس ومارية النسائية وفاطمة بنت الخطاب وأخريات من صور الكاتب أدوارهن في الدعوة والتعريض ، يمثلن ما يجب أن تضطلع به المرأة العربية اليوم من أعباء المشاركة في التبعات الوطنية ، وقد جعلهن الكاتب قدوة تحتذي بها فتياتنا في عصرنا العاضر .

وأما العاشر الخامس فهو لنوي وتربوبي حرص فيه الكاتب أن يقدم للأجيال نصاً أدبياً حافلاً بالجمال الأدبي والاحساس المذهب الرفيع الذي يسمى بعواطف الجيل ، ويرقى بنفوس أبنائه الى آفاق من الجمال والتهذيب ، ويكون حافزاً للناشئة لتقدير لغتهم وتعلق بها ، وتمكينهم من استخدامها بكفاية في مواقف

التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم ، وهو هدف أصab فيه الكاتب التوفيق ، فمن يقرأ رواية (سيد قريش) يفتني عن قراءة دواوين الشعر ، ويجد فيها من السوان الصياغات والتعابير اللغوية الفنية ما يفتنيه عن الاستعانة بكثير من كتب اللغة ومعجماتها ..

قسم الكاتب روایته الى ثلاثة أجزاء متوازنة الطول ، يقع الجزء الأول من ص ٢ الى ص ٢٠٦ ، ويتناول واقع العرب المتجزئ في فترة حكم المناذرة والفساسة ، ومعاناة العرب من تلك التجزئة في الأرض والعتقد والتفكير ، دون أن يتتجاوز أو يتغاضى عن المقومات القومية التي كانت من عوامل الوحدة ومنها وحدة اللغة والدم والمشاعر . وهو يفضح المعاولات الأجنبية في تفكيرك عربى هذه الوحدة باصطدام العمالء واقامة دول تدين بالتبني للفرس أو للروم ، وما أصab العرب من ويلات بسبب هذا التشرذم .

ويتناول الجزء الثاني من الرواية الذي يقع ما بين صفحة ٢٠٩ الى الصفحة ٤٣٣ الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي أدت الى تقارب وتوحيد عربي فرضه دخول الأحباش مكة ، وطردهم منها على يد البطل سيف بن ذي يزن والتفاف العرب حول عرش المناذرة بعد سجن الفرس ملك العبرة العماني بن المنذر ، واجتياهم الشام وتصفيتهم ملك الفساسة وتدميرهم قصورهم ونشأتهم في بلاد الشام ، ودور الشعراء المتنقلين بين البلاطات في التأليف بين الأطراف المتنازعة ، وأثر الشعر في توحيد المشاعر وجمع الكلمة من خلال الأسواق الأدبية التي كانت تقام في عكا واظ الغيرها . والارهاسات التي مهدت لظهور الدعوة ، وانتظار العرب جميعاً قيام سيد قريش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بدعوته التي ستجمع كلمة العرب وتوحد شملهم .

وفي الجزء الثالث من الرواية (من الصفحة ٤٣٥ الى الصفحة ٨٠٦) يتبع المؤلف مراحل الدعوة معتمداً على كتب السيرة النبوية وغيرها من المصادر ، فيعيد كتابة هذه السيرة بنفسه روائي شاعري محللاً شخصية الرسول الكريم (ص) وطلائع المؤمنين بالاسلام من نصره والتلقوا حوله مستمراً هجرة أنصاره الى الحبشة ومواجهة المشركين من قريش في (أحد) رابطاً الأحداث المتباudeة التي وقعت قبل الدعوة وبعدها في الشام والعراق والجزيرة ، والظروف التي مرت

بامبراطوريتي الروم والفرس بروح المؤرخ الوعي ، وقلم الأديب البليغ ملتزماً
الأمانة التاريخية فيما يعرض من الواقع .

وقد تزود المؤلف بقراءات مستفيدة عن تاريخ الروم والفرس والفساسنة
والمناذرة وحياة العرب في الجاهلية ، وما قدمته كتب السيرة والحديث النبوى من
معلومات عن تلك الفترة . ومن أبرز المصادر التي اعتمدها : الطبقات الكبرى
لابن سعد – كتاب الأصنام لابن الكلبي – المقد الفريد لابن عبد ربه – والطبرى
– دلائل النبوة للبيهقي – والأغانى للأصبهانى – وشعراء الجاهلية والكامل لابن
الأشir وسيرة عمر بن الخطاب ، وتاريخ عمر بن الخطاب وتاريخ أبي الفداء –
سيرة الغلغاء أمراء المؤمنين للسيوطى – بلوغ الأربع للألوسي . ومن المصادر
الأجنبية التي اعتمدها عن تاريخ الروم والفساسنة والفرس ، تاريخ العرب
لسيديو ، وأمراء آل جفنه الفسانيين لنولوكى ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لكوش
دى برسفال ، وملوك لغم لكتيرمون غانو ، وتاريخ العرب للكونت دى ساسي ، وتاريخ
الإمبراطورية العثمانية لفاتحى ، وتاريخ فارس القديمة لكتيمان هيار . ومن
المصادر الحديثة : فجر الإسلام وضعى الإسلام لأحمد أمين .

وقد تقللت الواقعية التاريخية مع الواقع المتخيل في الرواية حتى طفت عليها،
فاكثر شخصيات الرواية لها وجود تاريخي حقيقي بل ان كثيراً من تحراراتها وأحداث
حياتها مستمدة من التاريخ ، كزيارات الشعرا حسان بن ثابت والناابة الدييانى
لدمشق والعبرة ، وزيارة أمرىء القيس للقدسية . أما الأحداث التي أبدعها
الكاتب والشخصيات التي اخترعها محدودة جداً لا تتجاوز ليلى الكندية
الشخصية النسائية البارزة في الرواية . ومارية بنت امرئ القيس من سليلها
ابنة الامبراطور جوستينيان . والكاتب شديد العرص على الأمانة التاريخية، فهو
يثبت المصدر الذي استقى منه الواقعية لتاريخية في ماشن الرواية ، ولا يتجاوز
الواقع لا حين يعمد الى تعليلها من وجهة نظره ، وكثيراً ما يمنح شخصيات الرواية
وعياً وسلوكاً قومياً أو اجتماعياً يتجاوز ثقافة المصر الذي يكتب عنه ، فليلى
الكندية البطلة القومية التي نهضت بدور في تصفيية الوجود الرومي في بلاد العرب
تشارك أيضاً في معركة ذي قار ، وتعطب في الكعبة مبشرة وداعية لسيد قريش
الذى سيوحد شمل العرب بدعوه . وهي كثيراً ما تتعدد بلغة عمرنا العالى

ومفاهيمه التي لم تكن قد بربرت الى الوجود ، وهي تجترح المعيقات والغواصق
فقدود الكتائب في (ذي قار) الى مكة فالعيرة فدمشق ، ولم تكن هند بنت امرئه
القيس أقل منها وعيها قومياً ، فهي تتبع هدفها في الثار لأبيها باصرار وتتحدث عن
وحدة العرب وواقعهم المجزأ . على أن هذه المغالفة التاريخية مقصودة بعد ذاتها
ذلك أن معروف الأرثناووط كان يهدف من وراء تصوير شخصياته التاريخية رسم
المثل الأعلى للأجيال العربية ، وإلياس الشخصيات ثوب العصر الذي يعيش فيه ،
لتكون أقرب الى نفوس قرائه .

وقد أجاد المؤلف في تصميم حبكة الرواية حين ربط التاريخ العربي الجاهلي
منه والاسلامي وأحداثه التي وقعت في دمشق والعجاج والعراقي وحدة متماسكة
تحقق هدفه ، كما ساعدته المصادر فيربط بين الأحداث المتباude في الزمان
والمكان ، فشخصيات الرواية يرتبطون بالساحة العربية بأكثر من رابط مكاني
و زمانى ، ليلى الكندية ترتبط ببلاد العرب برابطة النسب والولاء ، وبين بلاد الروم
برابطة العيش والاستقرار ، وهند تنتسب الى ملوك كندة في اليمن ، وتعيش
في دمشق ، وصلتها بالعاصمة الرومية وثيقة بسبب وجود عمتها ليلى فيها ، وكونها
زوج عمرو بن العارث الفساني ، والمطالبة بدروع أبيها ودهمه المهدور من الروم ،
وأبو سفيان قرضي يزور دمشق لتجارة ، وأمية بن أبي الصلت حجازي المولد
والنسب يرتبط بالشام بديانته النصرانية ، وملوك العيرة تربطهم بدمشق صلة
الخصومة مع الغساسنة وبالعجاج رابطة النسب .

وفي الرواية حقائق تجاوز فيها المؤلف الشائع التاريخي المشهور والمأثور ،
 فهو يجعل جبلة بن الأبيهم يقتل في مواجهة الماذرة حين اكتسحوا بلاد الشام ، ومع
أن المصادر التاريخية تشير الى أنه شهد اليرموك وزار العجاج وأسلم وارتدى عن
الاسلام ، في حين يذهب المؤلف الى أن ملك الفساسنة في تلك الفترة كان شرحبيل
ابن عمرو الفساني بعد جبلة ، ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقرير واقعة
موت جبلة قبل الفتح ، وبالرغم من طنيان الحقائق التاريخية على الرواية ،
وإيهاب المؤلف في تفصيلات تاريخية وردت على لسان الشخصيات تتجاوز
المقتضيات الفنية ، وتسيء اليها الا أنه نجح في خلق العبقة التي أبدعها للرواية ،
فتتساوق الجانب المتخيل مع الواقع التاريخي ، وانسجما في خلق التأثير النفسي

والوجاداني ، وساعد اختيار الشخصيات النسائية الكثيرة في الرواية على منعها جوأً من الرقة والنعومة تمرز ما امتاز به أسلوب الكاتب من نعومة وموسيقاً .

تمتد البيئة الزمانية للرواية من أواخر القرن السادس للميلاد إلى ما بعد هجرة الرسول الكريم بقليل ، وتجري أحداً ثهاف بيئات متعددة منها دمشق ومناطق النمساينة والغيرة عاصمة المناذرة والبلقاء ومكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن العربية كبصرى . وقد مكنت الصلات القومية بين هذه البيئات مؤلف الرواية من أن ينتقل بشغوفها عبر المكان بيسير مستندًا إلى الروايات التاريخية التي تحتل حيًّاً كبيرًا من حياة الشخصيات ، وكانت هذه الأحداث تتجلّى في سلوك أبطال القصة وتحركاتهم ، أو ترد على استنتمهم من خلال الحوار وكثيرًا ما يتحول الحوار إلى سرد تاريخي مسهب يسيء إلى فن الرواية .

وغمد المؤلف إلى رسم الواقع التاريخية التي تمت في زمن واحد بالمارضة بينها في فصول متعدبة يتبدل فيها المكان والحدث دون أن يتبدل الزمان ، ويلجأ أحياناً إلى طريقة الخطف خلفاً فيرجع بالتاريخ إلى الوراء محللاً خلفيات الأحداث ومكوناتها البعيدة فيبطول كلام الشخصيات بصورة مسهبة تتجاوز الشروط الفنية لكن القارئ لا يمل ذلك الإسهاب لمعنى المعلومات التاريخية التي تقدمها الشخصيات ، حتى ليتمكن أن تعمد الرواية مرّجاً مفصلاً للتاريخ العربي في تلك الفترة يتضمن معلومات لا تتوافق في الكتب الأخرى .

ويتتامي العدث الروائي من فصل إلى فصل ببطء بسبب تعدد البيانات والشخصيات ، وإن كان يتتطور من خلال شخصية سيد قريش بطل الرواية الذي رسم الكاتب حياته منذ طفولته حتى هجرته .

وأما عنصر التسويق فيبرز أكثر ما يبرز في الواقع الموهوم أو التخييل الذي ابتدعه الكاتب ، وحشد فيه المفاجآت التي تشذ القارئ وترجيء الحل ، ومع صعوبة تلخيص الرواية ، سأحاول ايجاز أجزائها الثلاثة في العرض الآتي :

- ٩ -

يقد الشاعر حسان بن ثابت إلى دمشق لزيارة الفاسنة من طريق الفروطة ، فيصادف غلاماً يساله عن الطريق إلى دمشق ، فيرشده الغلام ويصاله عن هويته ، فهو من رجال قيسر أو من بطاركة دمشق ، فيبتسم حسان بن ثابت ويعلم أنه شاعر الفاسنة ، وأنه زار

دمشق من قبل في ملك العاشر بن جبلة الراحل والد الملك الفساني العالي المنذر ، ويتابع الشاعر سيره حتى بدت له دمشق في ضوء القمر ، وبرزت له جناتها ونهرها العذب ، فدنا من بيعة منارة ، ومنعه خجله أن يطرق الباب في هزيع الليل المتأخر ، ثم خرج من البيعة شيخ يدب على المصا وقد لفت انتباذه تردد حسان ، فسأله عن حاجته ودعاه للنزول وفتح له باب المهد ، وعاد الراهب إلى حسان يسأله عن اسمه فأنبأه به ، فابتسم الراهب لأن شهرة حسان شاعراً كانت قد بلغت دمشق وحفظ الناس شعره حتى هؤلاء الذين اشتغلوا عليهم الصوامع .

لم يكن حسان وحده في زيارة دمشق ، بل رافقه في رحلته إلى النساينة الشاعر النصراوي أمية بن أبي الصلت ، وعرجاً معاً طريقهما إلى دمشق على بصرى ، وباتا فيهاليلة في / دير بعيرا / .

وشاءت الصادفة أن يلتقي حسان في دمشق زعيم قريش في الجاهلية أبا سفيان ابن حرب فيسلم عليه ، ويبدي أبو سفيان اعجابه بشعره ، ثم يلحظ حسان في عيني أبي سفيان شجعوا فيساله عن سر وجوهه ، فيبدي أبو سفيان آراءه ، فإذا بدرى دمشق تخضع للأجانب ، وملوكها يخدمون قيصر ، فيعلمه حسان أنه زار الراهب بعيرا مع أمية بن أبي الصلت ، فأنباها بظهور نبي عربى كريم يقود الأمة إلى نصر أبيدي ، وأن تيجان الفرباد والعلفان متقطعلم قريباً حين يكتب للعرب التحرر من ربقة الأجنبية ، فيطرأب حسان لما يسمع وتستبد بروحه نشوة من العربية ، ويدرك أن أمية كان يود أن يكون هو ذلك النبي الموعود ، وتبثث فكرة النبي المعموث المنتظر في حسان أفقاً جديداً يتصور فيه أنه سيكون شاعراً لهذا النبي الموعود ، فيعلن إيمانه بالنبي البشر قبل بعثة .

لم تكن الزيارة هي الأولى أو الأخيرة التي يقوم بها أمية بن أبي الصلت لبلاد الشام ، فقد كان دائم السفر إلى الشام ، وثبت الصلة بالرهبان والأديرة . وفي كل مرة كان يحدثه عن اقتراب ظهور النبي الموعود ، فقرر هذه المرة أن يزور الراهب في طريقه إلى دمشق ليثبت منه عن حقيقته ، فلما بلغ بصرى تحول إلى ديرها ذلاف إليه بعيرا وكان شيئاً يدب على المصا ، فسأله أمية :

– ما تحدثني هذه المرة عن النبي المبشر .

فالتفت بعيرا من نافذة الدير حيث الصحراء ، وأشار إلى قافلة تقترب وقال : « حلق طويلاً في هذا الرمل المنبسط ، فإذا نظرت إلى رجال هذه القافلة بذا لك في ذلك الصبي الجيد ذلك التاموس الذي لاح لموسى وعيسي ، لقد ولد النبي . وكان مولده في أشرف القبائل » .

وبدت على أمية علام الدهشة ، فقال له بعيرا :

- فيمِ اجفالك هذا ؟؟ أيرمضك أن ينبت في العجاز هذا النبت المتأرج ؟ يا عجبًا لكم معاشر العرب ، تعيشون في الصحراء المرضعة ، وتتركون مدنسكم للغريب يعصب ما زرعته أيديكم ، ويبني حصنوه وقصوره فوق أرضكم ، وأنتم في صحراء قاحلة لا تدر لبنا ولا تنبت حبًا . فليكن شعرك بعد الآن نعمات عندها تشيد بروائع الفجر الجديد الذي سيظلل نوره عالماً جديداً تفيثون اليه .

وراج أمية يقص ما سمعه من نبا النبي عليه السلام على أبي سفيان في طريق عودتهما مع القافلة إلى العجاز ، فيتمنى أبو سفيان لويرى بغيرا في مصرى ، ليسمع منه ما سمعه أمية ، فيبكي في صباح اليوم التالي وقد بلغا مصرى ، ويسأل الراهب عن حقيقة الأمر ، فيعيد على مسامعه ما كان قد أنبأ به أمية ، ويرجوه لا يتغافل أمام الروم بما سمع ، وقبل أن يودعه أبو سفيان . يقول له الراهب :

« سيخرج من أبنائك ملوك يزيلون الروم عن هذه البلاد ، وسيكون أبناؤك جنداً لهذا النبي العظيم ، ينصرونه إذا قعد الناس عن نصرته » ٠٠

وأنست طبيعة دمشق الساحرة أبا سفيان وحسان وأمية ما فاه بغيرها عن النبي الجديد ، وقد اقتربوا من شاطئ بردى ، فإذا هم يسمعون صوت استفانة يصدر عن امرأة عربية تعرضت لمدوان علج من الروم ، فامتشق الثلاثة سيفونهم وكان الصوت مادراً من أحد القصور المطلة على بردى ، فنثروا على فتاة عربية من كندة تستتجد وقد دهمها القائد الرومي هيباس وجنوده قبل أن تلجم القصر ، يراودها عن شرفها ، فلما سمع وقع حواري الفرسان العرب الثلاثة ، هرب مولياً الأدباء ، ثم يتبين لهم أنها هند بنت امرأة القيس خلتفها أبوها وهو في طريقه إلى القسطنطينية في حماية دمشق ، لتتوسط الفساستنة في استرداد دروع أبيها التي أودعها قبل موته عند السموأل بن عاديا ، ثم أخذها الروم منه ، ويظهر للقوم أن هند بنت امرأة القيس على علم بغير النبي الجديد . فتطلب منهم أن ينطلقوا إلى سطح الكاهن ليعلمهم ببنتها . ويعرض عليها الثلاثة أن ترافقهم إلى مصرى فتعتذر لأنها تريد أن تنتقم من هيباس فتشكوه إلى عامل قيصر ، فإن لم ينتص لها ستلنجا إلى هانئ بن مسعود سيد بنى شيبان .

وفي تلك الليلة ذاتها كان الفتى عمرو بن العارث الفساني الذي يهر جماله المدارى يطارح حبيبته مارية الغرام في قصره المطل على بردى فشفله ذلك عن سماع صوت استفانة هند ، وكانت مارية جارية أهداها قيصر الروم إلى عامله المنذر فاحبها وأخوه عمرو وساح معها أكثر من مرة في بلاد الروم ، وعاشت مارية في قصر البرييس ، وفيما مما يتناجيها في تلك الليلة ، سمعت مارية جلبة ، فأضاء حراس القصر المشاعل فنثروا على أبي سفيان وصحابه ، وأطل عمرو فدعاهم للدخول إلى قصر الفساستنة ، وأكرم وفادتهم ولا سيما أن من بينهم شاعر الفساستنة حسان بن ثابت ، ووكلت عينه على هند فقدر أنها من قريبات هؤلاء العجائزين .

وتقص هند على عمرو بن العارث نبأ النبي المبعوث وما أخبرها به الكاهن سطيف ، فيقول عمرو : ان سطيفاً لجدير بكل ثقة وإنه لا يكذب ، وسالت دموع أمية حين تيقن أنه لن يكون النبي الموعود ، ولم يلحظ أحد حسرته ٠ ويعلم المجلس بحديث الشعر وأخبار أمرىء القيس ، وتترفع هند ظلامتها لعمرو بن العارث وتغبره بما لحقها من هيباس فيطمئنها أن العارث بن جبلة سيفيل هذه الإهانة ولن يطلع صبح الغد على هيباس وهو حي ، وأنه سيشكوه إلى قيصر ، فان لم يعاقبه انتصف لها منه بنفسه ٠ وتدخل مارية فيدخل القوم للتشبه بينها وبين هند ، وتقص هند على الملك المنذر بن العارث قصة دروع أبيها ، فيعرض عليها أن تمكث مع مارية في التصر ريثما يسافر إلى القسطنطينية ، ويعرض الأمر على قيصر ، فتشكره وترجوه أن ينسى نذالة هيباس وألا يلوث يده بدمه الفاسد ٠

ويعود الثلاثة إلى دير ايليا قرب دمشق حيث وفدى إليه بحيرا من بصرى ، فيحسن وفادتهم ويدور حديث طويل عن شعراء العجاز و منهم النابغة وعترة وربيعة بن مقدم ، ويطل الراهب من النافذة فيعلمهم أن النبي ظهر وهو يقترب من بصرى في أحدي القوافل ، ويسألهونه إن كان يؤمن به ، فيجيب : « آمنت به ٠ ٠ ٠ وهو لا يبرح جنبنا في أحشاء أمه » ٠

ويزيل شكوكهم ، فيعلمهم أن سطيفاً يعرف من أمره اليقين وهو مقيم الآن قرب البلقاء ٠

وكان هيباس يترصد أبا سفيان وصحابه بعد تدخلهم تلك الليلة وانقادهم هنداً من مخالفه ، فلما رآهم يدخلون الدير ، دهمهم وصحابه ، فكانت معركة سقط فيها عدد من جنود هيباس ثم بارز أبو سفيان هيباس فطعنه ، وفر الرومي هارباً فالقى بجسمه في ماء النهر ولفظ أنفاسه ، ويتابع الثلاثة طريقهم إلى بصرى قبل انبلاج الصباح ٠

وبينما كانت قوافل أبي سفيان تدخل بصرى ، كان المنذر الملك الفساني يدخل موكيه دمشق عائداً من القسطنطينية ، وقد كان لمصر هيباس صدى مزعج في نفوس الروم ، ومبعد فرح لهنداً ، لأنها أخذت بثأرها منه بسواعد أبناء أمتها العرب ٠ وتمرض مارية ، فيقرر عمرو أن يرحل معها إلى موطنها القسطنطينية

التي زارها أبوها ومات في طريقه إليها . وتقرر مارية أنها ستجمع بين عمر و وهنـدـ وعمتها وليلي تلك المرأة العربية التي كان امرأـ القيس يتردد إليها في عاصمة الرومـ؛ وهي سيدة عريـبة فرضـت احترامـها و مكانتـها على قيسـرـ وأعيـانـ العاصـمةـ . ويدخلـ مـلكـ الفـاسـنةـ فجـأـةـ فيـعـرفـ هـنـدـاـ لـأنـهـ كـانـ قدـ رـاجـعـتهـ منـ قـبـلـ فيـ قـصـةـ الدـرـوـعـ ، وـيـسـأـلـ عنـ حـسـانـ فـيـعـلـمـ أـنـهـ سـافـرـ إـلـىـ الـجـازـ فـيـ غـيـابـهـ ، وـيـخـبـرـهـ عـمـرـ بـقـصـةـ الـاعـتـداءـ عـلـىـ هـنـدـ ، فـيـفـضـبـ وـيـخـشـيـ شـمـاتـ النـعـمـانـ بـنـ الـمـنـذـرـ مـلـكـ الـمـناـذـرـ لـأـنـهـ لـمـ يـعـمـ عـرـضـ فـتـاةـ اـسـتـجـارـتـ بـهـ .

لمـ يـفـادـ حـسـانـ دـمـشـقـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ اـجـتـمـعـ بـصـدـيقـهـ جـبـلـةـ بـنـ أـلـيـهـمـ الـذـيـ جـمـعـهـ بـدـورـهـ بـعـلـقـمـةـ الـفـحلـ وـالـنـايـةـ ، فـكـانـ لـقـاءـ بـيـنـ عـمـالـقـةـ الشـعـرـ تـبـادـلـواـ فـيـهـ القـصـيدـ بـلـاطـ الـفـاسـنةـ ، وـانـصـرـفـ كـلـ مـنـهـمـ إـلـىـ سـبـيلـهـ .

ويـقـرـرـ المـنـذـرـ مـلـكـ الـفـاسـنةـ أـنـ يـخـرـجـ لـقـتـالـ النـعـمـانـ بـنـ الـمـنـذـرـ الـلـخـميـ مـلـكـ الـعـيـرةـ ، فـاتـجـهـ جـيـشـهـ إـلـىـ الـعـرـاقـ بـطـرـيقـ تـدـمـرـ ، وـالـتـقـىـ الـجـيشـانـ ، فـكـانـ مـعـرـكـةـ عـنـيـفةـ خـسـرـ فـيـهـ الـمـنـذـرـ الـفـاسـنةـ ثـلـثـ جـيـشـهـ ، لـكـنهـ اـسـطـعـانـ أـنـ يـاـسـرـ قـاـبـوـسـاـ بـنـ مـلـكـ الـمـناـذـرـ ، قـلـمـاـ مـثـلـ بـيـنـ يـدـيهـ ، قـالـ لـهـ الـمـلـكـ الـأـسـيرـ : إـنـ الـمـلـوكـ لـاـ تـجـزـ نـوـاصـيـهـ فـرـجـاهـ الـمـنـذـرـ أـنـ تـطـوـيـ الثـارـاتـ ، وـيـصـفـوـ الدـمـ الـعـرـبـيـ الـمـرـاقـ ، وـأـطـلـقـ سـراـحـهـ أـمـلاـ أـنـ يـقـبـلـ أـبـوـهـ بـهـدـنـةـ طـوـيـلـةـ بـيـنـ الـخـصـمـينـ .

وتـنـتـهـيـ المـعـرـكـةـ فـيـ الـخـامـسـ عـشـرـ مـنـ حـزـيرـانـ عـامـ ٥٨٠ـ مـ . وـتـبـ دـمـشـقـ كـلـهـاـ لـاستـقـبـالـ الـمـنـذـرـ الـمـنـتـصـرـ ، وـيـمـرـ فـيـ مـقـدـمـةـ جـيـشـهـ بـيـرـقـ تـاجـهـ تـحـ سـماءـ صـافـيـةـ ، وـتـنـهـمـ عـلـيـهـ الـرـياـحـينـ وـالـأـزـهـارـ مـنـ النـاسـ الـمـنـتـشـرـينـ ، لـكـنـ الـمـلـكـ كـانـ حـزـينـاـ ، لـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ رـاضـيـاـ فـيـ أـعـماـقـهـ عـمـاـ اـرـتـكـبـهـ جـنـودـهـ مـنـ قـتـلـ وـنـهـبـ مـضـارـبـ أـهـلـهـ وـقـوـمـهـ وـأـبـانـهـ عـوـمـتـهـ الـمـناـذـرـ ، فـكـانـ ضـمـيرـهـ يـثـقلـهـ ، وـمـاـإـنـ اـجـتـمـعـ بـأـوـلـادـهـ حـتـىـ اـنـهـمـرـتـ دـمـوعـهـ الـمـلـاـ ، ثـمـ آـوـىـ إـلـىـ فـرـاشـهـ وـقـدـ هـدـءـ التـعبـ . لـكـنهـ لـمـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـنـامـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ ، وـأـحـسـ جـبـلـةـ بـقـلـقـ الـمـنـذـرـ فـدـخـلـ إـلـىـ مـعـدـعـهـ وـسـأـلـهـ عـنـ سـبـبـ أـرـقـهـ ، فـصـارـحـ الـمـلـكـ بـأـنـهـ حـزـينـ لـمـ جـرـىـ ، وـأـنـهـ غـيرـ آـمـنـ عـلـىـ نـفـسـهـ مـنـ قـيـصـرـ الـرـومـ جـوـسـتـنـيـانـ ، وـلـاـ سـيـماـ أـنـ طـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـزـورـ الـقـسـطـنـطـنـيـيـةـ ، وـيـصـحـبـ مـعـهـ وـلـدـهـ .

وـفـيـ صـبـاحـ الـيـوـمـ التـالـيـ يـتـوـجـهـ مـوـكـبـ الـمـلـكـ الـفـاسـنـيـ إـلـىـ الـقـسـطـنـطـنـيـيـةـ وـمـعـهـ عـمـرـ وـمـارـيـةـ وـهـنـدـ سـالـكـاـ طـرـيقـ حـمـصـ فـعـلـبـ .

ويمر حسان بن ثابت في طريق عودته بالبقاء ، ويحاول أن يزور الكاهن سطيناً ومعه أمية ، فلا يجدانه في كهفه ، بل يجدان عجوزاً شمطاً تسخر من أمية وادعائه النبوة ، وتعرف أنه المتنبئ ، الكذاب من قروح في وجهه ، ويعلمان منها أن سطيناً في البناء ، فيتباعن طريقهما إليها ويقنان أمام معالمها العربية الأصيلة ، وقد كانت مدينة عظيمة نافست روما ، ويلتقيان فيها قافلة أبي سفيان عائدة من دمشق ، وبعد قليل خرج من المغاربة سطين ومعه شق بن أنمار بن نزار ، وكان ذا يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكان سطين يدرج في ثوب ولا عظم له إلا الجمجمة ، وقد بعث منظرهما الغريب في نفوس الوفدين ، وكانت لهما مكانة عظيمة في النفوس لمعرفيتها الغريبة ودورهما في التحكيم بين الناس والقبائل ، ويتكلمان سطين فيبشر هؤلاء الرعاة من المرب بفجر جديد ونهاية عظيمة ، يقود لواءهانبي عربي عظيم من ولد غالب بن فهر ، فيبكي أمية لأنه لن يكون ذلك النبي ، ويطلب حسان من سطين أن يقرأ له طالعه فينبئه أنه سينال حظوة لدى النبي الجديد ، وسيسعد هو وأولاده بصحته . ويعود الركب في طريقهم إلى العجاز وأمية يردد :

– قتلني سطين !!

وتمرّس قوافل أبي طالب في رحلة أخرى في (blas) قرب دمشق ، وقد اجتمع النصارى في دير العارث لسماع صلاة بغير الراهب الذي يعتكف بعد الصلاة في (blas) . فيذهب أبو طالب لما قبلته ويدعوه بغيرا وصحبه لتناول الفداء ، ويختلف عن الركب طفل في العاشرة من عمره ، طفل يتيم مات أمه فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات جده كفله أبو طالب وأحبه . وكان يرافق القافلة إلى مصرى ، فيطلب بغيرا إحضاره ، ويسأله عن اسمه ، فيعرف أنه يدعى محمدآ . ويتملىء بغيرا طويلاً بقصمات الطفل الهادئ الوادع ، ثم يستبد به ذهول . . . فيقول لأبي طالب :

– ان لابن أخيك هذا لشانا ، وأنه نبي موعد سيدنؤوا إلى ديانة مهذبة ت scl العقل ، وتمحو الوثنية !! وأنه سيعيش مرضطه دايتينا كما عاش عيسى وموسى ، لكن سيدنؤين له العرب . ويفعل الروم والجم .

ويُقبل أبو طالب على ابن أخيه ، فيسأله :

— أسمعت ما قاله بعيرا ٠٠

فيجيب الطفل العظيم : لا تنكر يا عم أنَّ الله قادرته ٠

فيحتضنه أبو طالب ، ويصرخ أنه آمن برسالته قبل بعثة ٠

ويودع أبو طالب بعيرا ، فيعلمه الراهب أنه يشعر باقتراب أجله ، ويرجوه إن لم يجده في رحلته القادمة أن يُصفى إلى نصائح راهب آخر هو (نسطورا) فهو يؤمن برسالة الصبي وسيعوضه ٠

— ٢ —

جلا الأحباش عن اليمن بعد سنتين من ولادة الرسول ، وأقبلت وفود العرب على سيف بن ذي يزن تهنئه بالنصر ٠ وفيها وفود قريش ، وخطب عبد المطلب خطبته المشهورة ، ثم خلا بسيف بن ذي يزن ، فأخبره سيف أنه سيولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، وتكون له الإمامة والزعامة إلى يوم القيمة ٠ فيفرح عبد المطلب لهذه البشرة ويعلمه أن حفيده محمداً عليه السلام فيه كل ما ذكر من علامات ، فيفرح سيف ويرجو عبد المطلب أن يعذر على الصبي من اليهود ، وأنه يجد في الكتاب المنافق والعلم السابق أن يشرب ستكون دار هجرته وبيت نصرته ، وأنه سيتابع رسالته في تحرير العرب من الدخلاء ، بعد أن تهيأت لالجزيرة العربية ظروف مؤاتية.

ومرت أربعة أشهر على رجوع أبي سفيان من الشام إلى مكة ، وقد أخذت مكة تستقبل وفود القبائل استعداداً لسوق عكاظ ، وتباري الشعراء الذين تنبهت مشاعرهم القومية بعد هزيمة الأحباش في عرض قصائدهم في سوق عكاظ ، وأهدى سيف بن ذي يزن إلى الكعبة كسوة فاخرة حملها عبد المطلب في زيارته ، فكان من شأن هذا التلacci أن يوحد كلمة العرب ، ويصفى الأحقاد ، ويقرب بين القبائل ٠ وأهدى النعمان ملك الحيرة مجموعة نفيسة من التحف ، وفي غمرة هذا الحشد العاشر من الناس يبرز ورقة بن نوفل وهو في السبعين من عمره ، فشكر الله الذي منع البيت وظهره من الرجس وترحم على عبد المطلب الذي غيبه الموت ، وهنا العرب بالنصر ، وخطب أبو طالب فمدح ملوك العساسنة والهيرة ، وأظهر دور قريش في حماية البيت وسدانته ، والسهر على أمن العجيج إليه ، وانقضى الموسم فتووجه

ورقة الى سفح الجبل القائم بين مكة وعكاظ ، فأشرف على مكة وطافت في نفسه الغواط فانشى يقول :

– ان هذا الهواء الذي ينبعث نديا سائفا ، يحمل الى نفسى عبق ذلك النبي العظيم الذي سيجيء بعثه منحة من أبهى منعك ايتها الاله القدير ، وان في قبرتك يا رب ان تطبع هذه هذه الصحراء المترمة بعزتها عن العالم جلال الديانة ، وعظمة النبيين الذين يحملون الى الانسان الغريق الغلاصون .

وأتجهت الجموع من مكة الى عكاظ ، وكانت أسماء الشعراء المشاركين في الموسم مكتوبة بالذهب ، ويقبل عنترة وقيس بن زهير وعلقمة بن عبدة وزهير وحسان وعروة والخنساء ، ويجلس شرفاء الوفود من قريش وغسان ولخم وحمير في أماكنهم ، ثم يقبل النابغة حزيناً يتعرّض في مشيته ، ويسأل الناس عنترة عن سر وجوده فيغيرهم بقصة زيارة النابغة لملك العيرة ، ورؤيته زوجته التجربة ، وما قاله فيها من وصف رائع ، وغضب ملك العيرة لصراحته في وصف زوجته . ويلتقي عنترة والنابغة أجمل شعرهما في عكاظ فتعطرب النفوس وتهيج ، وكان الشعر ديانة العرب الوحيدة في الجاهلية التي تهذب النفس وتصقلها .

وبعد هذا الموسم أخذت قريش تسترد مكانتها ، وقد انتصرت على الأحباش ، وكانت قريش تحتل مركزاً تجاريّاً بارزاً في العبرة ، الى جانب مكانتها الاجتماعية والدينية ، ولبشت مكة حرماً مقدساً لا يقتصره عدو مغير .

وفي العقد الأخير من عام ٥٨٠ م . اجتمع سادة قريش في دار عبدالله بن جدعان لدراسة قرار الروم بمنع قوافل العرب من الدخول الى الشام بعد أن ثار أبناء المندر الفساني على الروم بسبب حجز أبيهم في القسطنطينية واستفال المناذرة هذا الخلاف بين الروم والفساسنة وتغلبهم في بلاد الشام ، ودرس المجتمعون الكوارث التي تعيق بالعرب بسبب اقفال حدود الشام ، فيطلب اليهم ورقة بن نوفل أن يخلدوا للسكينة ، وتكلم أبو سفيان الذي أصبح تجارته ، فأبدى مناصره للفساسنة ضد الروم ، وقرر المجتمعون أن يرسلوا وفداً لملك العيرة لوقف الفزو على بلاد الشام .

ويقصد أبو طالب منزله بعد حضور الندوة ، فيضم اليتيم الى صدره وقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، وينظر اليه وهو يضحك ويتفحصه ويركز بصره على

كتبه الذي يحمل خاتم النبوة ، وينذكر طفولته وهو يرعى الغنم . فيتذكرة طفولة موسى وعيسيٰ ثم يخرج من تأملاته وهو أكثر إيماناً بحديث بعيراً ، ويسأله الطفل : إن كان يؤمن بالأنسان ، فيبهرت أبو طالب للسؤال ، وتزداد دهشته حين يقول له الطفل اليتيم : أما أنا فما زلت أمقتها وأجفوها .

وتطول غيبة النعمان ملك الفساسنة في عاصمة الروم ، ويحاول قيصر أن يتزلف إليه ، فيخلع عليه في أول زيارته تاج الملك ورتبة بطريق ، ويتوخى بفضل رسمي في كنيسة آيا صوفيا ، مثلما صانع الروم أباه قبله . وتحضر ليلى العجوز حفل التتويج ، فتسخر من أساليب الروم وسذاجة ملوك الفساسنة الذين يقدمون خدماتهم للأجنبي مقابل عروش من ورق ، فإذا خالفوا مشيئتهم ، كان قتلهم أسهل من قتل ذبابة ، وتنطلق ليلى العجوز إلى الكنيسة إلى شواطئ آسية الجميلة ، وتلتقي هنداً على الشاطئ وكانت تعرفه من ذطفولتها في القسطنطينية ، ثم تتتحول إلى ساحة ابيودروم المقرفة ، ويجوس نظرها بتماثيل القياصرة ، وتستعرض ماضيهما المثقل باللصوصية والجرائم فتهافت على تمثال جوستينيان تضربه بعصاها وتذكر صاحبه بجرائمها وبما ذله ، ثم ترکع أمام تمثال أمراء القيس الذي تحته المثال روزاس فتؤكد له أن ساعة الانتقام آزفة ، ثم تتتحول إلى شوارع العاصمة تتبع عقاقيرها وعطورها ، وتدبر مغامرات العب للعاشقين ، وتمارس سحرها المقبول بين الناس .

وتتحول باحثة عن هند ومارية في غابة القصر . وكانت تتحدى عن حبها لدمشق وحبنיהם إلى بلاد العرب ، وتفضيلهما وطنهما والحياة فيه ، وتحدثها مارية عن ماضيها المجهول ، فقد حملت إلى قصر ايرين ، وقدمت هدية لقيصر وهي ابنة سبع سنوات ، ولما بلغ عمرها عشر سنوات أهدتها قيصر لعمرو بن العارث ، وهي لا تعلم عن ماضيها شيئاً ، ثم تصيبها ألماء اثر دخول عمرو فتطلب بالفرح من عمرو وهند أن يرداها إلى أبيها وأمها ، فيدرك عمرو أنها مشرفة على الموت ، ثم تلتئم هند من عمرو أن يقودها إلى ليلى الساحرة لتسمع حكاية أبيها أمراء القيس ، فيصلان إلى منزلها ، وتصارح ليلى مارية أنها ابنة أمراء القيس من سيلفيا ابنة القيصر جوستينيان فقد أحبتها أمرؤ القيس ، وكانت مارية ثمرة حبها وهي بالتالي أخت هند وان دروع أمراء القيس

ما زالت عند ليلي تحتفظ بها . فتتمنق الأختان هند ومارية ، وتكون مفاجأة لا تتوananها !! فمارية ابنة ملك عظيم وأميرة رومية نبيلة ، وقد شعر جوستينيان بعلاقة امرئ القيس بابنته فدبّرت له زوجة قيصر مقتله بالسم في طريق عودته من بلاد الروم ، وخشي قيصر أن تنشأ الفتاة مارية على حب الانتقام فأوكل الى ليلى تربيتها ، ثم أهداها الى ملك الفساسنة ليبعدها عن عالمه ، أما ابنته سيليفيا فلم تطق فراق طفلتها ومقتل حبيبها امرئ القيس فدفنت حتى ماتت .

وتودع ليلى عمرها وهنداً ومارية وتخبرهم بالخطر الذي يهدّد المنذر لأن قيصر قرر احتجازه بسبب تهاونه مع المناذرة ، وتذكر لهم أن مأساة امرئ القيس ستتكرر في شخص المنذر .

وفي قصر جوستينيان كان المنذر يجادل قيصر ملك الروم وقد أخذ ملك الروم يلوم المنذر على تقاعسه في معاربة المناذرة والفرس ، ويدركه بأغلاط آباه ، ويتهمه بالتواطؤ في قتل القائد هيباس ولم يضعف المنذر أمامه بل ذكره أيضاً بقدر قياصرة الروم وقلة وفائهم بمبادئ الحلف ، واستغلالهم الصداقه لمصلحتهم ، وفي تلك الفترة تلّج ليلى القصر وقد تطور الجدال الى مشادة ، شعر قيصر بعدها بالتوزع ، وأطفئت أنوار القصر بفتحة بتدير من ليلى ، فلجاً قيصر الى سريره ، وقد استطاعت ليلى أن تسکر حرسه ، وتطلب ليلى من المنذر أن ينجو بجلده لأن قيصر بيّت له الشر ، فيخرج ومعه هند وعمرو ومارية التي كانت في النزاع الأخير ، ويمتنطي وصحبه زورقاً هاربين من العاصمة ، وتقرب ليلى من سرير قيصر ، وتزعم أنها جلبت له دواء مسكنًا يهدىء قلقه ، فتدس له السم من مستحضر جلبه من كهف الحياة ، فيصيّبها من الجنون ، وامتنطت ليلى زورقاً الى قصر تيودوس لا يقاظ حرس غسان النiam ، فيفرون بدورهم عن طريق الغليظ .

واستفاق الناس صبيحة اليوم الثاني ليسمعوا بجنون سيدهم قيصر دون أن يعرفوا له سبباً ، وتسود الفوضى في الجيش والكنيسة والدولة ، ويصبح البطريرك طبياريوس وصيّاً على العرش ، وكان مكروراً من الناس ، وأما المنذر فيستقر على الحدود حيث يتلقى نباً وفاة مارية ويواسي عمروأ ويعبره بما فعلت ليلى ، ثم يتم دفن جثة مارية ، ويودع الملك المساني وصحبه البيت المنزل ، ويمضون في طريقهم الى الشام وقد بلغت مسامعهم بعثة النبي .



واجتمع مجلس الشيوخ الروماني ، فنادى بطبياريوس قيصراً جديداً ، وامر باعتقال البطريرك ملاتيوس وكان محبوأ من الرعية ، وبعد قليل أعلن قصر الامبراطورة ايرين نباً سوت جوستينيان الثاني ، وكانت هذه الأحداث المتلاحقة نقطة البداية في تصدع امبراطورية روما .

قضى المندر أول ليلة من سفره في / ايبينون / في سوريا ، ثم توجه الى الشام والفرح يعم الأرجاء بعودته سالماً ، ويمر بسكانه حيث دفن آباءه في غوطة دمشق ، وقد هدأ عناء السفر وعجز الشيفوخة والمرض . وفي شدة مرضه يقرر عقد زواج أخيه عمرو من هند بنت امرئ القيس ، ويبارك لهما . وأما ليلي فتقرر السفر الى العجاز للبحث عن « سيد قريش » هذا النبي العظيم الذي ملأت أخباره الآفاق . وما كاد القسم ينادرون المندر حتى ثقل عليه المرض فأسلم الروح في نهاية عام ٥٨٠ م . وكان وفديريش في طريقه الى العيرة يتلمس من ملكها عقد سلم طويل مع غسان ، فارتضى النعمان ذلك ، وفرح الناس لهذا التقارب والتالق في حياة شعب واحدأخذ يحس ب حاجته الى تضامن وثيق يدفع عنه أذى الروم والفرس .

* * *

- ٣ -

اجتمع مشركو قريش في دار الندوة ، لينتظروا بأمر محمد صلوات الله عليه بعد أن ظهرت دعوته ، وكانوا قد قدموا الى أبي طالب عمه فقالوا له : ان ابن أخيك قد عاب علينا ، وسفته أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فانهه عنا ، أو خلّ بيننا وبينه .

فلم يفعل ، وتأخر عن الدعوة ورقة بن نوفل ، ثم أقبل على القوم فندد ب موقفهم ، وتدخل ليلي الكندية على القوم ، فتسأل عن سيد قريش ، وتنكر على القوم معارضتهم دعوة النبي صلوات الله عليه وفيها حرية العرب وسيادتهم ، ويتحول القوم الى دار أبي طالب ، فيشكرون اليه ذهاب هيبتهم بعد أن تجرأ الفقراء الذين آمنوا بدعاة الرسول على أشرف قريش ودينهم ، ويرفض أبو طالب التخلص عن ابن أخيه ، فيصيغون به : لقد زهدك ابن أخيك في دين آبائك ، وانصرفوا عنه حاتقين .

و تدرك خديجة أن محمدًا ﷺ نبى هذه الأمة ، وقد أكد لها ورقة بن نوفل و ميسرة ما ثبتت هذه النبوة ، ولتحت علاماتها البينة في ملامح الرسول ، فأرسلت جاريتها نفيسة بنت عليه تعرض عليه الزواج ، فخطبها الرسول الكريم ، وشهد على ذلك صناديد قريش ..

ورفض أبو طالب أن يسلم محمداً ﷺ لعارضي دعوه من القرشيين والتمس منه أن يتتحول عن دعوته ، فقال له : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسارِي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ..

و كان سيد قريش يعتزل الناس في غار حراء كل سنة شهراً ، ثم يعود إلى بيته ، فيطوف حول الكعبة سبعاً ، ثم يدفع على المساكين فيطعمهم ، غير أنه منذ صيف ٦١ م صدف عن مخالطة العالم ، و اعتزل أسبوعاً عديدة قضاه في الصوم والعبادة حتى ظهر له جبريل ، فقصص على زوجته ما رأه ، ثم ظهر له ثانية في بيته ، وفي المرة الثالثة تراءى له في السابع عشر من رمضان « ١٣ شباط ٦١ » في غار حراء ، وأمره أن يقرأ و كان يجهل القراءة ، فضمه ضمة شديدة .. وقال له :

[- اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علمَ الإنسان ما لم يعلم ..]

ويستفيق الرسول ﷺ من غيبوبته ويترامي النبأ إلى ورقة بن نوفل .. ثم يتواتي الوحي على محمد ﷺ فتؤمن خديجة برسالته ، ثم يؤمن على بن أبي طالب فزير بن حارثة .. و طافت ليلي الكندية حتى بلنت الكعبة ، فخطب الناس ، ونددت باستيلاء الفرس على الحيرة ، ومطاردتهم الفاسنة ، وزحفهم إلى أراضي غسان ، وأهابت بالمربي أن تجتمع كلمتهم لنصرة الدين الجديد الذي ينقذ بلادهم من ربة الأجنبي .. وتفعل كلماتها في نفوسهم فعل السحر ، فيلتمسون من ورقة أن يدلهم على بيت سيد قريش ، ليذهبوا إليه ، ويؤمن أبو بكر ، فتتعزز بآيمانه الدعوة ، ثم يؤمن عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفارى وسعيد بن زيد المدوى وزوجة فاطمة بنت الخطاب وأبو سلمه ابن عبد الله المخزومي ..

ويplibit الرسول ﷺ ثلاث سنوات يدعو للدين الجديد سراً في بيوت القراء

والمساكين حتى التحق بالدعوة خلق كثير ، ويعد القريشيون صلات مع الفرس لتوثيق تجارتهم بعد اكتساحهم الشام وانتصارهم على الروم ، ويؤسي المسلمين لانتصار الفرس ، وتتسع الدعوة فتتجاوز مكة ، ويقرر الرسول ﷺ أن يدعو بنبي عبدالمطلب عشيرته الأقربين إلى الدين الجديد ، فيتحولوا عن عبادة الأصنام . وبسبب ضغط الفرس على بلاد الشام ، اضطر قيصر روما فوكاسي أن يصلح الفساستة ، وأقام عمرو بن العارث ملكاً على البلقاء وبصري وفلسطين ، ولكن الفرس اجتاحوا سوريا وطrodوا أمراء الفساستة ، وقتلوا عمراً وجبلة بن الأبيه . وكانت آنباء الدعوة الجديدة قد بلغت دمشق ، ولم يكن أهلها أقل تعاطفاً مع الدعوة بسبب ما عانوه من آلام ومحن بسبب صراع الروم والفرس . كذلك لم يكن أهل العراق أقل حماسة لها بعد أن زحزح الفرس التuman عن العيرة ، وعينوا عليهم عميلاً لهم يدعى اياس بن قبيصة .

ودعا الرسول ﷺ بنى عبدالمطلب إلى طعام في بيته ، وبعد أن شبعوا خطب فيهم قائلاً :

[يا بنى عبدالمطلب ، انى ما اعلم شاباً في العرب جاءكم بالفضل مما جنتكم به ، قد جنتكم بغير الدنيا والأخرة ، وقد امرني الله ان ادعوكم اليه ، فايكم يؤازدني على هذا الأمر يكون أخي وصاحبى] .

ولم ترقهم لهجته ، فضحكوا منه ، فما ثناه ضحکهم .

وسار حتى بلغ الصفا على جبل أبي قبيس ، ورأى الفرصة سانحة ، فاستند إلى عصاه ، وصاح بقريش ، فاجتمعت كلها ، ودعا قومه للإيمان فأنكر عليه أبو لهب دعوته ، وجا به والشر يقطر في عينيه فعماه عمه أبو طالب ، وأبدى اصراره على نصرته .

وتجمع قريش كلها في دار أبي طالب ، ويقول أبو طالب لسيد قريش : أي ابن أخي .. هؤلاء مشينة قومك .. وقد سألكم أن تكف عن شتم آلهم ، ويدعونكم والهك ..

فيقول السيد : أي عم .. أولاً ادعوهم إلى ما هو خير لهم منها .. كلمة يقولونها تدين لهم العرب بها ، ويملكون رقاب العجم ..

قال أبو جهل : ما هي ،
قال : تقولون لا إله إلا الله .
فنفروا وقالوا : سلنا غير هذه .

فقال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سالتكم غيرها .

وخرج القوم مغضبين ، وراحوا يتآمرون على سيد العالم ، ورأوا قبل أن يصارحوه بعدهم أن يوفدوا له وفداً مؤلماً من كبارهم . لكن الوفد اصطدم بورقة بن نوفل الذي ردهم إلى منازلهم .

ويمر ورقة بن نوفل بعمار بن ياسر مشدوداً إلى صخرة مقيداً بأمرأس ، فيسأله عنمن فعل به هذا !! فيعلمه أن جماعة المشركين من قريش قتلت آباء وأمه وقيادته تحت حر الشمس ، ثم يبدو لورقة وليلي الكندية أن بعض القرشيين يسوقون جماعة من المؤمنين الفقراء وقد أخنثتهم الجراح ، وبينهم بلا العيش فينزعون عن بلا لباسه ، وينهالون عليه بالضرب الموجع ، ويقيدونه بصخرة فوق صدره .. وهم يرددون : هكذا تموت أو تُكفر بِمُحَمَّدٍ وتعبد اللات والعزى .. وهو أشد ما يكون صبراً وجلاً ، فيحرره ويُسأله عمار عن الرسول ، فيقول له ورقة :

ـ انه يرسم بدماء الشهداء حدود العالم الجديد الذي سيخرج اليه عما قريب .

ويخطب الوليد بن المغيرة في الكعبة ، فيطلب من مشركي قريش أن يجمعوا أمرهم ، ويوحدوا موقفهم من الرسول (ص) . فيتهمه أبو جهل بالخروج عن دين آبائه بعد أن وصف لهم ما سمعه من الرسول (ص) :

(اني سمعت قوله ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا بالكهانة) .

ويمر عمر بن الخطاب ، فيطلب منه أبو جهل أن ينطلق إلى بيت أخته التي أسلمت مع زوجها ، وتركت دين الآباء ، فيتجهم وجه عمر ويصم على الذهاب إلى منزلها بعد أن شاع أمر اسلامها . ويلج منزلها ، فيدلل منه صفارها بعد أن سمع ترثيلهم القرآن من الخارج ، ويسائل صغيرهم عين علمه النشيد فيخبره أنها

أمه وأنها علمته أموراً كثيرة : منها الدعاء إلى الله له بالتوفيق ، وفيما هو يبتسم للصفار يدخل زوج أخته سعيد بن زيد العدوبي ، فيوبخه على التعلل عن دينه . ويدخلان معًا إلى فاطمة بنت الخطاب وقد انتبذت ناحية من حجرتها تقرأ سورة طه بصوت رقيق ، فأشجعى عمر صوتها ، وأخذته بلاعة ما سمع ، وأرهبها مقدمه ، وراح يلومها على ما سمع من الناس عن إسلامها ، ثم انتزع الكتاب منها فطلبت منه أن يتوضأ قبل أن يمسه ، وتوضأ عمر وراح يقرأ سورة وما أن أتمها حتى طلب منها أن تدله على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسلم على يديه ، ثم يلتج دار ورقة ابن توقل وقد ثقل عليه المرض ، فيقصص على ورقة قصة إسلامه ، فيشرق جبين ورقة بضياء الفرج ويقول :

— كان سيد العالم يقول : « اللهم أعزّ الإسلام بأحب الرجالين إليك ، عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام » .

ويتكلم ورقة ، فيتأمل أن تكون الفتوح على يد عمر وتحت راية سيد قريش ، ثم يلطف ورقة روحه بعد ماضٍ مشرق بالإيمان ، فيحزن الناس لوفاته ، ويشيعون جثمانه من الكعبة .

وخرج الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عزلته بعد إسلام عمر . فقد عمر وحمزة جموع المؤمنين إلى الكعبة ، فطافوا بالأصنام والتماثيل فعبثا بها . فلما رأى غطاريف قريش ما فعلوا ، مضوا إلى أبي طالب يطالبوه بتسليم ابن أخيه ، وتأمر المشركون على قتل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولكنهم تراجعوا بعد أن هددتهم أبو طالب ففرقوا .

وثار أناس من قريش بين آمن من قبائلهم فعدبوهم وسببوهم وفتنهوا عن دينهم ، فدعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحبه وقال لهم : تفرقوا في الأرض ..
فقالوا : أين نذهب ..

فقال : ها هنا .. وأشار بيده إلى أرض العبشة ، وكانت أحب البلاد إلى نفسه ، فخرج أصحابه منسلين ، وكانوا الأحد عشر رجلاً وأربعين نسوة ، فركبوا سفينتين للتجار أقلتهما إلى العبشة حيث الأمان والسلام .

ويموت أبو طالب بعد شهور ، فيأسى لموته سيد قريش ، وتموت خديجة بنت خوبيل بعد موته بثلاثة أيام ، وتنمر المشركون ، فخرج الرسول من مكة حتى لا تلعق به خيل قريش ، ثم تحوال إلى الطائف ، وأقام في عكاظ خلال الموسم يدعو الناس إلى رسالته ، وفيما كان يخطب في الناس مرة أغري به السفهاء والعيid فراحوا يسبونه ويرمونه بالعجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وزيد بن حارثة يدفع عنه وهو يردد : اللهم إليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس ..

فينتصر له شيخان من شيوخ قريش هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة . ولم يمنعه شيء من متابعة رسالته السامية فانطلق مهاجراً إلى يثرب ، وبلغ المؤمنين من يثرب نباء خروجه من مكة والطائف ، فعادوا بيوتهم ونزلوا في القراءة ينتظرون أن يوافيهم فيها ، واعترضه الأنصار كلٌّ يدعوه إلى داره ، ويمسك بزمام ناقته ، فيسألهم أن يخلوا سبيلها فإنها مأمورة ، وتبرك الناقة حيال دار مالك بن النجار فنزل الرسول عنها .. وقال : هذا المنزل ان شاء الله .. وأشارت هجرته إلى المدينة ذكريات الماضي في نفسه ، فذكر أبويه وذرف الدموع .

وفي دمشق ، كانت هند بنت أمير القيس قد تحولت إلى العبادة بعد مصرع زوجها عمرو في المعارك التي اقتحم فيها الفرس سوريا ، وقد انزلت في قصر مارية في ضواحي / منين / بغوطة دمشق ، وكانت تتالم لأنهيار الفساستة وحرق الفرس قصورهم وآثارهم في سوريا ، ويبلغ مسامعها ظهور النبي وانتشار الدعوة ، فتفتح أذ حان اليوم الذي ستثار فيه لأبيها وزوجها وأهلها من الفرس والروم ، وترتبط وهي في غمرة فرحها بشرحبيل بن عمرو الفسستي الذي قاد كتائب الفساستة وطرد الفرس من سوريا متعاوناً مع الروم ، ولم يسعدها النصر لأنها كانت تؤثر أن يكون نصراً عربياً خالصاً .

ويغادر أمية بن أبي الصلت الجذيرة إلى دمشق ، ويأوي إلى منسك / دارس / معزولاً عن العالم ، وقد خاب أمله في أن يكوننبي العرب .

وتعتاز ليلي الكندية الصحرااء ، فتصل إلى دمشق وقد هدَّا الضفتان والعجز فكانت كالشبح ، وتستقبل جموع المسلمين في عيد الفصح ، لكنها كانت تصلي

في أعماقها لسيد قريش ، ثم تتحول إلى قبور أحبائهما فتناجي قبر عمرو بن العارث الفساني . وتقول : سيرى الذين يمرون بي في هذه اللحظة أنني لم أحمل إلى دمشق بقايا العالم المتهدم ، بل سيرون أنني جئت إليهم بالعالم الجديد ، عالم سيد قريش !!

وفي قصر شرحبيل بن عمرو الفساني ، كان النابغة الذبياني وحسان دأبو سفيان يزورون القصر ، وقد أخبرتهم هند أن عمتها ليلي اشتراك في معركة ذي قار ، وأن أخبارها انقطعت منذ زمن بعيد ،

ويتحدث أبو سفيان عن الرسول عليه ودخوله مكة وتحطيمه الأصنام وارساله الرسل إلى ملوك الروم والفرس يدعوهما إلى الإيمان ، فنفرح هند بأخبار سيد قريش ، ثم يدخل حنظله القائد الفساني الذي شارك في معارك ذي قار ، فيعلم هند أن فارساً ينتظرها ، وما أعظم دهشتها حين رأت عمتها ليلي .. !! وتتحدث العمة طويلاً عن نصر العرب في ذي قار ثم يتبعين أنها قاتلت كتائب كنده في هذه المعركة الظافرة ، فتسعد هند لبطولات عمتها وتبكي فرحاً . وتعانق تلك المرأة المظليمة التي ناضلت من أجل مجد العرب وعزّة كنده .

وتخرج المرأة إلى روايي جبل / سنير / فتشرفان على دمشق الخالدة ، وتلتقت ليلي إلى ناحية الصحراء ، ثم تقول :

[- اترى إلى هذه الرمال الوردية التي تتراوئ من الأفق البعيد ؟ من هذه الرمال سيخرج الشعب العربي إلى نواحي العالم ، ليبني المدن والصروح والمعابد تحت راية سيد قريش !!]

★ ★ ★

هذه خلاصة موجزة عن الرواية ، ولا يخفى أن الإيجاز لا يعكس جمال صياغة الكاتب ، وتحليله المسهب لشخصياتها ، ونقله أحاسيس كل شخصية ومشاعرها بعبارة وصدق حتى ليتمكن أن تُعدّ / سيد قريش / قطعة غنائية ، كتبت بنشر يقترب كثيراً من الشعر ، وتميزادها جمالاً اهتمام الكاتب بوصف الطبيعة والبيئات . . مثل المقطع التالي الذي يصف فيه الطبيعة في ضواحي دمشق . . يقول :

[٠٠] كانت الشمس في تلك الغداة تستريح في أحضان الشفق من تعب وسام ، وقد اشفت على الموت ، وأخذت أنوارها تخبو وتذوب في روعة العbial الهاجعة الوضناء ، كان عروس السماء تستعيّب هذا النزع الذي يصاحبها العشية بين ذراعي الطبيعة [٠]

على أن رومانسيّة معروفة الأرناؤوط وعواطفه الدافقة واحساسه المرهف وغنائطيّة البارزة في التعبير ، ونزعته إلى تمجيد الألم شأن شعراء الرومانسيّة ، كانت إطاراً ناجحاً شديداً الانسجام مع أحداث الرواية المأساوية ، فكل شخصية من شخصياتها البارزة يقتبس بالألم ، وتنتفع روحة من ينبوعه الدافق .

عمرو بن العارث الغائب في حبه الأول بعد موت مارية ، وهند بنت عمرو الفتاة اليتيمة التي أجهدها طلب الثأر لأبيها ، وليلى الكندية التي عانت وتشردت وشقيت لتصل إلى طموحها القومي ، ومارية بنت أمرئ القيس التي كانت ثمرة علاقة غير شرعية ، وقد دفعت حياتها ثمناً لآلامها وتفرّجها . وأمية بن أبي الصلت الذي جاهد من أجل أن يكون نبياً فما قدرت الأقدار لأخلامه أن تتحقق ، وسيد قريش الذي كانت حياته وحياة طلائع المؤمنين به سلسلة من المذاباب المتواصل لبلوغ الهدف .

هذه الآلام الفردية تتساوق كلها للتخلق جواً درامياً في الرواية ، ما يليث أن تخفف من حدته الانتصارات الفردية التي ينالها كل من هذه الشخصيات . غير أن الآلام والأفراح الفردية في الرواية تلتقي مما ، لتعصب كلها في ألم واحد هو معاناة الشعب العربي ، ثم تتحول إلى فرج جماعي واحد بانتصار الدعوة واسترداد الشعب حريته وكرامته تحت قيادة النبي محمد بن عبد الله [٢] .

فالرواية دراماً تنتهي نهاية مفرحة يطمنن لها القارئ ، ومن ذلك يتبيّن أن ابداعية معروفة الأرناؤوط لم تكن ابداعية تفرد وعزلة وألم وتشاؤم . إنها ابداعية ايجابية متفتحة على الجماعة تسعى للبناء ، وتلتقي في أبعادها مع الشعر الابداعي الحديث في فترة التحرر الوطني والقومي ، وهو شعر رسم فيه الشعراء آلامهم الفردية لكنهم لم يتخلوا عن التعبير عن آلام أمتهم وقضاياها التحررية .

دمشق : عبداللطيف أرناؤوط

طائر ليمان عليه السلام الهدُّهُدُّ

ناديَة الغزي

- من صوت المهدُّد الريبي : هو - بو - بوب HOU - POU - POUP .
انطلقت سمية المهدُّد في اللغات العالمية :
الاسم في اللغة اللاتينية : UPupa EPOPS .
الاسم في اللغة الفرنسية : HUPPE - FASCIE .
الاسم في اللغة الانكليزية : HOOPOE او HOOPOO .
ذلك استعملت اللغة العربية نفس الخارج الصوتية في التسمية : المهدُّد .

* * *

ورد ذكر المهدُّد في القرآن الكريم في سورة النمل .
بسم الله الرحمن الرحيم :

« وتفقد الطير فقال ما لي لا ارى المهدُّد ام كان من الغائبين » .
(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم :

« اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانتظر ماذا يرجعون » .
(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم :

« يا ايها الناس علمنا من علق الطير واوتيانا من كل شيء إن هذا فهو الفضل المبين » .
(صدق الله العظيم)

* * *



هو طائر سليمان عليه السلام .. النبي الذي علم منطق الطير !
 هو طائر سليمان .. هو الغائب الذي تفقده النبي العظيم وصال عنه ! وتوعده ان
 لم ياته بذكر سلطان مبين .
 هو الهدّهـد ؛ الذي جاء من سبا مملكة بلقيس ، بنيا يقين ، وهو الذي كلام سليمان
 عليه السلام كذلك كلامه النبي الذي يفهم منطق الطير .

* * *

هو طائر الهدّهـد المخطط الموشى .
 طائر الحكمة .. وطائر الصوفية ..
 الطائر ذو الاطوار الغريبة .

وصف الهدّهـد :

- طائر طوله بين ٢٥ - ٢٦ سم ، وزنه بين ٥٠ - ٨٠ غ .
- طائر رائع المظهر .
- أما الريش فمتباين بين الأنثى والذكر ، كذلك ريش الفرج مسائل لريش أبويه .
- لكن الأنثى أرشق .. ولوانها أقل بهجة من اللوان الذكر .
- فوق رأس الهدّهـد(غرنة) تسميتها العرب (قنزعة) ذات اللوان برتقالية تدرج حتى تصيب سوداء في نهايتها .
- أما الريش فمزهـر مخلوط مع ريش رمادي وأسود .
- والريش الأسود يتتحول في فصل الخريف إلى لونبني داكن .
- والهدّهـد ، طائر مبهر .. وهذا الإبهار ينبع عن جمال ريشه الأسود المقلع بالأبيض في الجناحين وفي الذيل .

حركة الهدّهـد وطيرانه :

يلجا طائر الهدّهـد إلى حركات غريبة أثناء الطيران .. وله أطوار اغرب أثناء هذا التحويم .. وهذا ما جعل الناس في القرون الوسطى في أوروبا ، ينسبون إلى الهدّهـد أعمال السحر .

الهدّهـد في العمارت القديمة :

يملك الهدّهـد هيكلًا أنيقا طريفا لا مثيل له .. ولقد أذهل هذا الهيكل الإنسان منذ قدم الإنسانية ..



- فقد شوهدت أشكال الهماده محفورة على جدران المعابد في مصر واليونان .
- كذلك حفر الفراعنة على توابيتهم أشكال هذا الطائر الجميل .
- وتعتبر الهماده من المعمرات في الوصايا العشر .
- والهماده كان يعتبر نجساً بالنسبة للعبانيين .

لتصرفات :

مما لا شك فيه أن تصرفات الهماده غريبة وشاذة . . . ولم يعرف السبب في هذا الانصراف وهذا الشذوذ إلى يومنا هذا .

فتلوين الريش :

يجعل الطائر يسر دون أن يلحظه الكثير من الطيور والحيوان . . .
يس و هذه الخفة في المروء والاختفاء سببها السعي لحافظة الهماده على سلامته .

والطيران الغريب :

الذي يكون على شكل عقبات ، مثير للدهشة فعلاً .
فالهماده لا يرفع جناحيه أثناء الطيران أكثر من الوضعية الأفقية ، ليبقى الهماده سراً ولا يتبعو إلى طائر مرفق . . .
وبشكل فجائي ، يتبدل طيران الهماده (القفزى) نحو اتجاه آخر وبشكل آخر !! .
ويحدث كل شيء بسرعة وبديهية مما يجعل الهماده بجناحيه الأفقيين يبدو أقرب إلى الأسطورة . . .

القنزعة أثناء الوقوف والطيران :

الوقوف: عندما يقف الهماده ، تعود القنزعة فتنتصب على رأسه بعد أن كانت مائلة ، ثم ترجع إلى وضعية الاسترخاء .

الطيران : تعيل القنزعة نحو الخلف . . . لكنها تنتصب أحياناً عند الطيران . . . فتجعل من الهماده طائراً محيراً سرياً .

الراحه : أما إذا كانت الهماده مستريحة فأنها تطوي (قنزعتها) التي ترتكز فوق رأسها .
النوم : وأثناء النوم . . . تحتفظ بها كما هي مطوية على راسها . . . ويبدو آخرها متلبياً فوق المنقار . . .

الذنب : يبدو ذنب الهماده المنفوج طويلاً . . . لكنه أثناء الطيران ، يبدو قصيراً بالمقارنة مع العناجين الطويلين الفارعين .

المنقار : فإذا وقفت الطائر الموسى رأينا له منقاراً طويلاً مقوساً .. يضفي على
هيئته الكثير من السحر والغرابة ..

الهبوط : فإذا خط الهدهد على الأرض ، فبهدوء .. وقبل أن يستقر تماماً فوق
الأرض ، يتراجع قليلاً في الهواء ثم يقف : فيغلق ريش جناحيه ، ويطوي
قنزعته .. ويصبح أصغر بكثير مما كان يبدو أثناء الطيران .. ويظهر هذا
التغيير فجائياً ، مما يذهل الناظر إليه ..

التجول : فإذا تجول للبحث عن غذائه ، فبتشاقل طوباوي محير .. ثم يمضي بشكل
غير مرئي مما يثير العجب ..
وكانه لا يخاف ..
كانه لا يخدع ..

الخدمة : بلى .. يخدع الطائر أثناء طيرانه فقط ..
أي أثناء التوجه والحركة والانطلاق وقلة التركيز ..

الفداء :

- يحب الهدهد الحشرات الكبيرة ، والهوام من أمثال العقارب والمرادين الصغيرة ..
- وأنثاء بعثها عن اليساريع ، تبدو الهداهـ وهي تحفر الأرض بمنقارها الذي يساعدـها
ـ كما تساعدـها جسمـتها القوية المـظام ..
ـ كذلك فـكـاهـا التـويـانـ ، القـادـدانـ عـلـى التـغلـبـ وـعـلـى مـطـعنـ بعضـ الـاحـجـارـ فـي الـأـرـضـ
ـ لـتـحـصـلـ فـي النـهـاـيـةـ عـلـى (ـالـيـرـقـانـ) أـيـ (ـالـيـسـرـوـعـ) الـذـي يـشـكـلـ الـفـنـاءـ الرـئـيـسيـ
ـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـاـ ..

طريقة أخرى في التقاط الطعام :

يلجاـ الهـدـهـدـ السـاحـرـ إـلـى رـفـعـ فـرـيـسـتـهـ فـيـ الـهـوـاءـ .. ثـمـ يـتـلقـفـهاـ بـمـنـقارـهـ ، وـالـظـاهـرـ
ـ أـنـ الطـائـرـ مـضـطـرـ إـلـى اللـجوـءـ إـلـى هـذـاـ التـصـرـفـ لـأـنـ لـسانـهـ قـصـيرـ جـداـ ..
ـ وـقـدـيـماـ لـمـ يـكـونـواـ يـعـرـفـونـ آلـيـةـ هـذـاـ الـالـتـقـاطـ وـسـبـبـ ، لـذـاـ كـانـواـ يـعـتـبرـونـ هـذـهـ
ـ التـصـرـفـاتـ حـرـكـاتـ اـسـتـمـراـضـيةـ مـدـرـوـسـةـ يـقـومـ لـهـدـهـدـ بـهـاـ لـيـسـعـ غـيرـهـ ..
ـ وـالـمـحـظـوظـ مـنـ النـاسـ .. مـنـ شـاهـدـ هـدـهـدـاـ يـقـومـ بـالـعـابـهـ وـاـسـتـمـراـضـاتـهـ أـثـنـاءـ تـقـديـمـ
ـ وـاهـدـاءـ الـفـنـاءـ لـأـثـنـاءـ وـأـفـارـاخـ ..
ـ وـمـاـ أـجـمـلـهـ حـامـلاـ الـيـسـارـيـعـ .. وـالـعـنـكـبـوتـ .. وـالـبـزـاقـ إـلـىـ صـفـارـهـ ..

صوت الْهَدْهُدْ :

هو صوت ناعم ورتب .

ليس رخيمـاً .. لكنه يسمع من بعيد ..

هو صوت فتـره سليمـان عليه السلام ، سمعـه وفهمـه من هـدـهـدـه و هو يـبـثـهـ باـمـرـ مـلـكـةـ سـيـاـ ، و بـسـلـكـةـ المـلـكـةـ ..



ولقد أجمع الواصفون .. أن الْهَدْهُدْ طائر رائع غير قابل للوصـف لشـدةـ جـمالـهـ .



- قـيلـ : الـهـدـهـدـ طـائـرـ نـتنـ !!

فـهـلـ الـهـدـهـدـ طـائـرـ قـنـزـرـ فـعـلـاـ !!

قال العـلامـةـ ذـكـرـيـاـ التـزوـيـنـيـ فيـ كـتـابـهـ «ـ عـجـائـبـ الـمـلـوـقـاتـ وـغـرـائـبـ الـمـوـجـودـاتـ »
عن الـهـدـهـدـ :

- الـهـدـهـدـ طـائـرـ نـتنـ الرـائـعـةـ .

- وـهـوـ يـلـطـاخـ عـشـهـ بـرـجـيـعـ الـإـنـسـانـ ، فـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ نـتنـ مـنـهـ !

- وـتـرـاهـ فـيـ الـرـبـيـعـ «ـ فـاتـحـاـ فـاءـ » يـعـرـجـ الذـبـابـ مـنـ حـلـقـهـ وـيـطـيرـ .

- وـكـلـ مـكـانـ بـهـ الـهـدـهـدـ لـاـ يـوـجـدـ بـهـ حـشـرـ «ـ الـأـرـضـةـ » .

- فـاـذـاـ مـرـضـ الـهـدـهـدـ يـاـكـلـ الـمـقـارـبـ الـجـبـلـيـةـ يـزـوـلـ مـرـضـهـ .

- وـتـمـتـقـدـ الـرـبـ «ـ أـنـ قـنـزـعـتـهـ تـمـلـقـ عـلـىـ مـنـ بـهـ وـجـعـ فـيـ رـاسـهـ فـيـبـراـ .

قال الجـاحـظـ فـيـ كـتـابـ الـعـيـوانـ :

الـعـربـ وـالـأـعـرـابـ كـانـواـ يـزـعـمـونـ أـنـ الـقـنـزـعـةـ الـتـيـ عـلـىـ رـأـسـ الـهـدـهـدـ ، ثـوابـ مـنـ اللهـ
تعـالـىـ عـلـىـ مـاـ كـانـ مـنـ بـرـهـ لـأـمـمـ مـلـاـ مـاتـتـ .. جـمـلـ قـبـرـهـ عـلـىـ رـأـسـ فـهـدـهـ الـقـنـزـعـةـ عـوضـ
عـنـ تـلـكـ الـوـهـدـةـ .

وـالـهـدـهـدـ طـائـرـ نـتنـ الـرـبـيـعـ وـالـبـدـنـ مـنـ جـوـهـرـهـ وـذـاتـهـ .. فـرـبـ شـيـءـ يـكـونـ مـنـتـنـاـ مـنـ
نـفـسـهـ مـنـ غـيرـ عـرـضـ يـعـرـضـ لـهـ ، كـالـتـيـوسـ وـالـعـيـانـ وـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ أـجـنـاسـ الـعـيـوانـ ..
أـمـاـ الـعـربـ فـتـجـيـلـ الـقـنـزـعـ شـيـئـاـ خـامـرـ الـهـدـهـدـ لـسـبـبـ تـلـكـ «ـ الـجـيـفـةـ »ـ الـتـيـ كـانـتـ مـدـفـوـتـةـ فـيـ
رـأسـهـ ..

وـيـزـعـمـونـ أـنـ الـهـدـهـدـ هوـ الـذـيـ كـانـ يـدـلـ سـلـيـمانـ عـلـىـ السـلـامـ عـلـىـ مـوـاضـعـ الـمـاءـ فـيـ قـعـورـ
الـأـرـضـيـنـ اـذـ أـرـادـ اـسـتـنبـاطـ شـيـءـ مـنـهـ .

ويروون عن نجدة العروري ، ونافع بن الأزرق أنها قالا عن ابن عباس : إنك تقول عن **الهَدْهُد** اذا نقر الأرض ، عرف مسافة ما بينه وبين الماء !! والهَدْهُد لا يبصر الفخ دوين التراب حتى اذا نقر الشمرة ، انضم عليه الفخ !!

فقال لها ابن عباس : اذا جاء القدر .. عمي البصر .

وقد عنى ابن عباس **هَدْهُد سليمان** عليه السلام بعينه ، فان القول فيه ، خلاف القول في سائر **الهَدَاهِيد** .

وقال الجاحظ أيضاً :

الهَدْهُد يطلب الزبل المشه .. حتى اذا وجد منه نقله كما تنقل الأرض من التراب .. وبني بيتأ كما تبني الأرضية وفيه غائط ..

فإذا طال مكوثه في هذا البيت ، وفيه أيضاً ولد .. وفي مثله تربى ، ويدنه ينمو بتلك الرائحة .. وأخلق به أن يورث ابنه النتن الذي علقه ، لذلك يكون ممتنا !! ..

★ ★ ★

وفي الحيوان :

ليس من المستحب قتل **الهَدْهُد** ولا تقتلوا **الهَدْهُد** فإنه كان دليل سليمان عليه السلام إلى قرب الماء وبعده .. وأحبه أن يعبد الله ولا يُشرك به شيئاً في أقطار الأرض ..

★ ★ ★

طائر الصوفية :

عمد الفلسفة المسلمين الصوفيون الى الاستقطابات الرمزية الفلسفية والروحية للنفس والروح وما وراء الطبيعة ، فاستمروا لها الحال الطير .. وانطلاقاته .. وتوجهاته ، بل ربما اختفاء في الأفق المجهول أيضاً ..

ومن أشهر المؤلفات في التصوف ، والذي أدرجت فيه الاستقطابات الرمزية على الطير كتاب : « منطق الطير » لفريد الدين النيسابوري المطّار ..

وأعلام التصوف الفارسي ثلاثة على التوالى :

سنانى الفزنوى - فريد الدين المطّار - جلال الدين الرومي .

والمعطار اسمه : محمد ، ولقبه : فريد الدين ، وينسب : الى نيسابور ، وكنيته : المعطار : توفي عن ثمانين عاماً في الفترة بين ٦٠٥ - ٥٩٠ هجرية ، وتاريخ وفاته غير محدد تماماً .

★ ★ ★

يتحدث المطرار عن القناء التام ورؤيه الخالق بعيون الزوال .
والفناء الصوفي ، هو الذي توارى فيه الارادة والشخصية والشعور بالذات .. وكل
ما سوى الخالق .

والفناء الصوفي يعني القناء السلبي والبقاء الايجابي [كالفناء عن العاصي] .
ومن يعيش عالم الغيب ، فهذا هو العشق الحق .. الغلي من كل غيب ..

* * *

يرد الهدى على البليل وهو يتباها بعشق الوردة فيقول :
« يا من تعلقت بالصورة .. لا تتباها اكثر من ذلك بعشق الجميل ، فمشق الجميل
شيء مآل الزوال .. يصيب العاقل بالضجر والملل » .
ويرد الهدى على العجلة وهي تتباه غروراً بتعلتها بالجواهر :
« فإذا زالت الألوان عن الجوهر عاد حبراً لا قيمة له » .
ويعبّر المطرار بواسطة الهدى عن تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا .

* * *

اما الطائر الرئيس ، فهو طائر غير معروف في تسميات الطيور العادية .. رمز اليه
بكلمة (سيمرغ) وتعني رقم « الثلاثين » في اللغة الفارسية .
والطير الباقي ، تجتمع بأسمائها العادية ، ذات الرموز ، في طريق الصوفية ، لتجده
نحو « السيمرغ » التي نعمتها البعض بلفظة « المنتاء » المستحبلة .
وأشهر طيور الصوفية هو :

الهدى : هو الدليل وهادي الطريق .. ومرشد كل واد .. وصاحب أمرار سليمان
والحافظ لها ، والمكبل الشيطان .. الزاج به في السجن [والشيطان رمز الشر الموجود في
النفس] ..
ويرمز بالهدى الى ارادة التغيير .

حديث الهدى مع الطيور في طلب السيمرغ^(١) :

اجتمعت طيور الدنيا جميمها ، ما كان منها معروفاً وما هو غير معروف وقالوا جميعاً:
في هنا المصر وذاك الأوان ، لا تخلو مدينة قط من سلطان ، فكيف يخلو أهلينا من ملك ،
وأئشى لنا أن نقطع طريقتنا أكثر من هذا بلا ملك ؟ ربما لو يساعد بعضنا البعض ، لتمكننا
من السعي ..

(١) كتاب « منطق الطير » للمطرار .

سارع الكل الى الاجتماع والبحث عن ملك أو عن سلطان . . فا قبل المهدى مضطرباً
للكثرة الانتظار . . اقبل بين الجم لا يقر له قرار . . جاء مرتدياً على صدره « حلقة
الطريقة » ، جاء وقد علا مفرقه تاج الحقيقة . . جاء وقد خير الطريق . . جاء بعد أن
اطلع على ماضيه من قبيح ورشيق قال :

أيتها الطير اني بلا ريب مرید الحضرة ورسول النبی . . جئت منزداً من الحضرة
بالمرفة . . جئت وقد فطرت أن أكون صاحب أمراء ، ومن نقش اسم الله على منقاره ليس
بعيد أن يدرك المزيد من الأسرار . . اني أعيش نهب هموه زمناً طويلاً ، ولا صلة لي بایي
انسان . . اذ . . عندما أكون مشغولاً بالام الملك ، لا يمكن أن يصبني من الجند اي الالم .
أني تحدثت مع سليمان كثيراً . . فلا جرم أن أكون مقدماً على خيله ، فان غبت عنه
لحظة . . أرسل من يطلبني في كل مكان . . وهو لا يصبر عن برهة . . فحسب المهدى
إلى الابد هذه المنزلة . . انفع . .
« اشروا الأرواح وسروا في الطريق . . وامضوا قدماً نحو تلك الاعتاب » .

★ ★ ★

تصرفات المهدى وطبائعه :

مشت المَهَادِهِدِ غير مرئية مما أثار العجب .
مرأت بحيث لا يلحظها أحد من حيوان أو طير أو بشر . .
ثم طارت . . غريبة الأطوار طارت . . بهيكلها الموشّى وجناحها الكبير المقلّم . .
فيبدت . . فراشات . . كبيرة . . هائلة . .
انطلقت طير بقفزات وعقبات في السماء الزرقاء . . وبدت تدور في دورات متزاوجة .
لتقطع هذه الدورات بهبوط مفاجيء . . غير متوقع .
بين حين وحين . .
هبوط عمودي . . لا يستطيع أحد تكهنه . .
ولا يفسره سوى هو المهدى .

★ ★ ★

فاما حطثت المَهَادِهِدِ على الأرض وتراجعت . .
واما رمت قرائتها في الهواء والتقطت . .
واما غيرت طبائعها بين فترة وأخرى . .
ولربما غيرت طبعها حسب طباع المعطيين بها .



فهي مرأة حنرة .. ومرأة طيّعة ..
 وهي (أحياناً) تشق بالانسان فتتركه يقترب منها .
 ولكن .. الى مدى مقبول .. فالهداهيد لا تخدع ..
 الا أثئام طيرانها الشاعري المحبول بالقرابة ..
 اذا حكت الهداهيد وطارت .. فهو السحر .. والجمال ، والانبهار .

* * *

والعلم الحديث .. يعتبر أن تصرفات الهداهيد دون شك غريبة وشاذة .. لا تفسير لها ولا مزاج الطائر الجميل .

فاما دعوة ناقوس الخطر :

فإن ذلك يجعل الهداهيد يتغذى وضمية معينة ! ..
 يتسمّر بلا حراك وهو على الأرض .. ويطوي الذيل والجناحين ..
 يريد الهداهيد بذلك أن يقلّص حجمه ..
 ورأسه يصبح مرميّا نحو الخلف ..
 والمنقار يصبح مرفوعا إلى الأعلى .. حماية وتحفزا ،
 حتى .. يزول الخطر ..

التهيّؤات :

والغريب .. أن الخطر قد يكون [أحياناً] متغيلاً [تابعاً] لزاج الهداهيد !!
 فهل للهداهيد تهيّؤات؟ .. هل يهلوس الهداهيد !!
 أم أنه يرى ما لا ترى الطيور؟ !!!.

يسمع أصوات الماضي والحضارات .. ولمل .. يسمع صوت سليمان هاماً منذ
 السعيق في الأجراءات !!! ..

* * *

الطائر الانفرادي :

وحيدا .. فريداً من نوعه .. يطير الهداهيد ، ويبدو وحيدا ..
 ولا يشاهد بشكل رفوف أو قططمان الا في الصيف ..
 حين تشكل الهداهيد عائلات صغيرة .. وتتلطّق مع أفرادها في السماء ..

فاما وقفت العشيرة الهدّمية على الارض سارت الهداده وهي تجع برأسها كالحبل
و اذا طارت .. طارت بصمت .. ودون انتظام ..
والهدّم الوحيد .. طار أيضاً وذهب بصمت ..
ومضى يتلذب في طبقات الهواء حسب هواه ..
على قمم الاشجار :

وفي الاماسي العلوة .. يتمركز طائر سليمان على قمم الاشجار ..
يراقب ؟.. يشاهد ؟.. يعلم ؟.. يستنبط ؟..
لا أحد يعلم !

ويصادر حجمه بعد وقوفه بعد ان يفلق جناحيه وينطلق على (ذاته)
مؤكداً لا أهميته أمام الذات الكبرى ..
والاشجار تتغول مرحباً .. بطائر الصوفية !

* * *

المقارنة بين ما ذكره القزويني والجاحظ وبين المعلومات الموسوعية الحديثة :
هل الهدّم طائر نتن قذر ٩٩
ورد في موسوعة الالروس المعجمية :
عش الهدّم قذر جداً ..
تختلط فيه رائحة هذه الطيور مع رائحة الرجيع والتربيل ..
والعش يكون في حفرة أو صخرة دون شيء من الزخرفة والتزييق الفني
لكنه من الممكن أيضاً أن تبيّن الأنثى مباشرة على الأرض أو الخشب ..
في هذا المش تبيّن الأنثى من ٥ - ٨ بيضات تكون مدهونة بالفائد طيلة المدة ،
من قبل الأم ..
وقد يعيش الهدّم في أعشاش غيره شرط أن لا يكون العش أعلى من ٣-٤ أمتار ..
والبيض طويل غير لامع .. مخضر قليلاً أو مسمر ..
وفي نقاط بيضاء في بعض الأحيان ..

حضرن البيض :

ويهتم الذكر بالأنثى .. فهو يحضرن في البداية لأن الأنثى تكون (متعبة) من التبييض ثم تتمرر كثر الأنثى وتحضرن وحدتها .. ويكون الذكر مشغولاً طيلة الوقت في احضار الغذاء ، فيذهب من ثمانين إلى عشر مرات ليحضر اليساريع .

وفي كل مرة يصل فيها إلى العش .. يمد رأسه نحو اليفته ويضرب منقارها بمنقاره .. قبل أن يعطيها الغذاء ..

هي تعية المهدى !!

* * *

نعود لنتسامل عن قول القزويني قبل ثمانية عام: في أن المهدى طائر قدر نتن !!.

القول الفصل :

لا يعتبر المهدى طائراً قدرًا بعد ذاته وعلى الدوام ! ..

لكن الأم تطلي بيوضها فعلاً بالفائق .

وتكون منه في العش تكويماً .

وبعد التفقيس ، تبقى الأفراح شهراً كاملاً في العش .. حتى تكتسي أجسامها بالريش المشابه لريش أبوها .. وأثناء هذا الشهر تكون بين القاذورات والرجيع : لكن أجسامها تتخلص تدريجياً ، من نتن ، له رائحة خاصة تذكر باللعم المتفسّن [الجيفة] .

وهذه الرائحة ناتجة عن غدة خاصة هي «المفده الزمكيه» ، وهي غدد شحمية عند عجز الطائر ، يحمي افرازها ريشه ، وتكون غير مستعملة في هذه السن .

والأنثى :

تفرز نفس الافرازات في كل مدة تبيّضها وحضانتها .

والهدايم .. تتخلص تدريجياً بعد الطيران والانطلاق ، من هذه الرائحة .

لكن ذلك لا يعني أن الأنثى لا تهتم بنظافة العش !!

التعاون :

ففي كل مرة .. وبمساعدة الذكر ، تقوم الأنثى بتنحية الفضلات الفائطلية كلها ، فقط ، في حال صفر العش وضيقه ، وفي حال كثرة الأفراح الذين يعيشون متراصين ، تكون عملية تنظيف المكان بالنسبة إليها صعبة للغاية ، فتتجمع الأقدار ليتحول العش إلى وكر أسن .

طريقة غريبة في دفاع الأفراح عن نفسها :

اذا وصل خطراً ما الى العش :

فإن الأفراح ترمي بنفسها على مسافة الفضلات الفائعلية .

وهذا التصرف الدفاعي المترافق بالصغير .

يلطخ الأفراح بالستان والرجيمع .

* * *

طفولة غريبة .. للهداهيد الغريبة !! وطريقة أغرب في الدفاع عن النفس .

* * *

المقارنة :

١ - المعلومات واحدة .. فمن المؤكد وجود النستان ورجيع الانسان في عش الهُدَهُد ، وقد فسر العلم وجود الرجيع كخطبة دفاعية لحفظ النوع . كما فسر وجود الروانج البشعة بافرازات الفدة الزمكية .

ويحق لنا أن نتساءل : لماذا هو الرجيع بالذات ؟!

الآن الرايحة التي تعتبر من أقبع الروائح ، جعلت الهُدَهُد لشدة ذكائه وحرسه على أفراخه يستدل على « حكم خطبة دفاعية » !!!

وقد كانت هذه الخطبة مستعملة إبان العرب العالمية الأولى .. اذ كان المتحاربون يتراسقون بالغازات الغازنة .. وقد استعملت هذه الخطبة ، ضمن ما استعملت في سوريا .. وكانت العامة تدعى هذا الغاز : (الغاز المغنىق) .

* * *

وعلى أي حال .. فإن لجوء الهُدَهُد إلى الرجيع لصيانته نسله ، لم يبرره المسلم بعد !! ولعله ، يبقى سراً من أسرار الهداهيد !!

٢ - يفتح الهُدَهُد فمه في الربيع فعلاً .. لكن .. لتلقيث الذباب

اما أن تخرج الحشرات من حلقة .. فلملعلها كانت كثيرة العدد في المعهد البعيد أيام العر .. فإذا تلقيث الهُدَهُد عدداً كبيراً منها .. ازداد البعض .. ونجا البعض هارباً .. وهذا لا ينافق مقوله العلامة زكريا القزويني .

٣ - لا شك أن الهُدَهُد يتنبىء بالحشرات .. وطعامه الأثير من المسوام هو المقارب والحرادين الصغيرة .. وهذا ما ذكرته موسوعة (اللاروس) الفرنسية عن الهداهيد . ولا شك .. أن العرب .. شامتوا الهداهيد وهي تتنبىء بالمقارب ، وهذا يؤكد الحقيقة

البيتية المحكمة في الحفاظ على التوازن . . . فكل مخلوق ، مسخ ، يشكل أو يآخر ، وغريزياً لتعزيز بقائه ، وللحد من التكاثر الشديد لمخلوق معين آخر .

أما العرب . . . فقد ظلت أن الهداء تتداوى بالمقارب . . . لسمية المقارب . . . ولعل في رأي العرب وجهاً نظر لم يفسرها القديامي !! .

٤ - أما ذكر الباحث ، عن شفاء الآلام الرئيسية بواسطة وضع قنزة الهداء على الرأس !! فذلك ناشئ عن الأسطورة التي أوردها في كتابه « العيون » وقد سبق الكلام عنها في البحث . . . وتتلخص في أن الهداء حمل قبر أمه على رأسه فأثابه الله تعالى بهذه القنزة الجميلة فوق رأسه .

لذا . . . اعتبرت العرب ، قنزة الهداء ، طريقة للشفاء من آلام الرأس .

* * *

وعينا التذكير بأن المعتقدات الغريبة في المصوّر الوسطى ، كانت تؤمن باستخلاص بعض المواد الشافية من جسم الهداء . . . تستعملها بواسطة النقع والغلي ، لتنقية الذاكرة . . . ولعدة البصر .

وبذلك . . . يلتقي الشرق والغرب في أهمية استخلاص البiss من بعض أعضاء الهداء لشفاء آلام [الرأس] .

هو طائر الصوفية .

وهذه واحد بين الهداء : هو طائر سليمان عليه السلام . . .

هو طائر الفرابية !

هو الطائر الجميل المبهر ، الرائع .

الغريب الأطوار . . . المضطرب التحليق .

نادية الغزي

* * *

□ مصادر البحث :

- | | |
|--|---------------------------------|
| عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات | للعلامة زكريا القزويني . |
| العيون | للباحث . |
| منطق الطير | لبهاء الدين التيسابوري العطار . |
| اللاروس المجمعي - قسم الطيور - موسوعة العيون | اللاروس . |
| طيور أوروبا وفرنسا | فرديناند ثانان . |

اللغة العربية والأصطلاح العلمي

د. وليد سراج*

تنتمي اللغة العربية الى مجموعة اللغات السامية ، التي تضم ايضاً الكنعانية والفينيقية والعبرية والأرامية والنبطية والبابلية والسريانية والعشبية . وقد اندرست غالبية تلك اللغات ولم يبق منها سوى آثار ورسوم على الأحجار والجلود ، أما اللغة العربية فعاشت وبقيت ولا تزال تنتشر ، بل وتتوسع ، في بقاع من الأرض عديدة .

القرآن واللغة العربية

شك أن السر في أسباب خلود العربية وبقائها إنما يكمن في القرآن الكريم ، الذي حفظها بحفظه من قبل الرحمن ، كما في سورة العجر/٩ [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ مَا نَحْنُ بِهِ أَعْلَمُ] ، ومنعها مرارة كبيرة ومقدرة عظيمة على التعبير عن مختلف المعاني الطارئة في حياة الناس . الأمر الذي أدى الى أن تتسع العربية للكمية هائلة من الاصطلاحات والاستعمالات الجديدة بسرعة فائقة ، وجل هذه الاصطلاحات كلمات عربية أعطيت معانٍ جديدة . وبذلك تلوّنت الألفاظ بدلاليات مختلفة في فكر أو علم ، وهذا خير دليل على أنها قادرة على مواجهة أسرع الظروف وأعمدها والتتحقق عليها .

زد على ذلك أن الإسلام جعل تعلم اللغة العربية جزءاً من أجزائه ، لا يمكن إسلام المرء الا به ، بل لا تصح المباداة – كالصلوة مثلاً – الا بتلاوة القرآن بلسان عربي مبين . فضلاً عن كون القرآن المرجع والميزان الثابت لقياس نحو اللغة العربية وصرفها ؛ فاجماع العلماء

(*) خبير الأعلام العربي لدى المركز الدولي للبيعوث الزراعية في المناطق الجافة . ص: ب ٥٤٦٦ ، حلب – سوريا .

معقود على أن ما خالق نحو القرآن أو قواعده - من الناحية اللغوية أو البلاغية - مردود لأنه كلام رديء . وهذا سر قوة اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية ، التي تتدادي مدارسها النحوية العديدة بضرورة لا يخطئ النحو كلام الناس ، لأن معيار صحة الكلام عندها هو الشيوع على الألسنة ، سواء أختلف كلاماً قدماً أم لم يخالف . وهذا يفسر سهولة فهمنا نحن العرب لكلام أجدادنا حتى في فترة ما قبل الإسلام ، بينما لا يستطيع الأوروبيون أن يفهموا ما كتب في لغاتهم قبل ٤٠٠ سنة فقط إلا بجهد جيد ، وبالاستعارة بالقواميس لعل غموض اللغة ، التي يأتوا يطلقون عليها اسم «الكلاسيكية» أو «القديمة» نظراً لتفثير أساليبها وقواعدها . والأمر ليس كذلك بالنسبة لغة العربية ، التي لا يمكن أن تتضمن إلى لغة «كلاسيكية» وأخرى «عصيرية» ، بل هي لغة فصحي تتكلماها ويتكلّمها جميع الناطقين بها ، وأن كانت هناك لهجات محلية أو عالمية في البلدان العربية .

اللغة العربية لغة العلم

لا تكون اللغة علمية حتى تستوعب علم وفكّر الأمة ، وتتمكن الناطقين بها منأخذ العلم واستنفاثته ، ثم تمثله والإبداع فيه ، لذا يجب أن تتوفر فيها شروط ، أهمها : الوضوح ، وسلامة البنية اللغوي ، والإيجاز ، والقصد إلى حقيقة الأمور ، وعدم المبالغة الكبيرة بالشكل ، والنظمية ، والشمولية ، إضافة إلى وحدة المفهوم التركيبية للجملة العلمية . والحقيقة أن اللغة العربية تمتلك كل هذه التخصائص وغيرها بأوضح ما يكون ؛ فهناك اتصال وثيق بينها وبين الطبيعة ، وبينها وبين المجتمع ، كما أن للعرف العربي رمزيته ودلائله ومعناه ، ولللغة عموماً سماتها الاشت察افية التي تتميز بل تنفرد بها عن سائر اللغات الماضية والعاشرة منها بلغة انتشارها . وفي العربية أيضاً تتميّز ميّاناً اللقط الواحد ، وتتمدد كذلك المترافقـاتـ للمـعـنـىـ الـواـحـدـ ، ولديها من الامكـانـاتـ التـضـادـ والاعـرابـ والتـعـويـضـ والتـقـدـيمـ والتـاخـيرـ ، ووضـوحـ وسهـولةـ النـطقـ ، والاقتـصادـ والإـيجـازـ ، والنـدوـ والـعرـكـيةـ .

تأثير العربية في مختلف اللغات العالمية

أثرت اللغة العربية في مختلف اللغات العالمية وتأثرت بها ، شأنها في ذلك كشأن أي كان حي يؤثر ويتأثر بالوسط المحيط . ويؤكد البحث العلمي أن مفردات جمة عربية قد غزت قواميس لغات عالمية عديدة ، في الوقت الذي أخذت فيه العربية عن لغات أخرى . أي أنها تفاعلت - ولا تزال تتفاعل - مع غيرها بایتجابية مشرة .

فيما يخص الانكليزية مثلاً يقدر العطليب^(١) وجود ٣٠٠٠ كلمة عربية إسلامية في معاجم اللغة الانكليزية ، مضافاً إليها خمسة آلاف كلمة مشتقة من الكلمات الأصلية . ويكتفي للدلالة على ذلك مثلاً أن تفتح على الصفحة ١٠٤٩ من قاموس Webster's Third New International Dictionary الشهير الصادر عام ١٩٧١ في الولايات المتحدة الأمريكية ، لترى في المودع الأيمن فقط كلمتين عربيتين ، هما: حَجَّرِي ، هِجْرَة (=Hejira) .



وأما تأثير اللغة العربية في اللغة الألمانية فان المستشرفة هونكه^(٢) قد اتبعت فهارس كتابها المقليم « شمس العرب تسطع على الغرب » بملحق ضم أكثر من ٢٥٠ كلمة عربية بعضها مشترك مع قائمة ببير جيرو الفرنسية . وظهر في ميونيخ قاموس صغير للالانفاظ الألمانية من أصل عربي ، وضمه الدكتور نبيل عثمان وتناول فيه بالشرح ٣٠٠ كلمة أصلها عربي^(٣) . والشيء نفسه يقال بالنسبة الى لغات أخرى، مثل : الفرنسية ، الإيطالية ، البرتغالية ، والاسبانية التي لا يزال حوالي ١٧٪ من المفردات فيها عربية .

وكان تأثير اللغة العربية في اللغات الشرقية أكبر وأعمق أثراً؛ فقد قدر آبييك^(٤) عدد المفردات العربية بنحو نصف محتويات القاموس الاندونيسي ، وترواحت نسبة الكلمات العربية في بعض الكتب الفارسية^(٥) ما بين ٥٪ - ٨٠٪ . وحتى في العصر الحديث لم تسلم اللغة التركية من دخول الكثير من المفردات أو المقاطع اللغوية العربية اليها ، مثل : قهوجي ومكوجي وكتبغانة^(٦) .

تأثير العربية بغيرها من اللغات الأخرى

تضارع اللغات بعضها مع بعض كما تتصارع الكائنات الحية تماماً؛ وتكون حصيلة ذلك إما غلبة، أو انهزاماً، أو تمازجاً واقتراداً بين اللغتين . وتتوقف حدة ذلك على عوامل كثيرة، أهمها: درجة اختلاط الشعوبين، الفاري والمنزد، وحضارتهما كل منهما ، وطبيعة اللغة . وقد تخرج اللغتان بعد الصراع دون غالب أو مغلوب ، بل تعيشان معاً جنباً إلى جنب .

إن عملية الاقتراء أو الاستعمار اللغوية مهمة ومفيدة ، لأنها تفيد اللغة المقترضة وتفنيها . فاللغة العربية حين اتصل بها قديماً بالثقافات المجاورة، واحتكرها بشعوبها دخلتها الفاظ من لغاتها . ففي الجاهلية أخذ العرب عن الفارسية الفاظاً كثيرة ، مثل : ابريق ، سندس ، ديباج ، نرجس ، سلسيل . ومن الهندية أخذوا : فلفل ، قرنفل ، كافور ، وشطرونج . ومن السريانية: كنيسة ، كهنوت ، ناقوس ، وفنان . ومن اليونانية أخذوا : فردوس ، قسطاس ، قنطر ، وتریاک . ومن العبرية : توراة ، يه ، أسباط ، وجهنم . ومن العبشية أخذوا : نجاشي ، تابوت ، مشكاة ، والرائد . ومن النبطية اقتربوا : أسفار (جمع سفر وهو الكتاب) ، وحواريين ، وأكواب . ومن القبطية أخذوا: متكا ، وأترج . ومن الزنجية أقتربوا: حصب جهنم ، ومينساة . ومن البربرية أخذوا: المهل (عكر الزيت)، وأبأنا (أي المراعي أو العشيش) .

الاصطلاح العلمي

يعتبر الاصطلاح العلمي احدى الركائز الأساسية للتعمير العلمي؛ اذ بدونه تسر لغة العلم على رجل واحدة ، وتعطل عملية الابداع والابتكار . ويمثل الاصطلاح الوارد تحدياً عظيماً لاختبار قدرة اللغة على استيعابه والتعمير عنه . وما لم تتمكن اللغة ، أي لغة من ذلك ، فإنها توصف بالعمق والعجز والقصور .

تعريف الاصطلاح

الاصطلاح أو المصطلح العلمي - وهو مصدر اصطلاح - لفظ علمي يؤدي المعنى بوضوح ودقة ، ويُعتبر عن اتفاق طائفة على شيء مخصوص . وإن كل علم اصطلاحاته . وعرفه آخرون بأنه أداة البحث ولغة التفاهم بين العلماء ، وليس ثمة علم بدون قوالي للفظية تزدهير . وقيل عنه بشكل أدق أيضاً أنه اللقب الذي يضعه فرد أو هيئة لدلالة علمية أو حضارية معينة ، بشرط أن يكون قد تواضع عليه المشتغلون بذلك العلم ، أو المنيون بذلك الجانب من الممارسة . وعلى هذا فإن شرطه الأول بجميع أبعاده ، هو : الملفظ ، والمعنى ، وأهل الشأن . وتقدر الدراسات في هذا المجال أن حوالي ٥٠٪ من مفردات لغات البلدان المتقدمة في ميادين العلم تتكون من اصطلاحات علمية وفنية^(٧) .

الاصطلاح العربي : أزمة لغة أم أزمة أفراد ؟

إن أزمة وضع الاصطلاحات وتوجيدها لا تتعذر سبيلاً دون غيرهم ، بل هي قضية ملحة تشغل العلماء في العالم بأسره ، إلى حد جمل العلماء السوفيت يعتمدون علم الاصطلاح بأنه علم العلوم .

وليس العربية بأقل قدرة من اللغات الحية على أن تكون لغة علمية . وإن ظهر شدة عجز في مجال ما فليس مرده قصورها ، بل تقصير الناطقين بها عن العناية بایجاد الاصطلاح الملائم ، والتتصدي لاغنائها بالترجمة والتاليف . وعلى ذلك فإن الأولى بأن يكون في تخصص الاهتمام هم أهل اللغة ، وليس اللغة^(٨) ، ذلك أن العربية لا تفتقر إلى منهاج علمي لوضع الاصطلاح وصياغته .

وقد شهدت العربية في التاريخ الحديث محاولات عديدة جادة قام بها علماء فحول ، كان همهم الغوص في بحور هذه اللغة الفنية بعثاً وتنقيباً عن الاصطلاحات الخاصة بكل حقل من حقول العلوم التطبيقية والانسانية ، مثل : الدكتور عمر فروخ في مجال العلوم الفلكية ، واللواء الركن محمود شيت خطيب في العلوم العسكرية ، والدكتور حسني سبع في العلوم الطبيعية ، والأمير مصطفى الشهابي في العلوم الزراعية . . . وغيرهم كثير .

شروط الاصطلاح ومواصفاته

لا يمكن للغرض أن يستخدم اصطلاحاً ، ويروج ، ويدخل في الثروة اللغوية للغة ما حتى تتحقق فيه الشروط التالية ، وأهمها :

- ١ - البساطة والوضوح في الدلالة على الفكرة العلمية أو الفنية .
- ٢ - الإيجاز والاقتصاد مما يمكن على أقل عدد من الكلمات والمعروف .
- ٣ - أن يكون موضوعياً في دلالته بحيث لا يكون مقصوراً على جانب دون آخر .
- ٤ - لا يعتمد الاصطلاح للمفهوم العلمي الواحد ذي المحسن الواحد في الحقل العلمي الواحد .

- ٥ - أن يتم وضعه بعد الرجوع إلى لغات أخرى ليكون أكثر دقة وشموليّة وقابلة للرواج.
- ٦ - أن يسمح بالاشتقاق بما لا يضر بكيان اللغة . ويترعرع عن ذلك أيضاً ضرورة ترجمة الاصطلاح المفرد بمفرد مثله ، لأن ذلك يساعد على التصريف والاشتقاق .
- ٧ - أن يمكن ضبطه بتطبيق قواعد تحديد شكل الاصطلاح : كان يعبر عنه بصيغة المفرد أو الجمع ، أو فرزه إلى مكونات مستقلة يعبر عن كل منها بصيغة الاسم ، وتستخدم بصورة مستقلة كاصطلاح تكشف عند وضع المكانز .
- ٨ - أن يُراعى في وضعه عدم اللجوء إلى الألفاظ العامية إلا لضرورة أو توضيح .

طرق توليد الاصطلاح

١ - إحياء اللفظ العربي القديم :

أجمعـت المجـامـع اللـغـويـة الـأـربـعـة (فيـدمـشـقـ وـالـقـاهـرـةـ وـبـفـدـادـ وـعـتـنـانـ) ، وـفـيـرـهاـ منـالـهـيـاتـ الـعـلـمـيـةـ فـيـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ ، عـلـىـ ضـرـورـةـ اـحـيـاءـ الـلـفـظـ الـقـدـيمـ قـبـلـ التـعـجـيلـ بـاـيـكـارـ الـجـدـيدـ ، وـعـلـىـ ضـرـورـةـ الـلـجـوءـ إـلـىـ الـمـصـادـرـ الـعـرـبـيـةـ قـبـلـ تـعـرـيفـ الـاـصـطـلاـحـ الـأـجـنبـيـ . ولاـ يـؤـخـذـ عـلـىـ هـذـاـ الـاجـمـاعـ الـعـامـ مـاـ يـلـاحـظـ أـحـيـاناـ بـيـنـ تـلـكـ الـجـامـعـ مـنـ اـخـلـافـ فـيـ بـعـضـ الـاـصـطـلاـحـاتـ . وـمـاـ دـامـتـ الـاـصـطـلاـحـاتـ الـعـرـبـيـةـ الـقـدـيمـةـ مـؤـدـيـةـ لـلـمـعـنـىـ الـمـقـصـودـ بـيـنـةـ وـوـضـوـحـ فـانـهـ تـقـدـمـ عـلـىـ الـحـدـيـثـةـ ، مـاـ لـمـ يـشـعـ اـسـتـعـمـالـ الـأـخـيـرـةـ مـعـ دـمـعـ مـخـالـفـهـ لـقـوـاعـدـ الـاسـتـعـمـالـ الـعـرـبـيـ الـفـصـيـحـ .

وـيـنـطـيـقـ هـذـاـ بـشـكـ خـاصـ أـيـضاـ عـلـىـ مـاـ يـعـرـفـ باـسـتـعـادـةـ الـمـفـرـدـاتـ الـمـهـاجـرـةـ ، وـهـيـ الـمـفـرـدـاتـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ دـخـلـتـ الـلـغـاتـ الـأـجـنبـيـةـ مـنـ خـلـالـ التـفـاعـلـ الـعـصـارـيـ ؛ سـوـاءـ أـكـانـ تـلـكـ تـلـكـ بـالـجـاـوـرـةـ وـالتـدـاخـلـ ، أـمـ عـنـ طـرـيقـ التـرـجـمـةـ ، أـمـ عـنـ طـرـيقـ لـغـاتـ أـخـرـىـ أـخـدـتـ عـنـ الـعـرـبـيـةـ كـالـتـرـكـيـةـ وـالـفـارـسـيـةـ . وـالـأـلـفـاظـ الـفـلـكـيـةـ وـالـرـياـضـيـةـ هـيـ خـيرـ مـثالـ عـلـىـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـاـصـطـلاـحـاتـ ، تـحـوـيـ لـفـظـةـ تـسـمـيـةـ النـجـمـ وـاقـعـ »ـ الـتـيـ صـبـعـتـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـلـغـاتـ الـأـوـرـوبـيـةـ «ـ وـ«ـ Wegaـ »ـ وـ«ـ Vegaـ »ـ وـ«ـ كـذـلـكـ »ـ الـعـرـاءـ »ـ وـ«ـ الـعـبـرـاءـ »ـ وـ«ـ الـجـبـرـ »ـ لـاـ جـبـرـاـ . . . وـغـيـرـهـ كـثـيرـ .

٢ - التضمين وتوليد المعاني :

وـيـقـصـدـ بـهـ تـضـمـنـ الـمـعـنـىـ الـلـغـويـ الـقـدـيمـ لـلـكـلـمـةـ الـعـرـبـيـةـ مـعـنـىـ جـدـيدـاـ نـظـراـ لـجـوـودـ تـشـابـهـ وـلـوـ كـانـ جـزـئـاـ بـيـنـ الـمـنـيـنـ ، حـتـىـ يـصـبـحـ الـاـصـطـلاـحـ الـجـدـيدـ بـلـلاـ مـنـ دـلـلـوـهـ الـمـنـدـشـ ، أـوـ يـضـافـ مـنـطـوـلـ جـدـيدـاـ إـلـىـ الـمـدـلـوـلـ الـقـدـيمـ . مـثـالـ تـلـكـ : »ـ السـيـارـةـ «ـ وـهـيـ تـعـنـيـ فـيـ الـأـصـلـ الـقـافـلـةـ ، وـ»ـ الـقـاطـرـةـ «ـ الـتـيـ تـعـنـيـ الـيـوـمـ عـرـبـةـ فـيـ خـطـوـتـ السـكـكـ الـمـدـيـدـيـةـ وـهـيـ فـيـ الـمـعـاجـمـ الـقـدـيمـةـ الـنـاقـةـ الـتـيـ تـقـدـمـ الـقـافـلـةـ ، وـ»ـ الطـيـارـ «ـ وـيـعـنـيـ قـائـمـ الـطـائـرـةـ وـهـيـ فـيـ الـأـصـلـ الـفـرـسـ الشـدـيدـ . وـمـثـلـ تـلـكـ إـحـيـاءـ الـأـرـضـ



الموات، وأرض العشر، والمزارعة . . . وغيرها الكثير من الألفاظ العربية المنتشرة في ثنايا وذخائر التراث العلمي العربي، والتي تستطيع التعبير - وبدقّة تامة - عن مدلولات العديد من الاصطلاحات الواقدة التي قد نثار اليوم في ايجاد المقابل لها بالعربية .

٣ - الاشتراق :

وهو كما عرّفه الامام السيوطي^(١) «أخذ صيغة من أخرى على اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيده لأجلها اختلفا حروفًا أو هيئة ». وأكثر العلماء على أن الاشتراق نوعان : صغير - وهو الشائع - وكبير : فالصغير هو أن تتفق جميع المشتقات في ترتيب حروفها الأصلية كرارع من زرع ، والكبير لا يشترط فيه ذلك نحو جذب وجند . وقد جرت العادة على اعتماد المصدر أو الماضي المجرد أصلين للاشتقاق، سواء أكانا من أصول عربية أم معربة . وتتبع هذه الوسيلة حين لا يوجد لفظ عربي مقابل للاصطلاح الجديد، لذا فالاشتقاق ذو فائدة جمّة لدى المصطلحين بالفاظ جديدة هم في أمس الحاجة إليها .

ولما كانت قواعد الاشتراق في العربية من أكثر القواعد اللغوية دقة وانتظاماً فان الحاسوب (الكمبيوتر أو الكمبيوتر اذا شئنا ترجمة الاصطلاح) قد يكون أنساب جهاز لطبعيق القواعد المتنوعة للحصول على كثير من الصيغ التي تؤدي دلالات مختلفة . او اذ يمكن بمساعدة برنامج حاسوبي يناسب قواعد بناء الألفاظ واشتراطاتها وضع الكثير من الاصطلاحات العلمية . وهذا أمر أساسي لدخول اللغة العربية في اوجه نشاطات عالمنا المعاصر ، وتعاملها مع الآلة عموماً في تطبيقات شتى، نذكر منها: الترجمة والنشر بمساعدة الحاسوب، والفهم الآلي للنوات الطبيعية، وتعريف الكلام، وتركيبه ، وتعليم العربية ، وصناعة الماجموم العامة والمتخصصة ، وغيرها .

ولنا أسوة حسنة في اجدادنا القدامي ، الذين عمدوا الى الاشتراق من : المصادر (أي أسماء المعاني) فاشتقوا من المصدر « كتابة » اسم الفاعل « كاتب » واسم المفعول « مكتوب »، او أسماء الأعيان العربية ، فقالوا : فضفـنـ وكـبرـتـ وأـبـرـ من الفضة والكـبرـيتـ والـبـرـ على التـوـالـيـ . وكذلك من أسماء الأعيان المعربـةـ ، فقالـواـ : بـسـتـنـةـ وـنـحـالـةـ وـفـهـرـسـ من البـسـتانـ وـالـنـحـلـ وـالـفـهـرـسـ على التـرـتـيـبـ السـابـقـ نـفـسـهـ . ويمكن التـوـسـعـ أكثرـ فيـ الاشتـرـاقـ منـ الـأـلـفـاظـ الـمـرـبـعـةـ بـمـعـاـدـلـةـ عـلـىـ أـوـزـانـهـاـ فيـ الـعـرـبـيـةـ، مثلـ كـلـورـةـ chlorinationـ وـأـكـسـدـةـ oxidationـ وـأـكـسـجـةـ oxygenationـ . وقد يتـسـعـ حدـ الاشتـرـاقـ أـيـضاـ لـيـتـضـمـنـ الـأـفـعـالـ التيـ يمكنـ أنـ تصـاغـ منـ الـجـامـدـ، وـماـ يـشـتـقـ مـنـهاـ مـنـ أـسـمـاءـ، مـثـلـ اـشـتـرـاقـ الفـعـلـ تـعـجـرـ منـ الـعـجـرـ، وـالـعـجـرـ اوـ التـعـجـرـ وـتـوـهـمـانـ الـمـشـتـقـاتـ . وـيـتـضـعـ منـ تـلـكـ الـأـسـلـةـ وـجـوبـ اـتـقـانـ الـعـرـفـ بـأـسـوـلـةـ الـلـغـةـ، وـالـلـامـ بـالـقـوـاعـدـ الـاـسـاسـيـةـ لـلـنـحـوـ، حتـىـ يـسـتـقـيمـ التـعـبـيرـ، وـيـسـلـمـ منـ فـسـادـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ .

ونستنتج مما سبق أن اللغة العربية لغة اشتراقية ، أي تتوصّل كلماتها عن طريق استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس مطرد . وهي بهذه الميزة تتفوق على النوات العالمية الأخرى التي لا تعرف هذه التحول الداخلي « بل تقتصر على طريقة « الاصناف » التي ستبثتها في الفقرة التالية .

٤ - الاصاق :

يقصد بالالصاق affixation اضافة زائدة في صدر الكلمة تسمى سابقة prefix ، او في عجزها وتسمى لاحقة suffix ، او في وسطها وتسمى حشا infix ، ويقلب على اللفظ الاوروبية كما اسلفنا الاعتماد على السوابق والواحد في صوغ الكلمات ، ويقال – ان لم ينعدم – استعمال الحشا اي التدخل في قلب الكلمة بالتغيير او الاضافة . ويمكن في العربية استعمال السوابق والواحد والداخل او الحشا بشكل مقاطع كاملة تعبر عن معنى لفوي ، وبذا يتم الحصول على قدر وفير من الكلمات . والواحد في العربية نوعان :

(ا) **لواحق اشتراقية** : وهي التي تدخل في صوغ الاصطلاحات العلمية ، وتصبح جزءاً من بنية الكلمة . ومن ضرورتها لامقة المصدر الصناعي وهي ياء مشددة تضاف اليها تاء مربوطة ، مثل : الانسانية وتقابليها في الانكليزية (ism) . وهناك أيضاً اصطلاحات تصاغ قياساً على المصدر الصناعي وتنتهي باللاصقة (-ty) مثل : الموصليّة conductivity

(ب) **لواحق دلالية** : وهي ما يتصل بالكلمة من أدوات تفيد معنى زائداً عليها ، ولا تعتبر جزءاً من بنيتها . من أمثلتها : الأداتان « ما » و « لا » حين تُلْصَقان بالفعل ، مثل : ما جرى ولا أدرى فينشأ عنهما الاصطلاحان الماجري واللأدري .

وهذه اللواحق تشيع في اللغات الأجنبية بالسابقة (iso) الدالة على التساوي ، والسابقة (mono) الدالة على التوحيد ، والسابقة (poly) او poli الدالة على التعدد ، والسابقة (sub) الدالة على التصغير ولدينا في العربية قاعدة للتصغير .

٥ - النعت :

عرف العرب النعت وصنفوا فيه بعض التأليف ، وحدده ابن فارس(١٠) بقوله : « العرب ت訛ت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار » . ويعتبره بعض اللغويين أيضاً نوعاً من الاشتراق اسمه : الاشتراق الكبار ، واتخذه مذهبها في الاشتراق ، وذهبوا الى أن قسماً كبيراً من الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف إنما جاء نتيجة النعت كلمة من كلمتين . ويعرف النعت أيضاً بأنه انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على سبيل الاختصار ، بشرط أن يكون هناك توافق في المعنى والمفهوم بين المعرف والمعرف عنه . وليس هناك قاعدة واضحة لتحديد المعرف المترتبة من كل كلمة تتألف الكلمة المعرفة . وكان النعت قليلاً في الماضي ، إلا أن مجتمع اللغة أقرت جوازه عند الضرورة ، وقد اتخد مجتمع اللغة العربية في القاهرة قراراً حول استخدام النعت في وضع الاصطلاحات العلمية ، اقتضيَناه من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق(١١) ، هذا نصه : « النعت ظاهرة لغوية احتاجت اليها اللغة قدرياً وحديثاً . ولم يلتزم فيه الآخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة العركات والسكنات . وقد وردت من هذا النوع كثرة تغيير قياسيتها ، ومن ثم يجوز أن ينعت من كلمتين أو أكثر اسم أو فعل عند الحاجة ، على أن يراعي ، ما أمكن ، استخدام الأصلي من المعرف دون الرواين . فإن كان فعلاً كان على وزن فَمَثَلَ أو فَمَثَلَ إلَّا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة ، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المعرفة » . فهو اذن بهذا المعنى يمكن استخدامه في وضع

الاصطلاحات العلمية اذا دعت الحاجة اليه ، الا ان التوسيع فيه قد يتنافى مع العس اللغوي العربي؛ ذلك أن المنسوب يطمس معنى المنسوب منه ، كما أنه يحتاج الى ذوق سليم للخروج بكلمة ذات معنى وسهلة الواقع على الأذن ، مثل : برمائي *amphibian* ، وكهرطيسي *electromagnetic*.

ومع أن النعوت يولد الفاظاً جديدة ، فإنه لا يفني الثروة اللغوية للفة العربية ، ذلك أن الضرورة التي تلبيه لا تتكرر كثيراً . وغالباً ما تكون ترجمة الاصطلاح الأجنبي بكلمتين سهلتين وعبرتين أفضل من كلمة منحوتة غامضة أو مستوجهة .

٦ - التركيب المزجي :

ويعتبر من وسائل توليد الالفاظ ووضع الاصطلاحات . وحسبما أوردته مجلة المجمع العلمي العربي بيمشقاً ، يعرّف التركيب المزجي بأنه ضم كلمتين احدهما الى الأخرى ، وجعلهما اسماً واحداً إعراضياً وبناءً ، سواء كانت الكلمتان عربيتين أم مغربيةين . ويكون ذلك في اعلام الأشخاص والاجناس والظروف والأحوال والأصوات والمركبات المعددية والوحدات الفيزيائية . ويختلف التركيب المزجي عن النعوت بأنه تركيب يحافظ على حروف الكلمتين المزوجتين . وقد أجازت مجتمع اللغة العربية استعماله عند الضرورة . من أمثلته : ماءرد ، وماهر ، وبعلبك ومتورولوجيا العربة *Meteorology* في الانكليزية .

٧ - الترجمة :

لجا العرب الى الترجمة منذ العصر الاموي ، ونبثع منهم مترجمون مهرة ، أمثال : ابن المقفع ، وصالح بن عبد الرحمن عن الفارسية ، وحنين بن اسحاق ، وبنى نوبخت عن اليونانية . واشتهر عندهم نهجان مختلفان في الترجمة : أحدهما يقوم على أساس ترجمة المفردات واحدة إثر واحدة وهو ما يعرف اليوم بالترجمة الحرافية ، والثاني يقوم على أساس الترجمة الضميمة أو ترجمة المعنى وصياغته جيداً باللغة . وقد عرف المعلمان (Hartmann & Stork^(١٢)) الترجمة بأنها نقل المعلومات من لغة الى أخرى . وهذا يشابه ما قاله القاسمي (١٣) بأنها التفسير المعنوي للرموز اللغوية في اللغة برموز لغة أخرى .

و غالباً ما تكون ترجمة الاصطلاحات ترجمة حرافية ، وبذا تعتبر من أضعف الوسائل لوضع الاصطلاح ، نظراً لعدم وجود مطابقة تامة بين معانى الكلمات المترادفة في اللغات المختلفة ، حتى وإن كانت تنتهي الى فصيلة لغوية واحدة ، وترتبط فيما بينها بعلاقات ثقافية وثيقة . لهذا ينبغي على مترجم الاصطلاح الا يقتصر على المعنى الأساسي المعنوي للكلمة فقط ، بل يتبعها الى المعنى الاصطلاحي الذي يختلف بقليل او كثير عن المعنى المعيجمي . مع الاستفادة بالطبع من معطيات علم النحو والصرف لتحديد صيغ الاصطلاحات ، ومعرفة مكوناتها الصرافية الأساسية من جذور وسوابق ولوائح . من هنا كان لا بد للنفرجم من الافادة من معطيات علم الدلالة Semantics في تحليل المعنى ؛ اذ ان معانى الكلمات ينبغي تحليلها حسب هذا العلم لا كوحدات تصورية ، بل كمركيبات مكونة من عناصر معنوية تمثل الجوانب الأساسية للمعنى (١٤) .

ولما كان معظم الاصطلاحات العلمية والفنية ترجع مكوناتها غالباً إلى اللغتين اليونانية واللاتينية ، فمن الضروري – والحالة هذه - معرفة معاني تلك المكونات لتحديد دلالة الاصطلاح ، وكذلك معرفة حدود أشكالها اللفظية لتحديد نطق الاصطلاح وصيغته الصرفية . فمثلاً عند ترجمة اصطلاح thermometer لا بد من معرفة أن المكون الأول فيه (therm-o) اليوناني الأصل هو بمعنى « الحرارة » ، والثاني (meter) بمعنى مقياس .

مما سبق ندرك أن الترجمة كوسيلة لوضع الاصطلاح العلمي ليست عملاً هامشياً أو سهلاً ، وهي تتطلب شروطاً يجب أن تتوفر في المترجم والنص المترجم أي الصيغة الجديدة باللغة الأخرى . ومن الشروط التي ينبغي توفرها في المترجم الدراية الواسعة بكلتا اللغتين اللتين تم بينهما عملية النقل ، والاطلاع والخبرة الواسعة في الملم الذي تترجم مادته من تلك اللغة إلى العربية . فالمشكلات التي ت تعرض المترجم أذن ليست لغوية بالمعنى المألف ، ولكنها مشكلات تتصل بالتعبيرات والتسميات والاستعمالات والاصطلاحات غير المألوفة لبعض الكلمات في مجال ما من مجالات المعرفة . يضاف إلى ذلك ، بالطبع ، ذلك الرخص المأهول والتتجدد من الاصطلاحات التي تعاملنا بها الدوائر العلمية على اختلافها ، بحيث يصل عدد ما يظهر منها في الدقة الواحدة إلىأربعين اصطلاحاً جديداً^(١٥) . وينبغي التأكيد هنا على أن الترجمة الدقيقة للأصطلاح العلمي تتنبى عن تعرييه ، إذا ما تعرى المترجم العليم بأسرار العربية للفظ العربي الأنسب لأداء مدلول اللفظ الأعمسي^(١٦) ، واستعمل بأمهات القواميس والملاجم والمسارد اللفظية المختلفة ، وخاصة تلك التي أصدرتها مجتمع أو منظمات أو هيئات عربية أو إقليمية أو دولية .

٨ - التعرير :

ان التعرير من طرق توليد الاصطلاح ، هو ليس هدفاً بعد ذاته ، بل وسيلة لالباس المفردة الأجنبية ثوباً عربياً من حيث تغيير صوتها ، وزونها إلى ما ينسجم مع الذوق العربي ، ويتفق مع أحد المباني العربيه وأوزانها . ويلجأ إلى التعرير حين يستعصي إيجاد مقابل عربي مقنع ، وفي هذه الحالة يفضل التعرير الجزئي على التعرير الكلي لأنه أخفَ على اللسان من النحت والتراكيب أحياناً ، مثل psycholinguistics التي اقترح لها الفهري^(١٧) سيكولسانيات . ويمكن اجراء التعرير وفق منحنين :

أ) نقل الكلمة الأجنبية إلى العربية كما هي دون تغيير فيها ، وهو ما يعرف أيضاً بالنقحة أو الكرشنة transliteration أي كتابة حروف لغة بعرف لغة أخرى . ولكي تكون النقحة صحية لا بد من وجود مواصفات توحد المثلية ، منها لوجود عدة أشكال للاصطلاح الواحد . وقد وعى المجتمع الدولي هذه الحقيقة فأصدر عدة مواصفات دولية ، من بينها المواصفة الدولية ايزو رقم ٢٣٣ ، التي تهتم بنقحة المعرف العربية إلى اللاتينية . وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعمل مسائل يحتوي على بعض الاختلافات عن المواصفة الدولية . الا أن الأمر الأكثر تعميقاً هو نقحة المعرف اللاتينية

الى العربية ، وهو المجال الذي لم يظهر فيه اي عمل عربي مشترك ، باستثناء ما قام به مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وبعض العلماء مثل الشهابي^(١٨) وإيم(١٩) لنقحرة صور الحروف الانجليزية بالحروف العربية على أساس الصوت الذي يلفظ به العرف في أسلوبه ، وليس كحرف يمفرده .

ب) نقل الكلمة الأجنبية الى اللغة العربية مع اجراء تغيير وتعديل عليها . ويطلق على العملية برمتها «**الافتراض اللغوي**» او «**الاستعارة اللغوية**» ، وهي عملية تمارسها اللغات الحية باستثناء ، للتغيير عن مفاهيم جديدة لم يعهد لها الناطقون بتلك اللغة من قبل .

وعند نقل اللفظ الأجنبي كما هو الى اللغة العربية يسمى «**دخلاً**» ، وعند تغييره يسمى «**منرعاً**» . ومن أمثلة الدخيل : ياذنجان ونرجس وزرنيخ المأخوذة من اللغة الفارسية ، وأوكسيجين والذئون وفيوزاريوم من اللاتينية ، وكذلك الافتراض العالمية التنسمية الموسوعة لتخليص ذكرى عالم او عالمـةـ (كفوـلـتـ وكـوـرـيـ) ، أو المركبة من احرف متعدد عليها دوليا (كرادار وليزر) . اضافة الى عدد كبير من الالفاظ التي احتواها المجمـوسـطـ الذي اصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نذكر منها : إنـزـيمـ (إنـزـازـ خـلـويـ) وجـيلـاتـينـ (مادةـ هـلامـيـةـ) . ومن أمثلة المـعـربـ الفـاظـ مـثـلـ : تـلـفـازـ بدـلاـ من **television** ، وتقـنيةـ بدـلاـ من **philosophy** .

ونستنتج مما سبق أن للتعريف أيضاً آفاقاً واسعة في مجال وضع الاصطلاح العلمي ، شريطة الاحتكام الى قواعد أو ضوابط ، منها : عدم وجود المقابل باللغة العربية ، وتعذر الترجمة الدقيقة للاصطلاح الجديد ، والاحتفاظ باصل اللفظ المرتب والأخذ فيه بأقرب نطق الى العربية دون تقييد بأصل انكليزي أو غيره ، واحتياج طريقة مقتنة في تعريف المـوـرـفـ لأوزان العربية وصيغها قدر الامكان مع توحيد نطقه ، واتباع طريقة مقتنة في تعريف المـوـرـفـ والـحرـكـاتـ والـسوـابـقـ والـلـواـحقـ في اللـفـظـ المـرـبـ والـاـسـتـرـشـادـ في ذلك بـقوـاعـدـ نـطقـ هـذـهـ الأـسـوـاتـ في الـاـصـطـلـاحـ الـاجـنبـيـ ، وـأـخـيرـاًـ أـنـ يـقـوـمـ بـالـتـعـرـيفـ مـخـصـصـونـ عـالـمـلـونـ فـيـ الـمـجـالـ الـعـلـمـيـ لـلـاـصـطـلـاحـ ، ذـلـكـ أـنـ أـهـمـ مـعيـارـ لـقـيـاسـ نـجـاحـ الـاـصـطـلـاحـ هوـ مـدـىـ رـوـاجـ بـيـنـ الـمـسـتـعـمـلـينـ لـهـ مـنـ الـمـتـخـصـصـينـ ، وـقـرـيـهـ مـاـ أـمـكـنـ مـنـ اـشـبـاهـهـ فـيـ الـلـفـاتـ الـأـخـرـىـ شـرـيـطـةـ تـسـاوـيـ الشـرـوـطـ الـأـخـرـىـ . اـذـ لـاـ فـائـدـ مـنـ اـصـطـلـاحـ يـظـلـ حـبـيـسـ الـادـرـاجـ ، فـكـ مـنـ اـصـطـلـاحـ عـدـيـدةـ أـصـدـرـتـهـ مـجـامـعـ الـلـفـةـ لـمـ يـكـتـبـ لـهـ الـرـوـاجـ اوـ الـاسـتـحسـانـ عـنـ أـهـلـ الـاـخـتـصـاصـ .

□ العواشي :

- ١ - الخطيب ، أحمد شقيق ، ١٩٨١ ، معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية : قاموس انكليزي - عربي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ٧٦١ صفة .
- ٢ - هوتكه ، زيفريد ، ١٩٦٩ ، شمس العرب تسطع على الغرب ، فاروق يضون وكمال دسوقي (مترجمان) ، طبع في بيروت ، لبنان .
- ٣ - ماهر مصطفى ، ١٩٨٦ ، عرض وتحليل «قاموس الصغير للانفاظ الالمانية ذات الاصل العربي» ، مجلة الفيصل ١١٣ .
- ٤ - آبيك ، حسين ، ١٩٨٨ ، تاريخ اللغة العربية في اللغة الاندونيسية ، مجلة الاصلاح العد ١٢٨ .
- ٥ - العوفي ، احمد ، ١٩٨٥ ، اللغة العربية : تاريخها وخصائصها وأثارها في الحضارة العالمية ، في : « دراسات في الحضارة الإسلامية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٦ - الدايولي ، فتحي نور ، ١٩٨٩ ، صراع اللغات ، مجلة المنهل العدد ٤٧٢ .
- ٧ — Pei, Mario, 1965. *The story of language*. American Library Inc., New York, USA.
- ٨ - جبر ، عبد الرؤوف ، ١٩٩٠ ، الاصطلاح : مصادره ، مشاكل وطرق توليه ، المؤتمر العلمي الاول حول الكتابة العلمية باللغة العربية : واقع وآفاق ، ١٠ - ١٣ آذار/مارس ١٩٩٠ ، بنغازى ، ليبيا .
- ٩ - السبيوطى ، جلال الدين ، ت ٩١١ هـ - الاشباه والتظاهر في التحو ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سوريا . المجلد ٢ صفة ٢٤٢ .
- ١٠ - ابن فارس ، احمد ، ت ٣٩٥ هـ - معجم مقاييس اللغة ، نسخة مصورة عن الطبعة المصرية ، عبد السلام محمد هارون (معقق) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ٦ مجلدات .
- ١١ - مجمع اللغة العربية في دمشق ، ١٩٦٥ ، مجلة المجمع العلمي العربي ٤ (٣) : ٢١٠ - ٢١٢ .
- ١٢ — Hartman, G. ; and Stork, A. 1972. *Dictionary of language and linguistics*. John Wiley and Sons, New York, USA.
- ١٣ - القاسمي ، علي ، ١٩٧٥ ، علم اللغة وصناعة المعجم ، مطبعة جامعة الرياض ، الرياض ، السعودية .
- ١٤ — Kempson, R. M. 1980. *Semantic theory*. Cambridge University Press, Cambridge, UK.
- ١٥ - فرحان ، اسعق ، ١٩٨٣ ، كلمة في الموسم الثقافي الاول ، مجمع اللغة العربية الاردنى ، عمان ، الاردن .
- ١٦ - الصالح ، صبحي ، ١٩٧٣ ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .
- ١٧ - الفهري الفاسي ، عبد القادر ، ١٩٨٩ ، المصطلح اللسانى،المقتني الدولى الثالثاللسانيات - سلسلة اللسانيات ٦ .
- ١٨ - الشهابي ، مصطفى ، ١٩٩٤ ، كتابة الاعلام الاعجمية بعرف عربية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ٣٢(٣): ٣٥٣-٣٦٤ .
- ١٩ - اitim ، محمود احمد ، ١٩٨٧ ، بناء المكانات وتطويرها ، مركز التوثيق والمعلومات ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، تونس العاصمة ، تونس .



أبْجَمَلَةُ الْفِعْلِيَّةِ وَأبْجَمَلَةُ الْإِسْمِيَّةِ

صلاح الدين الزعبلاوي

جرى النحاة على تقسيم الجملة الى فعلية واسمية . و قالوا في تعريف الفعلية : أنها الجملة التي تبتدئ بالفعل ، وفي الاسمية : أنها الجملة التي يتتصدرها الاسم ، ولا شك أن مقالتهم هذه في تعريف الجملتين و تمييز احدهما من الأخرى تبدو شكلية تتناول الجملة من حيث شكلها ولا تتجاوزه إلى مضمونها ومادتها . قال ابن هشام في معنى الليبيب : « فالاسمية التي صدرها اسم كزيد قائم ۰۰ والفعلية هي التي صدرها فعل كقام زيد ۰۰ » . فهل أصاب النحاة حقاً في هذه القسمة وهل تبيّنوا في بنية كل من العملتين ما تميّز به فعلاً من اختها من حيث اسنادها ودلائلها و شأنها في الإداء ؟

ما الفارق في الأداء بين الجملة الفعلية يتقدم فيها الفعل فيستند إلى فاعله ، والجملة الاسمية يتقدم فيها الفاعل وهو لا يزال مستنداً إليه ليكون مبتدأ ، ومتى نختار هذه الجملة أو تلك ؟

وأشار الإمام عبد القاهر البرجاني ، في كتابه (دلائل الاعجاز) ، إلى أنك اذا حدثت عن حدثت عنه ، بالفعل ، بذلت به ولم تقدم ذكر المحدث عنه ، كلما كان الفعل مما لا يُشك فيه ولا يُنكر ، وهو الفالب ، قال البرجاني : « ويزيدك بياناً أنه اذا كان الفعل مما لا يُشك فيه ولا يُنكر بحال ، لم يكن يُدعي على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير مبني على الاسم ، فإذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة ، قلت : قد خرج ، ولم يتعجب إلى أن تقول : هو قد خرج ، ذلك لأنه ليس بشيء يُشك فيه السادس فتعتاج أن تتحقق ، إلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه . وكذلك اذا علم السادس من حال رجل أنه على نية الركوب والمضي إلى موضع ، ولم يكن شرك وتعدد أن يركب أو لا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو قد ركب /٤١/ . ولا شك أن الشيّخ على الجارم ، وقد تحدثنا في مقال سابق ، عن مذهبـه في تعویل العرب في كلامهم على الفعل ، قد أفادـ ما قالـه البرجاني في ما تقدم .



ويقول العرجاني في موضع تقديم المحدث عنه . « ويشهد لأن تقديم المحدث عنه يقتضي تأكيد الغير وتحقيقه ، اتنا اذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجب فيما سبق فيه انكار منكر او اعتراض شاك ، او في تكذيب مدعى ، كذلك في كل شيء كان خبرا على خلاف العادة » .

وسترى أن القول ما قاله العرجاني ، ولكن كيف استدل؟ إمامنا على صحة ما انتهى إليه من الحكم ، وأي سبيل سلك في هذا الاستدلال ؟ أقول اتنا أتي العرجاني بالدليل من أي التنزيل ومن كلام العرب . وقد استقر من الشواهد وأخذ باستقرارها وتحليلها . وإذا تعدد الذهاب بالاستقراء إلى حد الاستقصاء الذي أوجبه السامرائي ، فيما سبق من المقول في مقال سابق ، فاته لا يمتنع التعميل في الحكم على هذه الشواهد لكتتها وتنوعها ، ومكانتها من البلاغة ، وميلها من إحكام السبك إلى حد الإعجاز في البيان . فالاستدلال الاستقرائي هذا ، اتنا هو استقراء للنظائر واستشهاد بها على الأمر المطلوب إقامة العجة على صوابه . وهو يصل بصاحبه إلى التعميم عن طريق ملاحظة عدة نماذج متشابهة في ناحية من نواحيها ، فيعمم الحكم عليها بحيث يجعلها زمرة واحدة ، ويقوي اليقين بهذا الاستدلال كثرة النظائر والأمثلة المنتمية إلى هذه الزمرة .

ولكن ما راي العلماء المعاصرین فيما قيل عن فارق الأداء بين تقديم الفعل واسناده إلى فاعله ، وتقديم الفاعل ليكون مبتدأ ومولا يزال مسندًا إليه ؟ وما يتفرع على ذلك من قسمة الجملة إلى فعلية واسمية .

□ منصب الجواري في قسمة الجملة إلى فعلية واسمية :

ذهب الدكتور أحمد عبدالستار الجواري ، رحمه الله في كتابه (نحو الفعل) إلى أن الجملة في مثل قوله (قام زيد) قد أسد فيها التيميم إلى زيد ، وفي (زيد قام) قد أسد فيها القيام إلى زيد أيضا ، وليس بين الجملتين ، عند المواريثة ، إلا اهتمام المتكلم في الأولى بالأخبار عن المجيء ، وقد دعاه هذا إلى الابتداء بالفعل ، فقال : (قام زيد) ، واهتمام المتكلم في الثانية بالأخبار عن (زيد) ، فقاده هذا إلى تقديم ذكره فقال : (زيد قام) ، فالجملة في الحالتين كلام أسد فيه ما تغير به ، أي (المسند) وهو الفعل ، إلى ما تغير عنه أي (المسند إليه) وهو الأسم . قال الاستاذ الجواري : « وحقيقة الأمر أنه لا فرق بين نحو قام زيد ، وزيد قام ، من حيث طبيعة التركيب . فالمسند فعل في الجملتين ، واذن قطبيعة الاستناد فيها واحدة ، يقصد فيها إلى النص على معنى الزمن . والفرق بينهما ينحصر في تقدم المسند إليه في الجملة الثانية للأهتمام به ، وتأكيد الحكم عليه . أما الجملة الأولى فهي الجملة الفعلية على رسليها ، وعلى الوجه المألوف بينها ٢٠ و ٢١ » .

وهكذا يرى الاستاذ الجواري أن تقديم الفاعل بالابتداء لا يغير من تركيب الجملة فيقول : « وليس تقديم الفاعل بالأمر الغريب ، فقد أجازه نعمة الكوفة ، وهو في اللغات الحديثة وما تعددت عنه من اللغات القديمة ، هو المألوف / ٨٥ » .

فالجملة الفعلية عند الجواري هي التي أنسد فيها الفعل إلى الاسم ، أي الفاعل . سواء اتقى هذا الفاعل أم تأخر . وأما الأسمى فهي التي أنسد فيها الاسم إلى الاسم . قال الجواري : « ويبدو أن الجملة العربية قد تميزت في صورتها التي وصلت إلينا بآن التركيب فيها يكون بين الاسم والفعل تارة ، وبين الاسم والاسم تارة أخرى . وتسمى الصورة الأولى الجملة الفعلية ، وتسمى الصورة الثانية الجملة الأسمية » ، ثم انتقل إلى تفصيل الكلام على الجملة الأسمية فقال : « وهذه الصورة الأخيرة لا يمكن أن تخلي في ما نعرف من اللغات ، ولا سيما الحديثة ، من فعل وإن كان فعلًا ناقصًا يعين على الاستناد ويحدد زمانها / ١٨ » .

ويعنى الأستاذ الجواري في الكلام على الجملة الأسمية وبرهان لها الأمثلة فيقول : « فنحن نقول في العربية اذا اردنا استناد القيام الى زيد : زيد قام ، ونتقول في اللغات الأخرى ما يشبه قولهما في العربية : زيد يكون قائمًا ، وهذا » . ويعقب على ذلك فيقول : « وقد يكون التركيب الأسمى أو الجملة الأسمية في اللغة العربية ثمرة من ثمار التطور والتتحول الذي قطعته هذه اللغة في عهود سعيدة ، موغلة في القدم ، لا نكاد تتبع لها ملامح ، او نشهد لها أثارة ، وإنما نقف في بعض المظان على ظواهر تدل على أن العربية كانت تسلك سبيل غيرها من اللغات فتستعين بفعل الكون ، كأن الناقصة ، على الاستناد ، ولعل من ذلك ما يذكره النحاة عن (كان الزائد) ، في مثل قول أم عقييل ابن أبي طالب :

انت تكون ماجد نبيل اذا تهبه شمالي بليل'

وواضح أن فعل الكون في مثل هذه الجملة لا فائدة فيه ، فإن تركيبها من اسمين غني عن معنى ذلك التعلم غير محتاج إليه ، اللهم الا إذا أردت معنى المضي - فيؤتى بالفعل ماضيا ، ويكون حينئذ هو المستند أو يكون جزءا منه / ١٩ .

□ خلاصة مذهب الجواري في الجملة الفعلية والاسمية :

أقول يمكن ايجاز مذهب الجواري هذا بآن الجملة الفعلية هي التي أنسد فيها الفعل إلى الاسم ، وهو الفاعل ، ولا يعني تقديم الفاعل أو تأخيره إلا الاهتمام به في مثل قوله (زيد قام) أو الاهتمام بما أنسد إليه وهو الفعل في مثل قوله (قام زيد) . أما الأسمى فهى ما أنسد فيها الاسم إلى الاسم كقولك (زيدي قائم) ، وهي صورة حديثة انتهت إليها العربية بعد أن تجاوزت أطواراً كانت تستعين فيها على الاستناد بفعل ناقص ، هو فعل الكون ، كما تفعل اللغات الأخرى ، ولا سيما الحديثة .

□ الرأي في ما تصوره الجواري حداً لتمييز الجملة الفعلية من الأسمية :

خالف الجواري في ما انتبه ، مذهب جمهور النحاة ، وتفرق بينهما السبيل . اذ اعتقد قوله (زيد قام) جملة فعلية ، وقصر الأسمى على مثل قوله (زيد قائم) . وسنجمل الرد عليه وعلى من اتخذه نوعاً من مذهبـه بعد . على أنفسنا نود أن نشير هنا إلى أن قوله ان



اللغات الحديثة لا تزال تستعين في الاستناد بفعل مساعد في مثل قولها : (خالد يكون قائمًا) وإن العربية قد عرفت هذا في طور من اطوارها، في نحو قول أم عقبيل ابن أبي طالب :

أنت تكون ماجد نبييلٌ دا تهبه شمائلَ بليلٌ

حين اعتدوا فعل الكون المضارع زائداً لا يفيد في موقعه معنى . أقول ان دعوه هذه فيها نظر ، ذلك أن اللهجات الحديثة ، ومنها الآرية ، تستعين بفعال مساعدة في الاستناد لفعل الكون والملك . وهو أمر معروف . ولكن ما بال الجواري يقتبس للمربيه وطور اتقها في الاستناد بما تستن به اللغات الأخرى كالآرية، وينهنج لها في التعبير سببها . وكيف اتفق له ان يتتحقق أن المربيه انما كانت تجري على أسلوب هذه اللغات وتحاكيها في طريقة الاستناد . وهو لو برهن أن اللغات الأكادية والأشورية والبابلية والكنعانية والأرامية من آخرات لغتنا العربية ، بل لهجاتها المولولة في القديم ، انما تستعين بफعال مساعدة وأن العربية كانت تعذو حذوها وتطبع على غرارها لكان له في ذلك وجه صالح ومذهب متقبل ، ولم يتعذر المتخصصون في هذه اللغات عن شيء من هذا القبيل .

ولا ننس أن ما خصّت به العربية من ظاهرة الاعراب الذي تتكتشف عن علاقة اجزاء الجملة بعضها ببعض قد أسقطت عنها ضوابط كان لا بد للغات غير المعرفة من التزامها ، فتميزت بذلك أصول كل منها في التركيب بسمات خاصة بها . وقد أشار الدكتور محمد خير الحلواني إلى نحو من هذا فقال : « والاعراب بهذه الوظيفة أغنى اللغة العربية عن أن يجعل تركيبها ذا حدود صارمة مقيدة لا يمكن تجاوزها والغروب على أعرافها ، كما هو الحال في اللغتين الفرنسية والإنكليزية » ، وأردف : « ومن هنا لم يكن التركيب فيها بعاجة إلى فعل الكون ، أو إلى فعل مساعد ، كما لم تكن به حاجة إلى تقديم الفاعل وتأخير المفعول تعمديما واجبا ، ولا يستترط أن يكون الاسم قبل الفعل المغير عنه ، لأن صرامة التركيب جاءت في اللغتين الفرنسية والإنكليزية تعويضا عن فقدان الاعراب الذي كان لأهمهما اللاتينية والجرمانية اللتين تفرّعتا عندهما سجعله الفيصل / العدد : ٣٧ » .

وهكذا أمكن في العربية تقديم المفعول على الفاعل وتأخريه ، كلما أملت دقة التعبير ودعا إليه وجاه الأداء ، وكن من شأن الاعراب أن يكشف عن الفاعل والمفعول على السواء ، خلافا للغتين الفرنسية والإنكليزية حين أوجبتا تقديم الفاعل وتأخير المفعول . ففي التنزيل : إنما يخشى الله من عباده العلماء - فاطر ٥٨ - ، وقد بدم بالاعراب فاعلية (العلماء) ومفعولية (اللفظ الباللة) ، وكشفت عن ذلك القرينة المنوية ، فالخشية إنما تقع من العلماء ، وقد نثر الله عن الخشية . وفي تقديم المفعول ، وهو اسم الله ، غرض هو الاخبار بأنَّ الذين يخشون الله هم العلماء خاصة دون سواهم ، فقد قصد بتقديم المفعول حصر الفاعلية ، ولو آخر لانعكس الأمر ، أي لو قيل : (إنما يخشى العلماء الله) لفهم أن المخشي هو الله دون غيره ، ولا تكون الخشية مخصوصة بالعلماء ، مقصورة عليهم ، بل يشارك فيها غير العلماء ، فهم يخشون الله وقد يخشون سواه ، خلافا للعلماء فهم لا يخشون سواه .

وهكذا قوله تعالى : « وَإِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَنَهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا / الْبَقْرَةِ ١٢٤ » . فالفاعلية للنقطة الجلالة والمغولية لا ينفي ذلك قرينة المعنى ، فالبليتني هو الله ، والضمير لا ينفي ابراهيم لتقديره لفظاً وان تأخر رتبة ، اذ يكفي ان يتقدم مرجع الضمير لفظاً او رتبة . وانت تقول : (أخطاطي الخطأ) فتعلم ان الفاعل هو الخطأ ، وقد تقدم عليه المفعول ، كما تقول : (أخطاط الخطأ) فتعلم ان الخطأ هو المفعول ، وقد تقدم عليه الفاعل .

اما دعوى الجواري ان العربية قد عرفت الاستعارة بفعل مساعد في طور من اطوارها بدليل قول أم عقيل « أنت تكون ماجد نبيل » برفع (ماجد نبيل) على انه خبر للمبتدأ ، فليس ذلك باليقين الثابت بالدليل المقنع .

□ زيادة (كان) في كلام العرب في غير موضع زيادتها :

ذكر النهاة أن (كان) تختص من بين آخراتها بجواز زيادتها بلفظ الماضي ، بين شيئين ليسا جاراً ومجروراً ، فتكون زيادتها للدلالة على الزمن الماضي . وهي اذأشبهاه (أمس) حكم لها بعكمها ، كما ذكر ابن عصفر أبوالحسن الاشبيلي الاندلسي ، في كتابه (الفرائض) . وقد ورد هذا في سعة الكلام كقول قيس بن غالب البكري : « ولدت فاطمة بنت الحرشب الكلمة من عبس لم يوجد كان مثلهم » .

واما زيادتها بلفظ المضارع فانه نادر . وقد جاء عليه قول أم عقيل « أنت تكون ماجد نبيل » وقول حسان :

كان سبيبة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماه'

يرفع (مزاجها) على المبتدأ ، ورفع(عسل) على الخبر ، كما قال ابن السيد في أبيات الماعاني من كتابه (اصلاح الخل) . والسبيبة بالهمزة الغمرة . وبيت رأس قريبة بالشام اشتهرت بجودة الخمر . وقد حمل ابن هشام في (المقني) رفع (عسل وماه) على اضمار الشأن . وروي (مزاجها) بالنصب أيضاً ، وجعلت المرة الخبر والتكرة الاسم ، وذهب سيبويه الى ان هذا غير جائز في الاختيار وانه خاص بالشعر . لأن الأصل ان يغير بالنكرة عن المرة ، اي يكون في مزاجها . وقد روی بفتح (المزاج) ونصب (المسلسل) على الأصل . وأقرب ما يقال في تأويل ما جاء أنه من الضرائر الشعرية ، كما قاله كثيرون . (الضرائر لمحمود شكري الالوسي/ ٣٠٨)

□ المغزومي ومنبه في الجملة الفعلية والاسمية :

ومن بحث تقسيم الجملة من الباحثين المعاصرین ، الدكتور مهدی المخزومی ، في كتابه (في النحو العربي) ، وقد نهج في ذلك سبلاً عقد فيه العد في قسمة الجملة على (المستند) ، كما فعل الدكتور الجواري . فالجملة فعلية اذا كان فيها المستند فعلاً فافاد التجدد ، فقولك (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان فعليتان ، خلافاً لما أجمع عليه جمهور

النهاة . قال المخزومي : « الجملة الفعلية هي الجملة التي يدل فيها المسند على التجدد ، او التي يتصنف فيها المسند اليه بالمسندات اصافاً متجدداً . وبعبارة أوضح ، هي التي يكون فيها المسند - فعلاً - لأن الدلالة على التجدد إنما تستمد من الأفعال وحدها /٤١/ » .

وقال المخزومي في ايضاح مذهبه : « ومعنى هنا أن كلاماً من قولنا مطلع البدر والبدر طلع ، جملة فعلية . أما الجملة الأولى فالامر فيها واضح ، وليس فيها خلاف مع القداماء . وأما الجملة الثانية ف fasihah في نظر القديم والفعلية في نظرنا ، لأن لم يطرأ عليها جديد إلا تقديم المسند اليه ، وتقدم المسند اليه لا يغير من طبيعة الجملة ، لأن إنما قدم لاهتمام به /٤٢/ » .

فالجملة الاسمية ، عند المخزومي ، ما كان المسند فيها اسماً فافاد الشبه والدلوام ، تقولك (البدر طالع) . قال المخزومي : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدلوام والشبوط ، أو التي يتصنف فيها المسند اليه بالمسند اصافاً ثابتة غير متجددة ، أو بعبارة اوضح هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه البرجاني في ما اقتبسنا من كلامه هنا /٤٢/ » .

وقد أخذ المخزومي على النهاة أنه قد فاتهم الكشف عن الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فقال : « فان تقسيمهم الجمل الى اسمية وفعلية مبني على أساس لفظي محض ، لم يلحظوا فيه الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فضيقوا مجال الجملة الفعلية حتى قصروها على ما تقدم فيها الفعل ، ووسعوا مجال الاسمية حتى أدخلوا فيها ما ليس منها ، من جمل فعلية تقدم فيها الفاعل على الفعل » . ، وأردف : « ولو كان تحديدهم الاسمية والفعلية قائمًا على أساس من ملاحظة واعية للفرق بين طبيعتي العملتين ، لكان عملهم أجدى ، ولكنهم اكتفوا أنفسهم والدارسين والنصوص المدروسية ، عناء ما تكلّفوه من تأويل وتغريج /٢١٨/ » .

□ الرأي في ما جاء به المخزومي :

اقول الجواب عما جاء به المخزومي إنما يتناول جهتين :

الأولى : أن قوله (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان متشارهتان من حيث الاستناد ولذا كانتا فعليتين ، قوله هذا لا أغلنه صحيحاً، وسبعين في ما بعد دلالة كل من الجملتين ، حين الموازنة بينهما ، وأن النهاة على حق في الفصل بين الجملتين . وقد ثات المخزومي الصواب كذلك حين قال : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدلوام » . وبعبارة اوضح : هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه البرجاني ، في ما اقتبسنا من كلامه هنا ، فالبرجاني لم يقصر الجملة الاسمية على الجملة التي جاء مسندها اسماء ، في ما اقتبسه المخزومي من كلامه ، وكل ما أشار اليه في مثاله هو ثبوت الانطلاق لزید في قوله : زید منطلق ، وتتجدد في قوله : هو ذا ينطلق ، لا أكثر من ذلك ولا أقل !

الثانية : ان في وصف الفعل بالتجدد ونسبة ذلك الى البرجاني نظراً ، ذلك أن التجدد الذي عناء البرجاني ، كما سنبسط القول فيه ، مقصور على المضارع ، على حين جاءت أمثلة المخزومي على الفعل الماضي !

□ مقالة العرجاني في تعدد الفعل واستمرار اسم الفاعل :

ذكر العرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز / ١١٥) أن الاسم الذي أسد الى (زيد) في قوله (زيد منطلق) يثبت معنى الانطلاق لزيد، دون أن يقتضي تجده، وأن الفعل الذي أسد الى (زيد) في قوله (زيد ينطلق) يثبت بـالانطلاق الذي يتتجدد فيقع من (زيد) شيئاً بعد شيءٍ . وأكد في موضع آخر (ص ١١٧) أن لكل من الاسم والفعل المستدرين في هذه الجملة الأساسية دلالة تغاير دلالة الآخر، فقال: « ولا ينبغي أن يفرك اذ تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر أتنا قدرنا الفعل في هذا التعمتقدير الاسم ، كما نقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم ، فان ذلك لا يقتضي ان يستوي المعنى فيه استواء لا يكون من بعده اختراق ، فانهما لو استويتا هذا الاستواء لم يكن احدهما فعلًا والآخر اسمًا ، بل كان ينبغي ان يكونا فعلين او يكونا اسمين »، فما الذي قد صدليه العرجاني بقوله : الفعل الذي يثبت به المعنى المتتجدد ، والاسم الذي يثبت به المعنى غير المتتجدد ؟

اقول صواب المسالة عندي أن الفعل الذي قرر بالتجدد ، في مقالة العرجاني ، هو الفعل المضارع خاصة ، وأن الاسم الذي وصف بعدم التجدد هو اسم الفاعل ، المعد للعمل ، الجاري على معنى الفعل ولفظه ، واسم الفاعل لا يعدل للعمل ما لم يكن للحال او الاستقبال ، دون الماضي ، وما لم يكن معتقداً على تبني او استفهم او مبتدأ صريح او منوي ، او موصوف ، او ذي حال .

فقد ذهب كثير من النحاة ، في مثل قوله (خالد دائِب في عمله) أنه يعني قوله (خالد يدَّأب في عمله) . ورأى العرجاني غير ذلك حين أكد أن في دلالة الفعل ، أي المضارع وهو (يدَّأب) من التجدد ما ليس في الاسم ، وهو اسم الفاعل (دائِب) . وأشار الى مثل ذلك بعض الأئمة . قال ابن مالك في (الفيسته) : « أَخْمَدَ رَبِيَّ أَشْخَرَ مَالِكَ » فقب الأشموني على هذا فقال : « أَيُّ أَئْمَنَ عَلَيْهِ الشَّنَاءُ الْجَعْلِ الْلَاِثَقَ بِجَلَانِ عَظِيمِهِ وَجَزِيلِ نَعْمَهِ ، الَّتِي هَذَا النَّظَمُ مِنْ أَثْارِهَا » ، وارتفع : « وَاخْتَارَ صِيَغَةَ الْمَضَارِعِ الْمُتَجَدِّدِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشَاعَرِ بِالْاسْتِمْرَارِ التَّجَدُّدِيِّ » . أي كما أن آلاء تعالى تتتجدد في حقنا دائماً ، كذلك نعمده بمحامد لا تزال تتتجدد . . . وفي قوله : « وَاخْتَارَ صِيَغَةَ الْمَضَارِعِ » ما يشعر بخصوصية هذه الصيغة في الدلالة على التجدد .

وهذه شواهد العرجاني وأمثلته . ومنها قوله تعالى: « وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد - الكهف / ١٨ » . قال العرجاني : « فان أحدا لا يشك في امتناع الفعل ها هنا ، وأن قولهنا : وكلهم يبسط ذراعيه ، لا يؤدي الفرض . وليس ذلك الا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومنعه يحدث شيئاً فشيئاً ، بل تثبته بصفة هو عليها ، فالفرض ادن تأدبة هيئنة الكلب / ١٣٤ » . وقد ذهب جماعة الى أن اسم الفاعل في الآية ، وهو (باسط) جاء للماضي ، أي أن زمن حصوله للخبر عنه سابق نزول الآية الكريمة على رسول الله (ص) ، وقد أجب عن ذلك بأن الكلام قد جاء على حكاية الحال ، بدليل قوله تعالى (وكلهم

باستط) واللواء للحال ، ولا يحسن أن يقال هنا : وكلهم بسط ، بالماضي ، وإنما يحسن أن يقال بعد واد الحال : وكلهم يبسط . وقد جاء قبل الآية قوله تعالى : « وَنُقْلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَاءِ » فاتى فيه بالفعل المضارع الدال على الحال أو الاستقبال .

ومن شواهد البرجاني في هذا الباب ، قوله تعالى « هل من خالق غير الله يرزقكم - فاطر / ٣ » فقد ذهب البرجاني أن الفعل قد أتى بصيغة المضارع لأن الرزق يتجدد ساعة بعد ساعة ولو قيل (هل من خالق غير الله رازق لكم) بصيغة اسم الفاعل لكان المعنى غير ما أريده (ص ١٣٦) .

وهكذا قول البرجاني (زيد منطلق) فإنه لا يعني عنده غير اثبات الانطلاق لزيد ، أما (زيد ينطلق) فقد قال فيه : « فإذا قلت ، أي زيد ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً جزءاً وجعلته يزاوله ويُرجِّيه ... » .

ويتبين بما قلنا أن البرجاني قد رأى التجدد في صيغة المضارع دون سواها ، وقد استئنَّ بستنته في وصف الفعل بالتجدد الدكتور المخزومي في ما اقتبسه عنه ، لكنه لم يصر على التجدد على المضارع منه ، فقال : « إن العملة الفعلية هي التي يدل فيها المستند على التجدد .. وبعبارة اوضح هي التي يكون فيها المستند فعلًا لأن الدلالة على التجدد انما تستمد من الأفعال وحدها / ٤١ » . ثم استشهد في اثبات مقالة التجدد هذه بمثال جاء به على صيغة الماضي فقال : « ومعنى هذا أن كلًا من قولنا تطلع البدر والبدر طلع جملة فعلية .. ففاته بذلك فهم مذهب البرجاني في التجدد ، وفي دعوه أن (البدر طلع) جملة فعلية .. » .

وانظر بعد إلى ما جاء في (الكليات) لأبي البقاء الكوفي . قال أبو البقاء : « اشتهر عند أهل البيان أن الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث - ٥ / ١٨٢ » ، فأشار إلى نحو مما خلص إليه البرجاني ، في هذا الباب ، ولم يشر إلى ما يريده بالفعل صراحة . لكنه بحث هذافي موضع آخر فقال : « الجملة الاسمية إنما كان خبرها اسمًا فقد يقصد بها الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن ، ، ، وأردف : « وإذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجددياً - ٥ / ١٧٤ » ، فكشف عن أن ما يريده بالفعل هو المضارع .

وعلى أبو البقاء عمل اسم المفاعل ودلالة على الاستمرار ، على كونه للحال أو الاستقبال ، فقال : « اسم المفاعل إذا كان للاستمرار يصح إعماله نظراً إلى اشتغاله على الحال والاستقبال ، والفاوئ لاشتماله على الماضي - ٥ / ٣١٧ » .

□ الثبوت في الصفة المشبهة :

وإذا دل اسم المفاعل على الاستمرار والدوام فإن الصفة المشبهة أصل في الثبوت . فقد جاء قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك ليُثْوِنُونَ الْمُؤْمِنُونَ / ١٥ » . قال الإمام البيضاوي في تفسيره : « لصائرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مُحَالَةٌ ، ولذلك ذكر النعمَ الذي للثبوت ، دون اسم المفاعل » . ولكن أَوَ لا يصح هنا أن يقال : (ثم إنكم بعد ما ثُوِنُونَ) بلحظة اسم المفاعل ؟

أقول يصح هذا اذا أريد به الاستمرار ، فقد اشار الى ذلك الامام البيضاوي نفسه ، حين اردف : « وقد قرئ به » أي قرئ باسم الفاعل أيضاً .

ولا يخفى ان دلاله (الميت) بتشديد الياء، في الآية ، نحو دلاله (المائت) ، اي لا بد انهم مائرون الى الموت ، ولا يعني أنهما فارقا الحياة . وكذلك قوله تعالى : « إنك ميّت وإنهم ميّتون - الزمر / ٣٠ » بتشديد الياء . قال الراغب في مفرداته : « قيل معناه ستموت ، تنبئها أنه لا بد من الموت ، كما قيل : والموت حتم في رقاب العباد » .

وجاء في الكليات لأبي البقاء الكفوئي : « والميّت مخففة هو الذي مات ، والميّت بالتشديد ، والميّت هو الذي لم يمت » : وقد ذهب الى هذا جماعة ، لكن الذي عليه نصوص المعجمات أن المائت هو العي ، والميّت بالتخفيض هو الذي فارق الحياة . أما الميّت بالتشديد فقد يعني العي كالمائت ، ويعني فاقد الحياة كالميّت بالتخفيض . وجاء في الحديث الشريف : « يتبع الميّت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فرجمع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وما له ويبقى عمله » . والميّت هنا فاقد الحياة ، وقدروريها هنا بالتخفيض . (اعراب الحديث النبوى للمعكري - ص ١٢١) .

□ مذهب الدكتور السامرائي في الجملة الفعلية والاسمية :

بسط الدكتور السامرائي مذهبة في هذه المسألة ، في كتابه (ال فعل زمانه وأبيته) ، فسلك طريقة المخزومي في ما رسمه من حد يفرق به الجملة الفعلية من الاسمية ، وجرى على منهاجه فجعل قوله (سافر محمد) و (محمد سافر) سواء في الاسناد ، لأن المستند فيها هو الفعل ، وهذا هو سبيل الجوازي نفسه في الموارنة بين الجملتين .

لكن السامرائي قد أخذ على المخزومي قوله بتجدد الفعل . قال السامرائي : « وقد خالف الدكتور المخزومي الأقدمين في حد الجملتين الفعلية والاسمية . فقد ذكر أن الجملة الفعلية ما كان فيها المستند أسمًا ، وقد أصاب الاستاذ المخزومي العقيقة في العد الذي رسمه للجملة ، فان : سافر محمد ، جملة فعلية هي نفسها : محمد سافر . غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة البرجاني واتخذها دليلاً للتبين في الجملة الاسمية والفعلية ، لم يفطن الى أن هذه المقالة حجة عليه . فالتجدد المتسبّب للفعل المستند الى الاسم ، لم يتحقق في قوله : محمد سافر وسافر محمد . ومن هنا لا يمكن للسيد المخزومي أن يعتبر الجملتين فعليتين » . وأردف : « أما نحن فنقول ان محمد سافر وسافر محمد جملتان فعليتان ، ما دام المستند فعلاً ، وليس لنا أن نلخص التجدد بالفعل لأن ذلك ليس من منهجانا ، لأن الشواهد لا تؤيد هذا التجدد المزعوم » .

وقد أوضح السامرائي رأيه في تجدد الفعل فقال : « وكيف لنا أن نفهم التجدد والحدوث في قولنا : مات محمد وهكذا انصرف يكر . فهو هذه الأقوال كلها أحداث منقطعة لا يمكن لها أن تجريها على التجدد والحدث . و اختيار البرجاني لـ : ينطلق ، مفيد له في اثبات مقالته . أما أن يكون الفعل: سافر وذهب ومات ، وما الى هذا ، فليس في ذلك ما يحقق غرض البرجاني ، ولا ما ذهب اليه المخزومي - ٤ / ٢٠٥ - ٢٠٥ » .

□ العواقب مما جاء به السامرائي :

أقول في العواقب مما جاء به السامرائي انه لا حجة لمقالة القائلين ان (سافر محمد) و (محمد سافر) سيئان في الاسناد لأن المستندفيهما هو الفعل ، وسبعين ذلك بعد . أما تجدد الفعل الذي أنت به مقالة البرجاني ، فقد تأكّد أنه مقصور على المضارع ، خلافاً لأمثلة المخزومي . والسامرائي على حق حين انكر تجدد الأفعال في ما أورده من الأمثلة ، لا لشيء سوى أنها أنت على صيغة الماضي ، لا المضارع ، كما يسطّلنا القول فيه قبل . اذ ليس في قوله (سافر محمد) و (محمد سافر) أو في قوله (البدر طلع) و (طلع البدر) ما يشعر البتة بتجدد الفعل . ولكن ما الذي أراده السامرائي بقوله : « غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة البرجاني ، واتخذها دليلاً للتمييز بين الجملة الاسمية والمفعليّة ، لم يفطن ... ؟ فما الذي أفاده المخزومي من مقالة البرجاني ، واتخذ منه دليلاً للتمييز بين الجملتين ؟ »

أقول الذي فعله البرجاني هو أنه بسط القول في دلالة مختلف الصور التي تؤديها الجملة الفعلية والاسمية ، فبان مثلاً فرق ما بين دلالي (زيد ينطلق) و (زيد منطلق) الاسميين ، وبين (قتل الخارجي زيد) و (قتل زيد الخارججي) الفعليين ، وبين (ينطلق زيد) الفعلية و (زيد ينطلق) الاسمية ، وبين (شربت زيداً) الفعلية و (زيد ضربته) الاسمية . . . ومكنا .

ومن قاله البرجاني مثلاً في الفرق بين أن يكون المستند في الجملة الاسمية اسماً لا تجدد فيه ، أو فعلاً متجدد الحديث ، فقال في كلامه على (فروق الخبر) : « ان موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى الشيء ، من غير أن يقتضي تجدد شيء شيئاً بعد شيء . أما الفعل موضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء . فإذا قلت : زيد منطلق فقد أثبتت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً شيئاً ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قوله زيد طويل و عمر قصير . وكما لا يقصد ما هنا الى أن يجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث كما توجّهما واتّجهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الانطلاق ، كذلك لا تتعرّض في قوله : زيد منطلق لأكثر من اثنائه لزيده . وأما الفعل فإنه يقصد منه إلى ذلك . . . فإذا قلت زيد هو ذا ينطلق فقد أثبتت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويزكيه . . . - ١٣٣ / ١٤٤ - . فقد جاءت مقالة البرجاني هذه للتمييز بين كون التعبير اسماً يثبت به المعنى للمبتدأ دون تجدد ، أو فعلاً يثبت به وقوع الحديث منه في تجدد . والذى أفاده المخزومي من هنا أنه اتخذ التفرق بين الخبرين حداً يميز به الجملة الاسمية من الفعلية ، وذلك ما لم يخطر للبرجاني على بال أو يجري له في حساب ، عدا ما ذهب على المخزومي من أن الذي عنانه البرجاني بالفعل ، هو المضارع دون سواء .

وقد أفاد السامرائي نفسه من مقالة البرجاني هذه ، فحكاماً عنه في كتابه (الفعل زمانه وأبياته ٢٠٢) ، وعقب عليها فقال : « وعلى هذا فالجملة الاسمية ما دلّ فيها المستند على الدوام والثبوت » ، وأردف : « ومقالة البرجاني هذه في التمييز بين الفعل والاسم يبني عليها التمييز بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية » .

وهكذا فات السامرائي في استنباطه هذا ما فات المخزومي من مقالة البرجاني . اذ كان غرض البرجاني من مقالته هذه بيان الفرق في الاستناد بين ان يكون الغير اسم فاعل او فعلًا مضارعاً (أي جملة فعلية فعلها مضارع) في جملة اسمية لم يتغير مبنيوها ، ويؤيد ذلك قول العرجاني يعد هذا : « ولا ينبغي أن يفرك ، اذا تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر ، انا قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم ، كما تقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم ٠٠٠ » ، فدلل بكلامه هذا ان كلاً من الجملتين (زيد يقوم) و (زيد قائم) تتالف من مبتدأ وخبر ، فهما اذن جملتان اسميتان .

□ السامرائي وموضع النحو :

نهج السامرائي ، كما ذكرنا ، نهج الجواري والمخزومي في التسوية به قوله (قام الرجل) و (الرجل قام) ، ففقد على الشيخ الجارم مذهبه في اتخاذ مذهب النحاة في التمييز بين الجملتين الفعلية والاسمية ، وكشف عما يعنيه تقديم الفعل في الاولى وتاخره في الثانية ، على ما انتبه العرجاني في (الدلائل) ، قال السامرائي : « وهذه المسالة البلاغية لا يمكن ان تكون مادة في البحث النحوي ، والشيخ الجارم يجد في دلائل الاهجاز للبرجاني ما أعاده على اثبات ما اثبته . وهو في ذلك كالاستاذ المخزومي في التسامم مادته من المصدر نفسه ٢٠٦ » .

ثم اوضح رأيه فقال : « وعلى هذا فان هنا المعنى ليس منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في اي وجه من الوجوه ٢٠٨ » ، وخلص الى القول : « ولقد بحث علماء المanaly في الجملة العربية بعثاً خاصاً بهم ، ذلك لأن ما خاصوا فيه ليس من مادة النحو الذي يقتصر على اجزاء الجملة وعلاقات هذه الاجزاء ببعضها ، ووصفها كما تبدو في بناء الجملة ٢١٢ » .

وهكذا سلك السامرائي في معالجة المسألة مسلكًا لا يتناول فيه حقيقة ما ذهب اليه البرجاني وتابعه فيه الجارم ، في التفريق بين الجملتين ، فهو حقيقة علمية راهنة يدعها البحث وتؤيدها الأدلة الواضحة والبيئات المسلمة وعلم اللغة الحديث ، فلا بد من الاخذ بها ، أم هو شيء لا يتصل بهذا كله فلا بد من معارضته واستبعاده ، وانما يابي الخوض في ذلك لأن المسألة مسألة بلاغية ، لا يمكن ان تكون مادة البحث النحوي ، وأن تحريرها يستلزم المدول الى منعى ليس هو منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في اي وجه من الوجوه ٠

اقول يمكن الاجابة عما ذهب اليه السامرائي من جهتين :

الأولى : أن ما يجب القبح عنه هنا ، هو حقيقة العد الذي اقتاس به الباحثان البرجاني والجارم ، سواء اكان البحث فيه من شأن البلاغة أم من شأن النحو . فإذا صعَّ أن لكل من الجملتين شأنًا في التعبير لا تؤديه الأخرى ، فالجملتان متعاريرتان ، وأن اشتراط النحاة في الفاعل أن يتقدم عليه فعلى ليتميز بذلك من المبتدأ الذي تبدأ به الجملة الاسمية ، أمر يقتضيه الفصل بين شانهما ، وأي غرابة في أن تتفق معانٍ التركيب بتغيير مواضع عناصره ؟

الثانية : أنه لا غنى لمادة النحو من بعثما نحن بسبيله من الكشف عن تغير الدلالة في كل من الجملتين بتنتقل أجزائهما . فإذا كان غرض النحو الأول وقاية اللسان من اللحن

والخطا ، ولذا جعلوا منه العلم الذي تعرف به أحوال أواخر الكلم إعراضاً وبناءً ، فكان علم الأعراب ، كما ذكر الزمخشري في مقدمة كتابه (المفصل) فنان من أغراض النحو ، ولا شك ، انتفاء سمت كلام العرب في تصرفه من أعراب وغيره ٠ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية باهلهما في الفصاحة ، كما قال ابن جنی في *الخصائص* (١٢٢/١ - ط ١٩١٣ م) ، وقد أشار الزمخشري في موضع آخر من مقدمته إلى علاقة ما بين النحو والبيان فقال: « وهو المرققة المنسوبة إلى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن » ؛ فغير بذلك عن انتقال النحو بالبلاغة وتلزمهما ، وقد برع الجرجاني في ذلك وبسط القول فيه ٠ وأكد ابن سيده أبو الحسن كلام ابن جنی في مخصوصه ، حين حاول تعريف علم النحو ، فاستumar الفاظ ابن جنی نفسها ولم يخرج عنها ٠

وقد عرضت لهذا في كتابي (مذاهب وأراء في نشوء اللغة ودرج معانها/١١١)، أذ جاء فيه: « ولا يخفى أن النحو عند الأوائل هو علم العربية الذي يُعرف به وجهة كلام العرب وما يقصدون إليه في التعبير عن أغراض النفس ٠ وقد أشار إلى ذلك الأشموني حين قال: « وهو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزاءه التي اختلف منها ، كما أشار إليه ابن عصفور في المقرب حين ذكر أن المراد هنا بالنحو قولهما علم العربية ، لا قسم الصرف ٠ آه ٠ أما عند المتأخرين فقد غدا النحو غالباً: علم الأعراب والبناء ، كما نبه عليه الصبيان حين قال: « واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الأعراب والبناء وجعله قسم الصرف ، وأردف: « وعليه فيعرف بأنه علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعراضاً وبناءً ، وهو موضوع الكلم العربية من حيث ما يعرض لها من الأعراب والبناء ٠ آه ٠ وهكذا تحوّل النحو بما كان عليه من البحث في صحة تاليف الكلم للتعبير عما في النفس من أغراض ، إلى البحث في ضبط أواخر أعراباً وبناءً ، ضمناً لسلامة اللسان من اللعن ، وبسط الكلام في عوامل ذلك والأسهاب في تعليله بالعدل النظري ، فبدأ النحو وقد غار ماؤه وشأن بهاؤه وسام مذاقه ، والا فإن توقييد المعنوية بالمعانوي كان يوجب دراسة النقط في تركيب الجملة بدراسة موقعه من التركيب عاماً من حيث اتصاله بالأجزاء الأخرى وتأثيره بها وتأثيره فيها ، ثم دراسة الجملة مجتمعة الشمل من حيث صورة التعبير وأسلوبه ، وقدجرد النحو من هنا كله وخصصت به علوم البلاغة كالمانوي والبيان ٠ ٠٠ ٠ » ٠

وهذا سببويه أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ) امام هذا العلم وعلمأعلم أعلامه ، قد ضمن كتابه أبواباً جعلت بعد مادة لعلم المعانوي ، فأشار بذلك إلى أن هذه الأبواب ملزمة للنحو لا تنفك عنه بحال من الأحوال ٠ قال سببويه: « هنا ياب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة ، وذلك قوله: ما كان أحد مثلك ، وليس أحد خيراً منك ، وما كان أحد مجرئاً علىك ٠ وإنما حسن الاخبار هنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون مثل حاله شيءٌ ، أو فوقه ، فإن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلم مثل هذا ٠ وإذا قلت: كان رجل ذاهباً ، وليس في هذا شيء تعلمه كان جهله ، ولو قلت: كان رجل من آل فلان فارساً ، حَسْنٌ ، لأنه قد

يحتاج الى أن تُسلمه أن ذاك من آل فلان ، وقد يجهله . ولو قلت كان رجل في قوم فارساً، لم يحسن ، لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا فارس ، وأن يكون من قوم ، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح ... ٢٧ / ٢٦ .

فقد تجاوز سيبويه في كتابه مادة النحو ، في هذه المرحلة ، إلى ما أسموه بعد بعلم الصرف وعلم المعاني وعلم البيان وعلم العروض وعلم الأصوات وعلم القراءات ، من علوم العربية ، بل علم النقد الأدبي ، ذلك التلازم هذه العلوم واستحالة انفكاك بعضها من بعض ، فجاء كتابه متضمنا كل ما يستعن به على فهم كلام العرب والكشف عن سر تاليه . وإذا عدم علماء العربية في دراساتهم بعد إلى تخصيص كل علم منها بمادة موضوع لغوص على جزئيات كل من هذه العلوم ، فلابعني ذلك امكان الفصل بينها في التumas فهم كلام العرب ، ففي كل علم منها تمام للعلم الآخر ، بل جلاء لأسراره ودقائقه .

ولاشك أن ما جاء به سيبويه ، ما هنا ، ونحوه مما ذكره في مواضع أخرى من كتابه ، قد أوحى إلى البرجاني ما أوحى ، في كتابه (دلائل الاعجاز) مما يتصل بعلم المعاني . وقد تحدث البرجاني عن معاني النحو ، ونبأ على أن النظم ، وهو موضوع الكلام بشكل من الأشكال ، إنما يتواخى هذه المعاني . وإذا كان العلماء قد قصرروا العدبيث عن المعاني المذكورة ، على ما أسموه بعلم المعاني ، فإنهم لم يوفقا في فصله عن النحو ، جملة وتفصيلاً ، لأنه نوره الذي به يهتدى إلى صوغ الكلام وأحكام البيان .

وقد وفق البرجاني حقاً في الكشف عن اتصال النحو بالبلاغة خاصة وتلازمها . وقد حذا هذا العدو ويم هذا السمت الإمام أبو يعقوب السكاكي (ت ١٢٦ هـ) في كتابه (مفتاح العلم) فقد تحدث فيه عن علوم البلاغة فجعل ما تعلق منها بمعطابقة الكلام لمقتضى الحال والتتبع لغواص تراكيب الكلام مادة علم المعاني ، وما اتصل بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه مادة علم البيان ، وما اختص بوجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة مادة علم البديع ، فهو أخص من علمي المعاني والبيان ، لكنه قال في مقدمة كتابه: قد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، ما رأيت أن لا بد منه ، وهذه عدة أنواع متأخذة ، فأوردته علم الصرف بتمامه وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتغال ... ، وأردف: « وأوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه يعلمي المعاني والبيان ... » ، فدل ذلك على تعلق النحو بعلم البلاغة وتأكيد مهمته اللغة في الأداء والبلاغ .

وقال في موضع آخر من كتابه : « إن علم النحو هو أن تنبع معرفة كيفية التركيب في ما بين الكلم لتقاديه أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستتبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية . وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعايته ما يكون من الهيئات ازاء ذلك ، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها - المفتاح / ٣٧ » . وجاء في شرح السيد للمفتاح : « وأما عن المركبات فباعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعنىها الأصلية فعلم النحو » .

وهذا هو أبو اسحاق الشاطئي ابراهيم بن موسى (٧٩٠ هـ) يعرّف علم النحو في شرح (الخلاصة) فيقول : « وهو في الاصلاح ، علم بالاحوال والاشكال التي بها تدل الفاظ العرب على المعاني ، وي يعني بالاحوال وضع الانفاظ من حيث دلانتها على المعاني التركيبية ، اي المانوي التي تستفاد بالاشكال ... » .

بل هذا ابن كمال يasha (٩٤٠ هـ) يقول في رسالته ، وقد عرض فيها لعلم النحو : « ويشارك النحو صاحب علم المانوي في البحث عن الركبات ، الا ان التحوي يبحث عنها من جهة هياتها التركيبية صحة وفساداً ، ودلالة تلك المعيقات على معانينا الووضعية على وجه السداد ، وصاحب المانوي يبحث عنها من حيث حسن النظم المبر عنده بالفصاحة في التركيب ، وبقبحه ... » ثم خلص الى القول : « وهذاكون علم المانوي تمام علم النحو » .

وقال الأستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمة الله ، في كتابه (إحياء النحو) : « وجاء بعد ذلك بأماد الشيخ عبدالقاهر البرجاني ، فرسم في كتابه - دلائل الاعجاز - طريقة جديدة للبحث النحوى ، وتجاوز آخر الكلم وعلامات الاعراب ، وبين أن الكلام نظماً وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبارة والفهم وأنه إذا أعدل الكلام عن سنن هذا النظم ... لم يكن مهما معناه ولا دالاً على ما يُراد منه/١٦» .

وإذا كانت مادة النحو لا تتجاوز الحكم على أواخر الكلم وعلامات الاعراب ، فلا شك أن عالم النحو المحيط به خبراً الواقع على جليل حكماته ودقائقها ، لا شك يستطيع أن يتعاشي الخطا في بيانه وتعبيره ويتبين صريح الكلام من فاسده ، لكنه قادر أن يتعرّف كيف يكون إحكام الأداء واحسان التعبير وإجاده السبك ، وتمييز سيد الكلام من سفسافه ، بل قادر أن يتعرّف كيف يكون انتهاء سبيل الفصحاء في تاليف الكلام ثراً ونظمًا ، وهو ما قد أشرنا إليه في كتابنا (مسالك القول في النقد اللغوی - ص/٦٢) . . . وأثنى لدارس النحو هذا أن يعي نظام صياغة كلام العرب ومتصروف قولهم ويستشف طرق نسجم وحبكم اذا انحرف عن غرض النحو في تعرّف روح العربية ونهجها في التاليف والتعبير وتصريف المانوي فحصر النحو على بحث اثر العوامل في أواخر الكلم .

ولا شك أن البرجاني قد وفق في مذهب إليه من تجاوز ظواهر الاعراب إلى ثبيـن أسراره وأغراضه ودواعيه . فإذا نحن أفردنا مذهب البرجاني لنجعل منه مادة لعلم المانوي وحسب ، وحيـستـه عن مـادـةـ النـحـوـ ، فقد بعـسـتـهـ النـحـوـ حـتـهـ بل أـيـسـتـهـ نـسـهـ وـفـضـتـهـ مـاءـهـ وأـذـهـبـتـهـ نـدوـتـهـ .

وقد كشف الدكتور أحمد البدوي في كتابه (عبدالقادر البرجاني) عما انتهى إليه البرجاني في كتابيه (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) من أن أصل المعنى يمكن أن يعبر عنه بطرق مختلفة ، وأن لكل عبارة من ذلك معناها الخاص الذي تفترق به عن العبارة الأخرى ، لأن المبارتين لا يمكن أن تؤديا معنى واحداً ، إلا إذا اتفقا من جميع الجهات .

أقول هنا ما فات كثيراً من النحاة أن ينبهوا عليه ويقصروا عنه ، في كثير من الأحيان ، فاغفلوا وتجاوزوا حين أغرقوا في الصناعة اللغوية ، وقصروا الاهتمام على ضبط أواخر الكلم .

□ مذهب العلامة العصري في الجملة الفعلية والاسمية :

ومن عمد الى هذا الموضع من البحث ، فسلك مسلك المواري والمغزومي والسامراني ، في مخالفة العد الذي اتخذه جمهور النحاة في تقسيم الجملة الى اسمية وفعلية ، وسوى بين تقديم الفعل وتأخيره في مثل قوله (جام خالد) و (خالد جام) بل سبقهم الى ذلك الملاة الاستاذ ساطع الحصري في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب) .

قال العصري : « ومن المعلوم ان الجملة تنقسم الى قسمين فعلية واسمية ، ولكننا عندما ننظر الى الأمور نظرة منطقية ، يجب ان نفهم من تعيير جملة فعلية : الجملة التي تحتوي على فعل ، وبتعيير آخر الجملة التي تعلمنا ما حدث وما يحدث . كما يجب ان نفهم من تعيير جملة اسمية الجملة التي لا تحتوي على فعل ؛ وبتعيير آخر : الجملة التي تعبرنا عن اوصاف اسم من الاصنام وحالاته » ، وأردف : « غير أن قواعد اللغة العربية لا تلتزم هذه التعرifications والمفهومات المنطقية ، بل تخالفها كلية ، فانها تعتبر الجملة فعلية عندما تبتدئ بفعل ، واسمية عندما تبتدئ باسم . ومعنى ذلك أنها لا تصنف الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتالت منها ، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدئ بها ، دون أن تلتفت الى بقية كلماتها » ١٠٧ . »

ويمضي العصري في شرح مذهبة ونقد مذهب النحاة ، فيقول : « ونظراً لهذه القواعد الرسمية فإن عبارة : نام الولد ، يجب أن تعتبر جملة فعلية ، في حين أن عبارة الولد نام ، يجب أن تعتبر جملة اسمية ، مع أن كليهما تأتان من نفس الكلمتين وتؤديان نفس المعنى ١٠٨ . »

□ الرأي في ما جاء به العصري ومن نحا نحوه ، في التسوية بين تقديم الفعل على فاعله وتأخره عنه :

نقول في الجواب عما تقدم من كلام العصري ، ان الذي نراه هو ان قوله (نام الولد) لا يؤدي ممادى قوله (الولد نام) عند التحقيق ، ولو أ OEM ظاهر الجملتين غير ذلك . فكلك من هاتين الجملتين شأن في التعبير ، وموضع من الأداء ، لا تسد مسدة الجملة الأخرى . اذ ليس يكفي ان تتفق النماض التي تتالت منها كل من الجملتين ، بل ينبغي ان يتفق فيما موضع كل عنصر من الآخر ، وليس هذه الحقيقة وقفا على اللغة العربية . ذلك ان قوله (جام خالد) او (نام الولد) في الجملة الفعلية ، قد دل على مسند او خبر لم يطرق أذن السامع ، ولم يسبق ذكره في سياق الكلام . فاذا ذكر الخبر اي المسند انتظر السامع ذكر الذي اسند اليه ، وهو الفاعل ، واذا ذكر هذا اتصل بقلمه فأصبح جزءا منه .

اما قوله (خالد جام) او (الولد نام) في الجملة الاسمية ، فقد دل على مسند اليه قد ذكر في السياق ، ومسند او خبر معلوم يراد التوثيق من اسناده اليه . قال الامام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابه (دلائل الاعجاز) : « لا يؤتى بالاسم مُرمي من الماء والمراد الحديث قد نُوي اسناده اليه ٧٧ . » وقد اسند الغير الى ما هو موضوع الكلام ، وهو

(خالد أو الولد) وحُمل عليه دون أن يتصل اتصال الفاعل بفعله . وان ما قدمناه في الموازنة بين دلالتي العملة الاسمية والفعالية طرف من مذهب لغوي متكم للامام البرجاني قد أتى به منذ القرن العادي عشر من الميلاد ، وجاءت المذاهب العديدة تؤكز مذهبها وتؤيده .

وإنا لنسال كل من قال بالتسوية بين(خالد جاء) و (جاء خالد) ، الست تقول (خالد جاء) فتعدّث السامع عن (خالد) ، وقد جاء ذكره بينماما ويات السامع ينتظر منك أن تحدثه عنه ، فإذا أخبرته بمجيئه أزلى الشك لديه في حقيقة مجيئه ؟ كما تقول (جاء خالد) فتبادر السامع بأخبارك أيه عن مجيئه دون أن يقتضي ذلك تقدّم ذكره ، فكيف يسوّي القولان في التعبير اذا ؟ ولا تستوي العبارتان في أداء معنى ، ما لم تتفقا في البنية وتنطابقا في موضع كل جزء من أجزائهما .

وإذا كان النهاة قد ميزوا قولك (خالد جاء) من قوله (جاء خالد) فاسموا الأول جملة فعلية والثانية جملة اسمية ، ولم يتطرقوا صراحة الى الكشف عن الفرق بينهما في اداء المعنى ، وانصرفوا الى الاهتمام بالصياغة اللغظية ، فقد جاء البرجاني ليكشف عما قصر النهاة غالباً في ايساحه والافصاح عنه ، من حيث اختلاف الأداء في كل من الجملتين . ولا يخفى أن (خالد جاء) جملة اسمية مركبة ، تتالف من مبتدأ ومن خبر هو جملة فعلية ، فإذا أردت الجملة الاسمية البسيطة قلت (خالدات) . أما (جاء خالد) فهو جملة فعلية وحسب .

وانظر الى ثقوب رأي البرجاني وبعد غوره ، بل أصالة ذكره ، في الاشارة الى الموضع التي يدعى فيها الاداء الى تقديم الفاعل ليكون مبتدأ . قال البرجاني في دلائل الاعجاز (ص/٩٩) : « واعلم أن هذا الذي ينادي لك في الاستفهام والنفي من المعنى في التقديم ، قائم مثله في الخبر المثبت . فإذا أعممت الى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد الى الفاعل ، الا أن المعنى في هذا القصد ينقسم الى قسمين :

احدهما : جلي لا يشكل ، وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أن فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد . ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفعت في بابه ، ترييد أن تدعى الانفراد بذلك . . . وتزيل الاشتباه فيه ، وتزد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه ما كتبت . ومن البيّن في ذلك قوله في المثل : أتعلمني بضمّ أمّا فرضته ؟

والقسم الثاني : ألا يكون القصد الى الفاعل ، على هذا المعنى ، ولكن على انك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتنممه من الشك ، فانت بذلك تبدأ بذكره وتوجهه أولاً ، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه ، لكي تبادره بذلك من الشبهة وتنممه من الانكار ، او من أن يظن بك النلط أو التزييد . ومثاله قوله : هو يعطي الجزيل وهو يحب الشأن ، لا ترييد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحب الشأن غيره . .

ولتكنك ت يريد أن تتحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحب الشفاء دأبه ، وأن تتمكن ذلك في نفسه .. » ، ومن شواهد العرجاني على هذا القسم قوله الشاعر :

هما يلبسان المجد أحسن لبسه شعيغان ما استطاعوا عليه كلامها

قال العرجاني : « لا شبهة في أنه لم يرد أن يتصدر هذه الصفة إليهما ، ولكن نبه لهما قبل الحديث عنهما » ، وأردف : « وأيدين من الجميع قوله تعالى : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلدون - النحل / ٢٠ ، فليس المراد أنهم وحدهم هم الذين يُخلدون ، كما في المعنى الأول ، ولكن تاكيد أن الفعل ثابت لهم » .

ويشير العرجاني إلى ما يراد بتقديم المحدث عنه فيقول : « فانت قلت فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل أكد لارات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله : **هما يلبسان المجد ، أبلغ في جعلهما يلبسان ، من أن يقال : يلبسان المجد / ١٠١** » . وهو يعلل ذلك فيقول : « قلت ذاك من أجل أنه لا يتوتى بالاسم معري من العوامل إلا تحدثت قد نويت فذاك فاذافت : عبد الله فقد أشرعت قليه بذلك أنك قد أردت العديث عنده ، فإذا كان كذلك فذاك قذفت : قام ، أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطئات له وقد مرت الأعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنيوس به ، وفيه قبولة المتهب له المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لشبوته وأنفي للشبهة وامتنع للشك وأدخل في التحقق - ١٠٢/١٠١ » ، وأردف : « وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشيء بفتحة مثل اعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرّى تكثير الاعلام في التأكيد والآحكام » .

وذكر العرجاني بعض الموضعين التي لا بد فيها من الاخبار عن الاسم بالفعل ، فقال : « وما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم الا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم ، قوله تعالى : إنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَسُولُ الْمَالِكِينَ - الأعراف / ١٩٥ ، قوله تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبْهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بِكَرَةَ وَأَصْيَالًا - الفرقان / ٥ ، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبنيٍ على الاسم ، فقيل : إنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَيَسُولُ الْمَالِكِينَ ، بعدف هو ، واكتتبها تملّى عليه ، بعدف هي ، لوجود اللفظ قد نبا عن المعنى ، والممعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبعي أن يكون عليها - ١٠٦/١٥ » .

□ مذهب العرجاني في ضوء علم اللغة العديث :

وقد عقد الدكتور جعفر دك الباب في كتابه (الموجز في شرح دلائل الاعجاز ، في علم المعانى) فصولاً فريدة في مذهب الإمام العرجاني المنوي ، في ضوء علم اللغة العديث ، وأقام المواجهة بين مذهبـه ومذاهبـ هذا العلم ، فخلص من بعثـه إلى أنـ من حقـ مذهبـ العرجاني أنـ يقولـ بالمكانـ اللائقـ بهـ ، في علمـ اللغةـ العديثـ ، لاـ لأنـ مذهبـ هذاـ يكمـلـ النظريةـ

البنوية الوظيفية الحديثة ، بل لأنه يعتمد إلى ذلك على مفهوم البنية العميقه والبنية الظاهرة للجمله ، فهو يمثل بذلك اتجاه امتطورا في علم اللغة الحديث ، واحد ان مدحه العرجاني يثبت صحة تمييز علماء النحو العربي بوعين للجمله العربيه .

ولا يخفى أن البنوية في الأصل مذهب فدرلي يتعرى رؤية المجتمعات ، والأعمال الفنية واللغة ، والأدب ، من خلال البني التي تختلف منها هذه المركبات ، والبنية وحدة مستقلة قائمة على عناصر داخلية متساندة .

فالبنوية تتطلب في الأدب ، مثلاً ، تحليل النص الى بناء ، وتفكيك البنية الى أجزائها المتنقلة واعادة تركيب هذه الاجزاء ، بحيث تعود منتظمة مترابطة ، تختلف فيها الصورة باختلاف مواقع هذه الاجزاء بعضها من بعض .

وقد كان رائد هذا المذهب في القرن العشرين الفيلسوف الفرنسي رولان بارت ، ومضى في تكوينه علماء كتشوفسكي ومينيه وسوسيير وماير ، وببدأ بعد متكاملاً بفضل العالم الفيلسوف الفرنسي كلود ليشي اشتراوس .

اما علم اللغة الحديث ، او علم اللسان الحديث ، فهو العلم الذي ينظر الى اللسان اداة للبلاغ وظاهرة فيزيائية ونفسية واجتماعية عامة الوجود .

وقد تعا هذا التحور ، بل سبق الى مواضع منه الامام العرجاني ، حين ذهب الى أن اللغة انسا هي اداة ابلاغ السامع ما يجهله ، وعمد الى تحليل النص الأدبي والاهتمام به الى وحدته ، وهي الجملة ، والكشف عن بنية الجملة الظاهرة الأصلية ، والافصاح عن اختلاف الصور في الجملة باختلاف مواقع اجزائها بالتقديم والتاخر ، وميّز ما قدّم من هذه الاجزاء لفرض تحويل الصورة بما هي عليه ، وما قدّم وهو على نية التاخر فلم يدل بالصورة عن اطارها . بل كشف عن موقع كل جملة من الأداء بتنتقل اجزائها او تغيرها ، فنفي ان تتفق جملتان فيما تعنيان ما لم تتمايلان من كل وجه .

ولا يأس أن نلم بطرف من حديث العرجاني عن (التقديم والتاخر) ، وهو يتصل بما نحن بسبيله من الكلام على الفعل .

قال العرجاني : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا في - تقديم الشيء - شيئاً يجري مجرد الأصل ، غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب ، سيبويه ، وهو يذكر الفاعل والمفعول : كانوا يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم بشانه أعنى ، وان كانوا جميعاً يعلمون بيعنيتهم . ولم يذكر في ذلك مثلاً . » وقال التعمويون : ان معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بآنسان بعينه ، ولا يطالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حال الخارجي يخرج فيهيث ويفسد ويكثر من الأذى ، أنهم يريدون قتله ، ولا يطالون من كان القتل منه ، ولا يعنهم منه شيء ، فإذا قُتِل وأراد مرید الاخبار بذلك ، فإنه يتقدم ذكر الخارجي ، فيقول : قتل الخارجي زيد ، ولا يقول : قتل زيد الخارجي ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يلملوا أن القاتل له ، زيد ، جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل

بمسرthem ، ويعلم من حالمهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون اليه : متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وانهم قد كنعوا شره وتخلصوا منه » .

ثم قال : «فإن كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أن يقتل رجلاً ، وأراد المخبر أن يُخبر بذلك ، فإنه يقدم ذكر القاتل فيقول : قتل زيد رجلاً ، ذلك لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرائفه وموضع التسديرة فيه ، وبعده كان من اللظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان واقعاً بالذي وقع به ، ولكن من حيث كان واقعاً من الذي وقع منه ، فهذا جيد بالغ » .

وقد خلص العرجاني من حديثه إلى القول : «الآن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير . وود وضع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : إنه قدم للعنابة ولأن ذكره أهمل ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العنابة ، ولم كان أهمل ، ولتخيلهم ذلك قد صقر أمر التقديم وانتداب في نفوسهم ، وهوئوا الغطب فيه ، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف ، ولم تر فلتازى على صاحبه من هذا وشبهه ٨٤ و ٨٥ » .

وتبيّن نصيحة العرجاني في تقديم المفهوم من قوله تعالى : «وجعلوا الله شركاء العين - الأنعام / ١٠٠» ، ناذ قال : «ليس يخف أن لتقديم الشركاء حسنة وروعة وماخذنا من القلوب ، أنت لا تجد شيئاً منه إن انت أخترت فقلت : «جعلوا الجن شركاء الله ، وأنك ترى حالت حال من نقل الصورة المبهجة والمنظرة إلى المحسن الباهر ، إلى الشيء الغفل الذي لا تعلمي منه يكثير طائل ، ولا تصير النفس به إلى حاصل» ، وأردف : «والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديمفائدة شريقة ومعنى جليلًا» ، لا سبب إليه مع التأثير » .

وقد أوضح ذلك فقال : «وبيانه أنا وإن كنت نرى جملة المعنى ومحموله أنها جملوا الجن شركاء ، وعبدوه مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، وفيه دفع معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون له شريك لا من الجن ولا غير الجن . وإذا آخر فتيل : «جعلوا الجن شركاء له ، لم يُنْدَ ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فاما أن يُنْدَ مع الله غيره ، وإن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في المنفظمة تأخير الشركاء دليلاً عليه - ٢٢١ ، ٢٢٢» .

* * *

اقول هذا ما بدا لنا بسط الكلام فيه على (الجملة الفعلية والجملة الاسمية) ، وتأكيد صحة مذهب النها في هذه القسمة ، والرد على من أخذ عليهم ذلك من علماء العصر ، وما جاء به الإمام العرجاني في الكشف عن دقائق النظم وأسراره وتحليل بنائه وتأييد علم اللغة الحديث لصائب فكره وثاقب نظره في هذا الاتجاه ، وسنعد مقالاً لما انتهاه هذا العلم في مناصرة مذهب العرجاني ، ومن الله العون .

□ مسرد بمصادر البحث :

- ١ - مفني التبيّب عن كتب الأعرايب لابن هشام الانصاري .
- ٢ - دلائل الاعجاز لابي بكر عبد القاهر البرجاني .
- ٣ - مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الجملة الفعلية على العام (ج - ٢٧ ، ٢٧ ، عام ١٩٥٣) .
- ٤ - نحو الفعل للدكتور احمد عبد السلام الجواردي .
- ٥ - مجلة الفيصل - تكميل العناصر الأساسية في اللغة العربية للدكتور محمد خير الحلواني (المد - ٣٧ ، ٣٧ ، عام ١٩٨٠) .
- ٦ - الضراير لابي الحسن علي بن مصطفور الأندلسي .
- ٧ - اصلاح الفعل الواقع في الجمل (للزجاجي) لابي محمد عبد الله بن السيد البطليوسى .
- ٨ - الضراير وما يسوغ للشاعر دون النثار لعمود شكري الاولosi .
- ٩ - في النحو العربي للدكتور مهدي المغزوبي .
- ١٠ - الانقية لابي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك .
- ١١ - شرح الفية ابن مالك لابي الحسن علي بن محمد الشعوبي .
- ١٢ - حاشية الصياغ محمد بن علي المصري على شرح الفية ابن مات للاشعوبي .
- ١٣ - الكليات لابي البقاء الحسيني الكوفي .
- ١٤ - التفسير في انوار التنزيل للعبد الله ابي الغير بن علي البيضاوي .
- ١٥ - اعراب القرآن السمعي (اماء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب) لابي البقاء عبد الله العكبري .
- ١٦ - اعراب الحديث النبوى لابي البقاء عبد الله العكبري .
- ١٧ - مفردات القرآن لابي القاسم الراغب الاصفهانى .
- ١٨ - الفعل زمانه وابنته للدكتور ابراهيم السامرائي .
- ١٩ - الخصائص لابي الفتاح عثمان بن جنى .
- ٢٠ - المفصل لابي القاسم محمد بن عمر الزمخشري .
- ٢١ - المخصص لابي سعيد الاندلسي .
- ٢٢ - مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معاناتها لصلاح الدين الزubiلاوى .
- ٢٣ - المقرب في النحو لابي الحسن علي بن مصطفور الأندلسي .
- ٢٤ - الكتاب لسيبوه ابي بشير عمرو بن عثمان .
- ٢٥ - مفتاح العلوم لابي يعقوب يوسف الساكتى .
- ٢٦ - شرح السيد الشريف على بن محمد البرجاني على مفتاح العلوم للساكتى .
- ٢٧ - الغلاصة في النحو للشاطبي ابي اسحاق ابراهيم بن موسى .
- ٢٨ - الرسائل لأحمد بن سليمان بن كمال باشا .
- ٢٩ - احياء النحو لابراهيم مصطفى .
- ٣٠ - مسالك القول في النقد المقوى لصلاح الدين الزubiلاوى .
- ٣١ - عبد القادر البرجاني للدكتور احمد بدوي (سلسلة اعلام العرب) .
- ٣٢ - اسرار البلاغة لابي بكر عبد القاهر البرجاني .
- ٣٣ - آراء وآحاديث في اللغة والآدب لساطع المصري .
- ٣٤ - الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعانى للدكتور جعفر دك الباب .

الشاعر القطامي

سکینة الشہری

ترغب أخي القارئ في سماع درس في اللغة من استاذ يليغ يعرف
كيف يستمعي انتبهاتك، ويشد اهتمامك ؟ وهل تريد أيضاً أن تصفى
الي محلث أديب يسمعك مختارات من اجمل الشعر العربي
وأكثره فصاحة وسحرأ؟ وهل يهمك ان تنطق بالألسname="F" style="font-size: 2em; vertical-align: middle;">كل
سليمةـ كما قيدتها كتب المشابه وحفظتها بعيدة عن التصعيف والتعريف ؟
اذا كان ذلك فاقرأ معي ترجمة الشاعر القطاميـ بعلم الامام العافظ
ابن عساكر في سفر قيد التحقيق من أسفار كتابه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» :

عمرو - ويقال : عبد بن شِيمَ - بن عمرو بن عباد بن يكر بن
عامر بن أسماء بن مالك بن جُشم بن يكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب التغلبي ،
المعروف بالقطاميـ(*) شاعر من قحول الشمراء . وكان نصرانياً فاسلاً ، وقدم دمشق مادحاً
للوليد بن عبد الملك - ويقال : لعمري بن عبد العزيز .

أخبرنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد ، أنا عبد الوهاب بن علي بن عبد الوهاب ،
انا علي بن عبد العزيز قال : قرئ على أحمدين جعفر بن محمد بن سلم ، أنا الفضل بن
الخطيب بن محمد ، أنا محمد بن سلام الجمحي قال(١) :

الطبقة الثانية من الشعراء المسلمين أربعة - فذكرهم وذكر فيهم القطامي ، واسمه
عمرو بن شِيمَ بن عمرو بن عباد بن يكر بن عامر بن أسماء بن مالك بن يكر بن حُبيب بن
عمرو بن غنم بن تغلب .

أخبرنا أبو القاسم الواسطي ، أنا أبو بكر الخطيب قال : كتب الي محمد بن أحمد بن
سهل ، وحدثني محمد بن فتوح عنه .

وقرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بشران الواسطي .

أنا أبو الحسن بن دينار ، أبنا أبو القاسم الأعمدي قال : (٢)
القطامي التغلبي اسمه عمير بن شبيّم بن عمرو بن عياد بن بكر بن عامر بن أمامة ابن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب الشاعر المشهور .
قرأت على أبي غالب أيضاً ، عن أبي الفتح بن المحاملي ، عن أبي الحسن الدارقطني
قال : (٣) :

عمير بن شبيّم التغلبي سمي القطامي بقوله (٤) : [من الرجز]

يُحْطِهْنَ جانباً فجانباً حطَّ القطامي قطاً قوارباً

والقطامي اسم من أسماء الصقر ، وهو مشتق من التقطم .

قرأت على أبي محمد بن حمزة ، عن أبي نصر بن هبة الله قال (٥) :

اما شبيّم - بكسر الشين (٦) وفتح الياء التي تليها المعجمة باثنين من تحتها وسكون الأخرى التي تليها - القطامي التغلبي الشاعر، اسمه عمير بن شبيّم بن عمرو بن عياد بن بكر بن عامر بن أمامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

أبنانا أبو الفرج غيث بن علي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الله الهاشمي ، وأبو الباس بن قبيس قالا : أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا عمّي أبو علي محمد بن القاسم ، نا علي بن بكر ، عن أحمد بن الخليل ، أنا عمر بن عبدة قال (٧) :
ويروى أن عبد الرحمن بن حسان هجا قريشاً فقال : [من الكامل]

أحياؤكم عار على موتاكم والميتون خزياء للفايرز (٨)

فارسل يزيد إلى كعب بن جعيل ، فقال : اهج الأنصار ، فقال إن لهم عندي يدا في الجاهلية فلا أجزيهم بهجائهم ، ولكنني أذلك على المتفد (٩) القناع ، المتقوص السماع القطامي ، فامرقطامي ، فقال : أنا أمرؤ مسلم أخاف الله ، وأستحي المسلمين ، ولكنني أذلك على من لا يخاف الله ، ولا يستحيي من الناس ، قال : ومن هو ؟ قال : الفلام المالكي الأخطل ، فارسل إليه ، فأمره بذلك .

قرأت في كتاب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني (١٠) قال : قال المدائني :
وقال أبو عمرو :

أول ما حرك من القطامي ، فرفع من ذكره أنه قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ، فقيل له : انه بخييل لا يعطي الشرفاء ، وقيل : بل قدمها في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : ان الشعر لا يتفق عند هذا ، ولا يعطي عليه شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان فامتدحه ، فمدحه بقصيده (١٠) : [من البسيط] .

انا منحشوك فاسلم ايها الطائل وان بتلبت وان طالت بك العذيل (١١)

فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يعطيوني ثلاثة ناقات ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة ، وأن تنور لك بـ ٢٠ أوتراً وثياباً . ثم أمر بدفع ذلك إليه .
أخبرنا أبو العز بن كادش ، أنا أبو يعلى بن الفراء ، أنا أبو القاسم اسماعيل بن سعيد بن اسماعيل المدائ ، أنا أبو علي الحسين بن القاسم بن جعفر ، أنا محمد بن عجلان قال : قال ابن الأعرابي ، قال الكلابي ، قال عبد الملك بن مروان للأخطل :
من أشهر الناس ؟ قال : أنا ، ثم المدف القناع ، القبيح السماع ، الضيق الذراع -
يعني القطامي .

أخبرنا أبو القاسم علي بن ابراهيم ، ابنا أبو الحسن رضا بن نظيف ، أنا الحسن بن اسماعيل ، ابنا أحمد بن مروان ، أنا ابراهيم بن عبد الله الجزري ، أنا عيسى بن سليمان ، عن ضمرة ، عن ابن شوذب قال :
أوصى مالك بن المنذر بن مالك بنيه ، فقال : يابني ، الزموا الأباء ، واغتنموا
الفرصة تظفروا . ثم أشد عيسى بن سليمان قول القطامي^(١٢) : [من البسيط]

قد يلوك المتناني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
أخبرنا أبو العز السطيحي مناولة واذتاواقرأ على استاده ، أنا محمد بن الحسين ، أنا
المافي بن ذكرييا القاضي ، أنا محمد بن الحسن بن دريد ، أنا أبو حاتم ، عن الأصممي قال :
سأل عمرو بن سعيد القرشي الأخطل : أيسرك أن لك شمراً بشعرك ؟ قال : لا والله ،
ما يسرني أن لي بمقولي مقولاً من مقابل العرب ، غير أن رجلاً من قومي قد قال أبياتاً
حسدته عليها ، وایم الله ، انه لمدف القناع ، ضيق الذراع ، قليل السماع^(١٣) . قال : ومن
هو ؟ قال : القطامي ، قال : وما الأبيات ؟ قال : قوله^(١٤) [من البسيط] .

يمشين رهوا ، فلا الإعجاز خاذلة
من كل سامية^(١٥) العينين تعسها
حتى وردن ركبات العویر^(١٦) وقد
يمشين مفترضات والعصا رمضان^(١٧)
والعيش ، لا عيش الا ما تقر به
ان تصبجي من ابى عثمان متنجحة
والناس من يلق خيراً قائلون له
قد يلوك المتناني بعض حاجته

قال القاضي : لموري ان هذه الأبيات من رصين الشعر وبلينه ، وكلمة القطامي التي هذه الأبيات منها من أجود شعره ، وأولها :

انا من حيثوك فاسلم ايها الطائل وان بليت وان طالت يك الطول(٢١)

ويروى الطليل . وقد ذكر بعضهم ان أجود ما اتي من اشعار العرب على هذه العروض وهذا الروي هذه الكلمة وكلمة الاعشى التي اولها (٢٢) : [من البسيط] .

ودع هريرة ان الركب مرتجل وهل تعطيق وداعا ايها الرجل

وقول الأخطل : انه لمدف القناع ، المدف : المقطى ، فكانه نسبه ، الى الغسول ، وصورة عن الشرف وان يكون بارزا مبديا صفحته مجدأ وافتخارا . قال سعيم بن وثيل الرياحي (٢٣) : [من الوافر] .

انا ابن جلا وطلائع الثنایا متى اضع العمامة تعرفوني

ويقال : أغدق المراة قناعها ، كما قال عنترة (٤) : [من الكامل] .

ان تغدر في دوني القناع فانني طب باخذ الفارس المستلزم(٢٠)

واما قول القطامي : « يمشين رهو » ، فانه اراد انهن يمشين في سكون وتزدة . وقد قيل في قول الله تعالى : [واترك البحر رهوا] (٢٦) أي ساكنا . وقيل : طريقا يَبْسَا . وحكي أن بعض العرب قال في فالج (٢٧) من الابل : رـهـوـ بين سـنـامـينـ ، فقال بعض أهل المعرفة : لو كان القطامي قال هذا البيت في صفة النساء لكان قد أحسن . ومن الرهو قول الشاعر : [من البسيط] .

كانما اهل حجر ينظرون متى يروني خارجا ، طير ينادي(٢٨)

طير رأت بازيما نضح النماء به او امئه خرجت رهوا الى عيد(٢٩)

وقول عمرو بن كلثوم (٣٠) : [من الوافر] .

نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظة فتنا السابقينا

قيل : هي الجبل (٣١) . وقوله : والريح ساكرة ؛ يعني ساكنة ، واذا كانت ساكنة فهي فعل الأشياء المقودة المدومة . يقال : سكر الشيء اذا سكن . وقيل للسكر الذي هو من سكر الأودية والأنهار سكر لأنه سكر اذا سدوا وعدمت سورته . ومنه السكر من الشراب وغيره ، قيل فيه ذلك لاحتباس ما كان منطلقأ من السكران وصعة رأيه وصواب منطقه . وقيل : سكر العر اذا سكت فورته ، وهذا احتدامه وشدة كما قال الراجز (٣٢) :

جاء الشتاء واجثار القبر واستخفت الاقمي وكانت تظهر

وجعلت عين العرور تسكر

وقد قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين [لقالوا إنما سكرت أبصارنا]^(٣٤) ، بمعنى سدت ، وصعب النظر باسكانها عن الحركة التي تدرك المبصرات بها . وقرأ جمهور القراء : « سكرت » بالتشديد للتكرار اذ كانت الأبصار جماعة ، وقرأ بعضهم « سكرت » بالتحفيف ، لدلالة هذه القراءة على المعنى . ومثله : [وفتحت أبوابها] و « فتحت »^(٣٥) في نظائر لها كثيرة ، وهي مشروحة فيما تضمنته الكتب في علوم القرآن من كلامنا وكلام من تقدمنا . وبالتحفيف قرأ ابن كثير فيسن وافقه من المكين . و قوله :

ان تصبخي من أبي عثمان منجعة فقد يهون على المستنجع العمل
من الكلام الحسن في الانباء عن ان من انجع سعيه ، وأدرك ما أتى هان عليه ما كان
أنصبه وعنه وانتبه في قصد مطلوبه . ومثله قول سابق البربرى : [من الوافر]^(٣٦)

اذا ما نال ذو طلب نجاحا بأمر لم يجد الـمـ الطـلـاب

ونظائر هذا المعنى كثيرة يصعب احصاؤها ، ويمل استقصاؤها .
أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندى ، أنا أبو محمد عبد الوهاب بن علي ، أنا أبو الحسن
الطاھري قال : قرئ على أبي بكر الغنلى ، ثنا الفضل بن العباب ، ثنا محمد بن سلام
قال :^(٣٧)

وكان القطامي شاعرا فعلا ، رقيق الحواشى ، حل الشعر . والأخطل أبعد منه ذكرا ،
وأمتن شمرا . وكان زفر بن العارث أسره في حرب بينهم وبين قتلب ، فمن عليه عليه ،
واعطاه مائة من الإبل ، ورد عليه ماله^(٣٨) ، فقال القطامي في كلمة : [من البسيط] :

عن القطامي قوله غير افتاد^(٣٩) من مبلغ زفر القيسي مدحته
ولن أبدل احسانا بافساد^(٤٠) فلن أثييك بالنعماء مشتمة
وبين قومك الا ضربة الهادي^(٤١) اني وان كان قومي ليس بينهم
وقد تعرضت مني مقتل بادي^(٤٢) مثن عليك بما أسلفت من حسن
وان مدحت لقد احسنت اصفادي^(٤٣) فان هجوتك ما تمت محافظتي
ولو تعطهم أبكيت عوادي^(٤٤) اذ يعتريك رجال يسألون دمي
لا بل قدحت بزند غير صлад^(٤٥) واذ يقولون : أرضيت العداوة بنا
تبلي الشماتة اعدائي وحسادي^(٤٦) ولا كردك مالي بعد ما كربت^(٤٧)
وان قدرت على يوم جزيت به
والله يجعل اقواما بمرصاد
فلما بلغ زفر قوله قال : لا قدرت على ذلك اليوم .

وقال يمدحه في أخرى (٤٦) : [من الوافر] .

فقد احسنتَ يا زفر المتساما (٤٧)
وبعد عطائناك المائة الرتاعا (٤٨)
واكرم عنديما اصطنعوا اصطناعا
ابت اخلاقهم الا اتساما
تفضل فوقهم حسبا وبابعا (٤٩)

ومن يكن استلاما الى ثوي
اكفر بعد دفع الموت عنى
فلزم او منعمين اقل منا
من البيض الوجوه بني نفيل (٥٠)
بني القرم الذي علمت معد
وهو يقول في كلمة أخرى (٥١) :

وان بليت وان طالت بك الطيل
ما يشتهي ، ولا المخطيء الهيل
وقد يكون مع المستجل الزلل
الا وهم خير من يعفى وينتعل
رهط النبي ، فما من بعله رسول (٥٢)

انا محيوك فاسلم ايها الطلل
والناس : من يلق خيرا فائلون له :
قد يدرك المتناسي بعض حاجته
اما قريش (٥٣) فلن تلقاءهم ابدا
قوم هم امراء المؤمنين وهم
وفيها يقول :

بالغمر غيرهن الاعصر الاول (٥٤)
او كالكتاب الذي قد مسه بل (٥٥)
حتى تخلل بدر مغرب خبل (٥٦)
عين ولا حال الا سوف تنتقل (٥٧)

وما هداي لتسليم على ديمن
فيهن كالغلل الموسى ظاهرها
كانت منازل منا ما تجهمنا
والعيش لا عيش الا ما تقر به

أنينا أبو الحسن علي بن محمد العلاف وأخبرني أبو المسر الأنصاري عنه
وحأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندى، أنا أبو علي بن أبي جعفر، وأبو الحسن بن العلاف
قالا: أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران ، أنا أحمد بن إبراهيم الكندي ، أنا محمد
ابن جعفر الغرائطي ، أنا أبو الفضل الباس بن الفضل الرباعي ، أنا محمد بن عبيد الله
العتبي قال (٥٨) :

خرجت الى المرید (٥٩) فإذا بأعرابي غزل ، فملت اليه ، فذكرت عنده النساء ، فتنفس
ثم قال : يابن أخي ، وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء ، فি�شفي من الظما ، فقلت :
يا أعرابي ، صفت لي نساءكم ، فقال : نساء العي تزيد ؟ قلت : نعم ، فانشا يقول :
[من الكامل] :

لذيلهن على الطريق فبار
كان الغطا لسراعها الاشبار
واذا هم خرجوا لهم خمار

رجمع (٦٠) وليس من اللواتي بالضعي
واذا خرجن يرددن اهل مصيبة
يانسن عند بولهن اذا خلوا

قال المتبني : فترجمت الى أبي ، فذكرت ذلك ، فقال : أتدري من أين أخذ الأعرابي قوله: وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي من الطما ؟ قال : من قول القطامي (٦١) :

يقتلننا بعديث ليس يعلمه من يتّقينَ ولا مكنونه بادِ
فهن يبنن من قول يصبّن به م الواقع الماء من ذي الفلة الصادي

أخبرنا أبو الحسن بن قبيس ، أنا أبو الحسن بن أبي العميد ، أنا جدي أبو يكر ، أنا أبو محمد بن زير ، أنا إبراهيم بن عبد الرحمن الأيللي ، أنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني نا عبد الملك بن قریب الأصمی قال :

قال بلال بن أبي برد لجلسائه ذات ليلة : خبروني بسابق الشعراً ، والمصلّى ، والثالث ، والرابع ، فسكنوا ، ثم قالوا له : إن رأى الأمير - أصلحه الله - أن يخبرنا بذلك فعل . قال سابق الشعراً قول المرتضى (٦٢) : [من الطويل] .

من يلقَّ خيراً يحمد الناس أمره ومن يغُرّ لا يعلم على الغي لانما
والمصلّى قول طرفة (٦٣) : [من الطويل]

ستبلي لك الأيام ما كنت جاهلاً وياتيك بالأخبار من لم تزوّد
والثالث قول النابقة (٦٤) : [من الطويل] .

ولست بمستيق اخا لا تلمثه على شعّث ، اي الرجال المهلب
والرابع قول القطامي : [من البسيط] .

قد يدرك المتناني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

□ العواشي :

★ ملقات ابن سلام ٥٣٤/٢ ، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ ، والاشتقاق ١٩١ ، والمؤتلف والمختلف للأمدي ١٦٦ ، والشعر والشعراء ٢/٢٢٣ ، والأفانيني ١٧٥٠/٢٢٣ (ط ، دار الثقافة) ، وجمهور انساب العرب ٣٠٥ والأكمال ٤٠/٥ ، ومجمع الشعراء ٢٤٤ ، والفنانة ٢٧٠/٢٧٠ ، والأنساب ١٨٣/١٠ ، والباب ٤٤/٣ .
١ - ملقات فهول الشعراء ١/٥٣٤ باختصار في نسبة .
٢ - المؤتلف والمختلف للأمدي ١٦٦ .
٣ - المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ .
٤ - ليس البيت في ديوانه . ورواه السمعاني في الانساب ١٨٣/١٠ ، وابن الأثير في الباب ٤٤/٣ .
٥ - الأكمال ٤٠/٥ .

٦ - زاد معحق الأكمال في هذا الموضوع : « ويقال : يضمها » .
٧ - رواه ابن عاصم من هذا ابن عاصم في ترجمة عبد الرحمن بن حسان . م ٢٥٢/٤٠ - ٢٥٤ ، وقد ضرب اسم الرواوى في الأصل ، وفي ترجمة عبد الرحمن بن حسان : « قال أبو عبيدة » .

٨ - د : للعائذ ، وفي ترجمة عبد الرحمن : للعار . القابر هنا : البالي .

٩ - اتفق فناءه : ارسله على وجهه .

٩ - الأفانيني ١٧٨/٢٢ .

- ١٠ - ديوان القطامي ٢٣ . وهذا البيت من شواهد حسن الابتداء ، وقد ذكره التزويني في الإيضاح ٣٥٥
- ١١ - الطيل جمع طيلة . أطّال الله طيلته أي عمره ، والبيت من شواهد اللسان : « طول » وفيه : « الطول »
- ١٢ - هذا البيت من القصيدة المتقدم مطلعها .
- ١٣ - اراد انه لم يكن معروفاً ، ولا واسع الشهرة ، وكذلك ليس طويلاً باع في نظم الشعر .
- ١٤ - ديوانه ٢٦ من القصيدة المتقدم مطلعها ، والبيت الأول من شواهد اللسان : « لها » .
- ١٥ - في الديوان : « يتبعن سامية » .
- ١٦ - في الأصل : « الغير » ، والأشبه رواية الديوان : « العور » ، وقد ضبطت العين فيه بالضم ، وصوابها الفتح . أورد البكري بيت القطامي هذا في مادة العور - بفتح العين وكسر الواو وأخوه راه - على وزن فهل . موضع ياشام . مجم ما استعم ١٩٨١ وقال يالقوت : عور - بفتح أوله وكسر ثانية - من لرى الشام ، او ماه بين حلب وتنمر . مجمع البلدان ٤/١٨٠ .
- ١٧ - رضى : حار ، ورواية الديوان : « هن مفترضات » .
- ١٨ - في الديوان : « ساكتة » ، وهو يعني ، الساكن : الساكن . وسكت الربيع : سنت بعد الهبوب ، وليلة ساكرة :
- ساكتة لا ريح فيها .
- ١٩ - في الديوان : « ان ترجني » ، ومثله في الأساس (فتح) . رجل متبع : ذو نوح ، وفي الأساس : « مع المستبع » .
- ٢٠ - لامه هيل : اي تكل . هيلته امه هيلبا : تكلتها .
- ٢١ - تقدم : « الطيل » .
- ٢٢ - البيت مطلع معلقة الأعشى ، انظر ديوانه ٤١ (ط . ادلف هلت هوسن) .
- ٢٣ - البيت من الأسماعية الأولى ، وهو بيت شاعر معروف ، وسيجيئ شاعر مغمض مشهور الذكر في الجاهلية والإسلام ، عليه ابن سلام في الطبقة الثالثة من المسلمين ، يقال : عاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة .
- ٢٤ - البيت من معلقته ، انظر ديوانه ١٢٥ (ط . مصر بعنابة امين سعيد) .
- ٢٥ - البيت من شواهد اللسان : « لام » ، وفيه : الالم : السلاح . وقد استلالم الرجل : اذا لبس ما عليه من علة .
- ٢٦ - سورة الدخان ٤٤ آية ٧٤ .
- ٢٧ - الناج : الجمل الضخم ذو السنامين .
- ٢٨ - البيت من شواهد اللسان « نند » من فن هزو ، وقال : طير ينادي وانادي متفرقة .
- ٢٩ - يلاحظ الألواء في هذا البيت .
- ٣٠ - البيت من معلقته ، انظر شرح القصائد العشر للتبكري ٢٦٩ .
- ٣١ - كما في الأصل . وفي شرح المدلقات . « رهوة » : رهوة أعلى الجبل . وقوله : ذات حد : اي كثيبة ذات شوكه كان قال : نصبنا كثيبة ذات حد ، وقيل المعني : نصبنا حرباً ذات حد مثل رهوة ، وقد تمثل البكري بهذا البيت في مجم ما استعم ١/٦٨٠ ، وقال : « رهوة » - بفتح أوله واسكان ثانية - جبل . وقال : يالقوت : « رهوة » - بفتح أوله واسكان ثانية - قال ابو عبيد : الرهوة : الارتفاع والانحدار ، قال ابو العباس التميمي : دلت رجلي في رهوة ، فهذا انحدار - وروى بيت عمرو بن كلثوم ، وقال : - هذا ارتفاع » . مجمع البلدان ٣/١٠٨ .
- ٣٢ - البيتان الأولى والثالث من شواهد اللسان . سكر « وهو بزيارة ثالث في اللسان » . يجلل . وفيه : « اجتنال » . اجتماع وتقىض . والجثال : القبتر ، واجتنال : انتشتالتزعنه ، وتسكر : اي يلهم حرها .
- ٣٣ - في اللسان : « القبتر » . القبتر والقبيرة والقتبر والتبرة : ضرب من الطير .
- ٣٤ - سورة العجر ١٥ آية ١٥ ، و تمام الآية [قالوا : انماستكيرت ايا صارنا بل نعن قوم مسحورون] .
- ٣٥ - سورة الزمر ٣٩ آية ٣٣ .
- ٣٦ - طبقات الشعراء ٢/٥٣٥ .
- ٣٧ - انظر غير هذه العرب واسقطامي في الأفاني في الأفاني ٢٢/٢٠٣ . دار الثقافة .

- ٣٨ - انتظر ديوانه ٨٤ - ٨٧
- ٣٩ - افند الرجل افنادا : كتب في قوله . والفتى : الكتب والخطا .
- ٤٠ - حق هذا البيت ان يكون ترتيبه الرابع ، فهو اكثر مناسبة للمعنى .
- ٤١ - الهادي : العنق ، والجمع هواد ، وذلك لتقديره .
- ٤٢ - المحافظة : حفظ المهد ، ومكارم الأخلاق . أصنفه أصنافاً : اعطاء ووصله . والصفد - يفتحتين - : العطية .
- ٤٣ - اعتراه : غشيه طالباً معروفاً او حاجة . العواود : جمع عائد ، وهو الزائر عند المرض . يزيد اهل موته الذين يملون له وزرورته .
- ٤٤ - فلاح بالزند : ضرب به ليوري النار . وزند صلبه وصالبه وصلود وصلاد : هو الذي يصوت عند الضرب ولا تنخدج منه النار ، وضرب ذلك مثلاً ، يقول : كنت كريماً نبيلاً اذا اتيتكم بكم ابديت عن عنق اصلك ، ونبيل اخلاقك .
- ٤٥ - كربت : قربت وذلت .
- ٤٦ - طبقات فحول الشعراه ٥٣٧/٢ ، وتغريب الآيات فيه ، وانتظر ديوانه ٣٧ .
- ٤٧ - في الديوان : « اكرمت يا ذفر » ، استلام الى اللام : اتي ما يلومه عليه . والثوي : الضيف القيم . متعم بالشيء وامتعم به : اعطاء ما يتطلع به ، ويسير بمكانه . والمداعع هنا مصدر كالمعنى والامتناع .
- ٤٨ - الرتعاع : الابل ترتع في المرعى الغصب تذهب وتتعجب ، واحدها راتسع .
- ٤٩ - هو نقيل بن عمرو بن كلاب بن ديرية بن عامر بن صعصعة ، وهو جد ذفر الأعلى .
- ٥٠ - القرم : السيد المظم المقدم في المعرفة وتجارب الأمور . وفي اصل التاريخ واحد اصول الطبقات : « يفضل » ، ولا يصح .
- ٥١ - الآيات من قصيدة في ديوانه ٢٢ - ٣٠ ، وقد تقسم آيات منها من طريق المعانى والقصيبة في جمهرة اشعار العرب ٢٨٨ - ط . دار مصادر .
- ٥٢ - في نسخ التاريخ : « ريشا » .
- ٥٣ - رواية الديوان والجمهرة : « قوم هم ليتوا الاسلام وامتهنوا قوم الرسول الذي ما بعده دسل » .
- ٥٤ - في الجمهرة : « اتني اهتديت لتسليم على مني » وفي الديوان : « اتني اهتديت » وتحت « بالقرن » في اصل التاريخ « بالقرن » رواية نائية . الدلمن : مفردتها دلمنة ، وهي اثار مذاق القوم . والقرن : موضع .
- ٥٥ - في الجمهرة : « كالعدل » ، والاتفاقية في الديوان : « البطل » . الفلة : بطيئة يخشى بها جفن السيف ، تنتش بالذهب وغيره ، والجمع خلل وخال . قال ذو الرمة : « لية موحسنا طلل يلوح كانه خلل » .
- ٥٦ - في الجمهرة والديوان : « كانت مذاقات منا قد نعل بها حتى تغير دهر خائن خبل » ، تجهيزاته وتجهيزاته كجهمه ، اذا استقبلته بوجه كريه . قال الراجز : « وبذلة تجهيز الجهموا اي تستقبله بما يكره ، الجهم : العاجز الضعيف ، ودهر خبل : ملتو على اهله لا يرون فيه سوروا ، وقد خبله النهر . اما المقطنان : الثانية من الشطر وقبل الاخرية فلم تتعجم في الاصول ، واضطرب اعجمان الشطر كله في النسفة الاخرى .
- ٥٧ - في الديوان والجمهرة : « ولا حالة الا استنقذ » .
- ٥٨ - الغير في روضة المعين ٤٢٤ .
- ٥٩ - المريد : موضع في البصرة به كانت مفاخرات الشعراء ، ومباليس الخطباء . معجم البلدان ٩٨/٥ .
- ٦٠ - رجع : مفردتها رجاج ، وهي المرأة الشقيقة العجوز ، وكانت تمدخ المرأة بذلك .
- ٦١ - البيتان من قصيده في مدح ذفر بن العارث والتسقى قسم بعض آياتها ، وانتظر ديوانه ٨١ ، وفي الاغانى : « عن الشبيبي قال : قال عبد الملك بن مروان وانا حاضر للاخل » : يا اخل ، اتعجب ان لك بشعره شعر شاعر من العرب ؟ قال : اللهم لا ، الا شاعر متألق القناع ، خامل الذكر ، حديث السن .. ولو وددت اني سبقته الى قوله ، لم ذكر البيتين .
- ٦٢ - هو البيت ٢٢ من المفضلية ٥٦ ، والقصيبة مع مناسبتها في الاغاني ١٣٩/٦ (ط ، دار الكتب) . والبيت ٧ آيات من القصيدة في الشعر والشعراء ٢١٤ - ٢١٥ ، وهو من شواهد اللسان ، غوى ، وبالبيت مغروم بهذه الرواية .
- ٦٣ - ديوانه ٤٨ .
- ٦٤ - ديوانه ٧٨ .

ثابت بن قرة أبوالحسن

٢١١ هـ = ٩٠٠ م - ٢٨٨ هـ = ٨٢٦ م

منجزاته ، آثاره ، مصادر ترجمته

زهير حميدان

ثابت بن قره بن مروان (في رواية : ابن هارون ويقال ابن زهرون)
ابن ثابت بن كرايا بن ابراهيم بن كرايا بن ماريونس بن سالميونس (في رواية:
ابن سالامانس وفي أخرى ابن سالايليونس) العرائي الصابيء^(١) رياضي طبيب
حكيم فلكي منطقى فيلسوف^(٢)

ولد بعران^(٣) عام ٢١١ هـ في رواية ابن أبي أصيحة، وفي رواية طوكان سنة ٢٢١ هـ = ٨٣٥ م ، وفي رواية فروخ ٢١٩ هـ = ٨٣٤ م . اشتغل في الصيرفة في مستهل حياته ، ثم انتقل إلى بغداد وانصرف إلى العلم ، وقرأ على محمد بن موسى فوصله بالمتضدد^(٤) وأدخله في جملة المنجمين ، وحظي عنده وكثرة تعباً (بابي الحسن) . يروى عن المتضدد قوله ثابت بينما كانا يتنزهان في بستان الخليفة الفردوس (وقد اتاكا على يد ثابت ، إذ نظر الخليفة يده من يد ثابت بشدة ففزع ثابت فان الخليفة كان مهيباً جداً ، فلما نظر يده من يد ثابت قال له : يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها وليس مكناً يجب أن يكون ، فإن العلماء يتعلمون ولا يُعلمون) .

كان ثابت يجيد السريانية واليونانية ناهيك عن العربية التي كان يحسن التقليل والترجمة إليها . وقد عده ساردون من أجواد المתרגمس ، وكثيراً ما كان ينقل إلى أبناء موسى بن شاكر كتب علماء اليونان وبخاصة إلى محمد الذي قيل انه استصعب ثابتًا منه إلى بلاد الروم سعياً وراء الكتب العلمية لنقلها إلى العربية .

توفي ثابت في بغداد عام ٢٨٨ هـ (ولا خلاف على سنة وفاته بين المؤرخين كستة ولادته) .

□ منجزاته وابداعاته :

- من الاؤائل العرب الذين مهدوا لابداع علم(التكامل والتفاضل) .
- اوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره .
- حل بعض المعادلات التكمبية بطرق هندسية استعمل بها بعض علماء الغرب .
- استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسعة دقائق وعشرين ثوان . فكان ما وصل اليه يزيد على طول السنة الحقيقية بمقدار هو أقل من نصف ثانية . (فروخ ص ٢٩٧)
- له في الهندسة التعليمية ابتكارات لم يسبق اليها أحد قبله (فقد وضع كتاباً في الجبر بين فيه علاقة الجبر بالهندسة ، فكيفية الجمع بينهما) .
- وضع قاعدة عامة لايجاد الأعداد المتعابة .
- أول شرقى بعد الصينيين بحث في المربعات السحرية .
- يقال انه قسم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، بطريقة تفاصير الطرق التي كانت معروفة عند اليونان .
- استعمل الجيب والخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة (شكل المفنى) او دعوى الجيب (اي نسب جيوب أضلاع المثلثات العادلة من تقاطع التقسي العظام في سطح الكرة كنسبة جيوب الزوايا المتررة بها) .

□ الكتب التي أصلحها ثابت ونقلها الى العربية في الفلك (والرياضيات) :

- كتاب تحرير كتاب المفروضات : نسخه الخطيه : في ايران - جامعة طهران برقم (٢٤٣٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٢٠/مجموع) وفي مكتبة ايا صوفيا (٢٢٦٠/ف/٢٦١) من عام ٨٤٥ هـ . وهو ٣٦ شكلًا وفي بعض النسخ ٣٤ شكلًا . وفي جامعة كولومبيا - نيويورك ضمن مجموعة برقم (٣٠٦/شرقى / MS) وقد نشرته دائرة المعارف بعيدين آباد سنة ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ ضمن رسائل لبني موسى والطوسى .
- تحرير كتاب ماخوذات (المسلمات أو المصادرات) أرشميدس : ترجمة ثابت بن قرة في جامعة طهران برقم (٢٤٣٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٢٠/مجموع) وفي ايا صوفيا برقم (٢٢٦٠/ف/٢٦١) من عام ٨٤٥ هـ .
- ترجمة كتاب المدخل الى علم العدد (النيقوماض الجباريسي او الجرجي ت . نحو عام ١٣٥ م) . اعنيت بتصنيعه ونشره الاول (وليهم كوشيسيلسكي) عام ١٩٥٩ م وصدر عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت تحت عنوان (بحوث ودراسات) بادارة معهد الآداب الشرقية في بيروت .

- رسالتان لأرشميدس في الدوائر المت互اشرة : (يظن أن الناقل هو ثابت بن قرة) في خدابخش - بنته برقم (٢٥١٩/ف) من عام ١٣٢٦هـ . تحتويان على عشرین شكلاً هندسياً . نشرتهما في حيدر آباد - دائرة المعارف الإسلامية عام ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م .
- تعريف كتاب المعلميات لاقليديس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قرة وهو ٩٥ شكلاً . نسخة الخطية : من آيا صوفيا برقم (٢٢٥٨/ف) من القرن ٦هـ . وفي احمد الثالث - استنبول برقم (٣٤٥٢/ف) في عام ٦٢٢هـ . وفي سليم آغا - استنبول برقم (٧٤٢/ف) من عام ٦٢٢هـ .
- تعريف كتاب المناظر لاقليديس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قرة وهو ٦٤ شكلاً . نسخة الخطية : في سليم آغا برقم (٧٤٣/ف) من عام ٦٧١هـ . وفي آيا صوفيا برقم (٢٦٠/ف) من عام ٦٧١هـ .
- مقالة في برهان المصادر المشهورة من اقليديس: يبحث في الزوايا من قطع مستقيم لستقيمين لا يقتربان ولا يبعدان (متوازيان) . في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها عام ١٣٠٥هـ .
- رسالة في تصحيح مسائل الجبر بالبيان الهندسي : في آيا صوفيا برقم (٢٤٥٧/ف) من عام ٨٦٠هـ .
- اصلاح كتاب أوطولوقس في الطلوع والغروب : في جامعة كولومبيا - نيويورك ضمن مجموعة برقم (٣٠١/شرقي) .
- الكرة المتحركة (أوطولوقس) : في أوقاف بغداد برقم (٥٤٨٨/١ / مجاميع) كتبها محمد باقر مرتضى عام ١١٠٢هـ . وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها عام ١٣٠٥هـ . ونسخة بعنوان (تعديل كتاب الكرة المتحركة لأوطولوقس) اصلاح ثابت بن قرة . في جامعة كولومبيا برقم (٥٢/شريقي / MS)
- رسالة في العجالة المنسوبة الى سقراط في الربيع وقطره : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام ١٣٠٥هـ . وفي آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٥) من ص (٤٠ - ٤١) .
- المقالة الخامسة من كتاب ابولونيوس في المخروطات : نقلها ثابت وأصلحها بنو موسى . طبعت مع مقدمة بالألمانية للمستشرق (تيلكسن) في ليبسك عام ١٨٨٩م .
- رسالة في كيف ينبغي أن يسلك الى نيل المطلوب من المعانى الهندسية : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام ١٣٠٥هـ . وفي آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (٤ - ١) .
- اصلاح المقالة الأولى من كتاب ابولونيوس في قطع النسب المحدودة ، ولم يصلح المقالة الثانية لأنها غير مفهومة .

□ اثاره في الرياضيات :

- مختصر في علم الهندسة .
- رسائل في الأصول الهندسية (المبادئ) . نشرتها دائرة المعارف المشتركة - حيدر آباد عام ١٣٦٦ هـ = ١٩٥٣ م .
- رسالة في الدوائر المماسة لأرشميدس: نشرتها وزارة المعارف - حيدر آباد - عام ١٣٦٦ هـ .
- كتاب في المثلث القائم المزاوية .
- كتاب في قطع الأسطوانة : في أيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٢٢/٢) من ص (٤٠ - ٤١ - ٤٢) .
- كتاب في أعمال وسائل اذا وقع خط مستقيم على خطين .
- كتاب في أن الخطين المستقيمين اذا خرجا على اقل من زاويتين قائمتين التقى في جهة خروجهما .
- في الشكل المقرب بالقطاع : في دار الكتب المصرية برقم (٤٠) وفي المجزاير برقم (١٤٤٦) وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨ / عام) من عام ١٣٠٥ هـ . وفي أيا صوفيا برقم (٤٨٢٢/٧) وفي سرای أحد الثالث برقم (٣٤٦٤/١٢) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٣٧) وفي برلين برقم (٥٩٤٠) وفي الأوسكوريريا برقم (٩٢٧/٢) مصورة بمهد التراث بحلب برقم (١٣٧٩) / مجموع . ترجم الكتاب الى اللاتينية (جيرارد الكريموني) .
- كتاب في قصة الأرض .
- كتاب في مقدمات أقليدس .
- كتاب في أشكال أقليدس .
- كتاب في استخراج المسائل الهندسية .
- المدخل الى كتاب أقليدس : ويعد من أهم كتبه وأجودها .
- كتاب في المربع قطره .
- كتاب في الأشكال المسطحة وسائل البسط والأشكال .
- كتاب في قطع المخروط المكافئ : في أيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٢٢/٢) من ص (٢٦ ب - ٣٦ ب) . وفي مشهد رضوي برقم (٥٥٩٣) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٢٥) .
- كتاب في مساحة الأجسام المكافئة : في باريس برقم (٢٤٥٧/٢٤) .
- كتاب في مساحة قطع الخطوط المسماى بالكافئ : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨ / عام) في عام ١٣٠٥ هـ .

- مقالة في عمل شكل مجسم ذي أربع عشرة قاعدة تعيط بها كرة معينة : في الظاهرية برقم (٥٤٥٧) نقلها مصطفى فوزي عام (١٠٩٠ هـ) عن نسخة كتبها ابراهيم بن هلال ابن ابراهيم بن زهرون الصابي العراقي في ذي الحجة عام ٣٧٠ هـ من دستور أبي الحسن ثابت . وفي كوبيللي برقم (٩٤٨/٢) كتبها ابراهيم بن زهرون من نسخة بخط ثابت بن قرة عام ٣٧٠ هـ .
- مقالة في تصحيح سائل الجبر بالبراهين الهندسية . في آيا صوفيا برقم (٢٤٥٧) . وفي أحمد الثالث ضمن مجموعة برقم (٣٠٤١) من ص (٢٤٥ - ٢٤٦ ب) تم نسخها نحو عام ٧٠٠ هـ .
- مقالة في الهندسة الثقها لاسماعيل بن يليل .
- جوامع كتاب نيقوماكس (الجرشيني) في الأرشاطيقي (الحساب) .
- رسالة في العدد الوفق : (أي الأعداد المترافقـة . وهي التي بينها عامل مشترك) .
- رسالة في الأعداد المتعابـة : في آيا صوفيا برقم (٤٨٣/٧٦٥ ف) كتبت بدمشق عام ٦٦٦ هـ . مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٦/١٣٩) نشرها د. أحمد سليم سعيدان بعدم من الجامعة الأردنية - عمان عام ١٩٧٧ م .
- في مساحة الأشكال المسطحة والمقسـة : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (٤٢ - ٤٥ آ) .
- مقالة في صفة الأشكال التي تحدث بعد طرف ظل القياس في الأفق في كل يوم وفي كل بلد: في الاسكوريال برقم (٥/١٥٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٣٨٠/١٢٨٠) مجموع وآخرى ضمن مجموعة برقم (٤/٩٦٠) تم المفrag من نسخها في ١١ رمضان عام ٢٧٤٢ هـ = ١٨ شباط ١٢٤٢ م . وفي غزيري برقم (٩٥٥) .
- رسالة في التحليل والتركيبـ: نشرها مع رسائل ابراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة د. أحمد سليم سعيدان في الكويت عام ١٩٨٣ م .

□ في الفلك :

- كتاب في سنة الشمس بالأرصاد : في المكتب الهندي العربي برقم (٧٣٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٣٦/٢٣٦) مجموع . وأخرى ضمن مجموعة برقم (١٢٧٠/١) من ص (٩ - ١) .
- كتاب تسهيل قراءة المسطويـ: في مجلس شورايـ - طهران برقم (٤٦٤٢/٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٣٣) .
- المدخل الى المسطويـ: لم يتم وينـد من أهم كتبـ وأجودها .
- كتاب في أشكال المسطويـ .
- كتاب في حالة الفلك .
- كتاب في رؤية الأهلـة في الجنـوب .

- كتاب في ابطال العركة في فلك البروج وسرعتها وتوسطها بحسب الموضع الذي يكون فيه الفلك الخارج من المركز . في باريس ضمن مجموعة برقم (٢٤٥٧) من ص (٥٦-٥٩) .
- كتاب في علم ما في التقويم بالمحنون .
 - مختصر في علم النجوم .
 - كتاب في معنة حساب النجوم .
 - مقالة في حساب خسوف الشمس والقمر .
 - مقالة فيما يظهر من القمر في آثار الكسوف وعلاماته .
 - مقالة في علة كسوف الشمس والقمر : توفي ثابت قبل اتمامه .
 - كتاب فيما أغلقه ثاون في حساب كسوف الشمس والقمر .
 - كتاب في طبائع الكواكب وتأثيراتها .
 - جوابان عن كتابي محمد بن موسى بن شاكر اليه (أي إلى ثابت) في أمر الزمان .
 - رسالة في كيف ينبغي أن يسلك إلى نيل المطلوب من المعانى الهندسية : وفيها ذكر آثار ظهرت في الجو ، وأحوال كانت في الهواء مما رصد بنو موسى وأبو الحسن ثابت بن قرة . في آياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (٤-١) .
 - في حركات النبرين : في اكسفورد – بودليان ضمن مجموعة برقم (٣/ Thurst) من ص (١٠٣-١٠٢) .
 - في حركة الأفلاك : في الظاهرية برقم (٤٤٨٩) مصورة بمعهد مالتراث بجلب برقم (٤٤٨/٢٢) .
 - كتاب في ذكر الأفلاك وحلقاتها وأدوات حركاتها ومقدارها ومسيرها : في آياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٨) من ص (٥١-٥٠) . وفي القاهرة :
 - طلمت ضمن مجموعة برقم (٣٧٧) من ص (٦٧-٦٨) .
 - في حساب رؤية الهلال : في المكتبة البريطانية ضمن مجموعة برقم (Rich/١٣/٧٤٧٣) Add من ص (١١٣-١٠٨) .
 - من كلام ثابت بن قرة في الهيئة : في آياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (٥٣-٥٤) .
 - كتاب في آلات الساعات التي تسمى رخامتات : في دار الكتب المصرية برقم (١٠٤٧) /١ ميقات) في آخرها بعض الجداول والرسوم . منسوجة عن نسخة لأبي الحسن ثابت بن قرة رحمة الله ، لم تكن يخطه عام ٧٧٠ هـ .
 - العمل بالاسطرباب : في القاهرة – طلمت ضمن مجموعة برقم (١٥٥/ميقات) من ص (١٢-١) .

- كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس أن به استخرج من تقدسه مسارات القمر الدورية . وهي المستوية : في كوبيرلي - استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٤٨/٢) من ص (١٠٧-٩١) نسخها ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي العراقي عام ٣٧٠ هـ .
- كتاب في أشكال الخطوط التي يسر عليها ظل المقياس .
- كتاب في المتعن وترجمة ما استدركه على جيش في المتعن (جيش بن عبد الله المروزي) .
- جواب عن سبب الخلاف بين زيج بطليموس وبين زيج المتعن .
- كتب عدة في الأرصاد : باللغة العربية والسريانية .

لـ في الطب :

كتاب في الطب (الذخيرة) : يقول ابن أبي اصبيعة انه التفه او جمهه لابنه سنان بن ثابت . بينما ينفي القفعطي في اخبار العلماء ص ٨٤ ان يكون ثابت بن قرة . ويرجع د. سامي حمارنة في تاريخ تراث العلوم الطبية من ١٧٨ ان (الذخيرة في علم الطب) منتحل لثابت ويقول : انه من تصنيف احد تلامذته او اتباعه . ويسوق حجته قائلاً : (انه وردت اشارة فيه - اي في كتاب الذخيرة - الى كتاب (الملكي) للمجوسي الاهوازى الذي التفه للملك عضد الدولة (٢٣٨) هـ = ٩٨٣ م - ٢٢٢ هـ) وهذا الكتاب الملكي قد تم تأليفه بعد موت ثابت بن قرة باكثر من نصف قرن . فلا يعقل ان يكون كتاب الذخيرة له (٠٠) وهناك دراسة للأستاذ عبيد (١٩٦٦) ترجح أنه ثابت ابن قرة . ويشتمل على ما يحتاج اليه في علم الطب ويختلف من مقالة .

نسخه الخعلية : في الظاهرية برقم (٢/ط - رقم قديم/١٧٦٨) نسخت في رجب عام ١١٤٠ هـ . مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢/٢٢٦) ونسخة ناقصة في مكتبة د. حداد - بيروت برقم (٩) ونسخة في مكتبة علي حسن - بالموصل . وفي أحد الثالث برقم (٢٠٩٨/ف/١١٥٥) مصورة بمعهد انتشار بحلب برقم (٩٥٠) كتبها اسماعيل بن يوسف عام ٦٢١ هـ . واخرى ناقصة في اخرها برقم (١١٥٤/٢٠٧٢/١) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١١٥٤) . وفي بورصة تركية برقم (١١١٧) . وفي شهيد علي - ايران برقم (٢٠٢٨) وفي داششكده - طهران برقم (٧٩٣٠) . وفي مجلس شورایي برقم (٥٠٢) واخرى بدون رقم مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٥٢) . وفي رامبور برقم (٤٦٧/١) . وفي جستربيري - دبلن برقم (٤١٢٨) . وفي الاسكوربيا بال ضمن مجموعة برقم (٨٧١) من ص (١ - ١١٢) . وفي جامعة بيل - نيواهنق - أمريكا ضمن مجموعة كتبت في القرن الثامن عشر الميلادي .

حق كتاب الذخيرة د. جورج صبحي المصري - القاهرة عام ١٩٢٨ م . وصدر في بيروت عام ١٩٢٨ عن دار المدينة .

الكتاب : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧١٦) .
 الروضة في الطب : في اكسفورد - بولنديان ضمن مجموعة برقم (١٣٤/١) من ص (٦٥ - ٦١) .
 معرفة النبض : في طهران برقم (٤٦/٣١٩٠) .

- رسالة في توالد الحصى : في برلين ضمن مجموعة برقم (٩٣٥٨) من ص (٤١-٣٩) .
- في البياض الذي يظهر في البنين : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧٤٢) من ص (١٤٧ ب - ١٥٢ ب) .
- كتاب في البيطرة في كوبنهاجن - استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٥٩/٢) من ص (٥٠ ب - ٨٦ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في قوى الأدوية المسهلة : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٢٧ آ - ٢٣ ب) .
- جوامع كتاب سوء المزاج المختلف بلاليتوس: في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٣٨ آ - ٣٤) .
- جوامع كتاب جالينوس في الذبوب: في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٣٨ ب - ٤٥ ب) وفي أكسفورد - بودليان برقم (٢١٥/٢) .
- جوامع كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأي بقراط : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٤٥ ب - ٥٥ آ) .
- جوامع كتاب جالينوس في تشريح الرحم : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٥ آ - ٥٨ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في المولودين لسبعة أشهر : في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٨ ب - ٦٢ آ) .
- جوامع كتاب جالينوس في أصناف الأمراض: في آيا صوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٦٢ آ - ٦٥) .
- مسائل طبية .
- جوامع تفسير جالينوس لكتاب أبقراط في الأهوية والمياه والبلدان .
- جوامع كتاب الأدوية المنقية لجالينوس .
- جوامع كتاب المرة السوداء لجالينوس .
- كتاب الأعضاء الآلة لجالينوس .
- جوامع كتاب الفصد لجالينوس .
- جوامع كتاب الأمراض الحادة لجالينوس .
- جوامع كتاب الكثرة لجالينوس .
- جوامع ما قاله جالينوس في كتابه في تشريف صناعة الطب .
- اختصار كتاب النبض الصغير لجالينوس .
- اختصار كتاب أيام البحران لجالينوس .
- كتاب وضع المفاصل والتقوس .

- كتاب في الوقفات التي في السكون الذي بين حركتي الشريان المتضادتين : كتبه بالسريانية ورد فيه على الكلدي . نقله إلى العربية عيسى بن أسيد النصراني . وأصلحه عربياً ثابت العربي – أي ابن سنان – وقد ردَّ على ثابت بعد موته اسحاق بن كرنيب .
- كتاب في سائلة الطبيب للمريض .
- كتاب في الصفرة المارضة للبدن وعدد أصنافها وأسبابها وعلاجها .
- رسالة في الحصبة والجدري .
- كتاب البصر والبصرة في علم العين ومداواتها : في المكتبة البريطانية برقم (١١٧٧٢ شرقى) .
- كتاب تدبير الصحة .
- كتاب إلى ابنه سنان في العث على تعلم الطب والعكمة .
- كتاب الخاصة في تشريف صناعة الطب وترتيب أهلها وتمييز المنقوصين منهم بالنقوص والأخبار أن صناعة الطب أجل الصناعات: قدمه للوزير أبي القاسم عبد الله بن سليمان .
- كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية : بالسريانية :
- كتاب في تشريح بعض الطيور : ربما (طالع العزين) من الطيور .
 - مقالة في صفة كون الجنين .
 - رسالة في اختيار وقت لسقوط النطفة .
- في علوم أخرى :
- كتاب في مراتب العلوم .
 - مسائل مشوقة في العلوم .
 - كتاب في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك .
 - كتاب في القرسطون (ميزان الذهب) .
 - أشكال في العigel .
 - كتاب في أن سبيل الأئتال التي تعلق على عمود واحد منفصلة هي سببها اذا جملت ثقلاً واحداً مشبوتاً في جميع العمود على تساوي .
 - كتاب في سبب كون الببال .
 - كتاب في الانواء .
 - رسالة في توليد النار بين حجرين .
 - كتاب في السبب الذي من أجله جملت مياه البحر مالحة : في أحمد الثالث – استنبول – برقم (٣٤٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٢/مجموع) وأخرى برقم (١٤٤٩/مجموع) .

- كتاب في آلة الزمر .

- كتاب في الموسيقا .

- رسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقا .

- رسالة الى علي بن يحيى النجم ، فيما أمر باباته من أبواب علم الموسيقا .

□ في المنطق والفلسفة والدين والأخلاق :

- اختصار المنطق .

- جوامع كتاب أثاث الوطن العربي الأولى .

- كتاب أغاليط السفسطانيين .

- اختصار كتاب ما بعد الطبيعة .

- رسالة في مذهب الصابئين وديانتهم .

- رسالة في الطهارة والنجاسة .

- رسالة فيما يصلح من العيوب للضحايا وما لا يصلح .

- كتاب في الأخلاق .

- مختصر في الأصول من علم الأخلاق .

* * *

□ العواشي :

الصابئة SABIA : الصابيون : [Sabaeans] :

١ - في اللهقة : يقال صبا يعني برد وطلع ، وكذلك صبا يعني ماء وذاغ ، كما يقال صبا الرجل اذا تركه دينه ودان

بآخر ، فهو صابيء ، وهو صابيون ، وفي الاصلاح الشائع (الصابية) (لوم يعبدون الكواكب ، او يعبدون الملائكة ، ويزعمون انهم على ملة نوح ، كما قيل لهم قوم ليسوا بيهود او نصارى ولا دين لهم ، وفي قول آخر : الصابيون يقولون لا الله الا الله ، وليس لهم دين ولا كتاب ولا نبي .

ولعل من اسباب هذا الاخلاق ان القرآن اشار الى الصابية وقرنهم باصحاب الكتب السماوية . وقد داشت الصابية بعد أيام الدولة الاسلامية في حرب شمال سوريا وبغداد من اتجاه العراق ، ومنهم من احتفظ بعقيدته حتى اليوم واحاطتها ينبع من السرية بمعنى ان تشر تعاليمها يجعلها عرضة للتغوير والتغيير والزوال على مر الايام ، لهذا فالترعير بالصابية يستلزم الفرق بين الصابية كما ورد في المفهوم نصا في القرآن الكريم وبين مقدمة الصابية التي عاشت وما زالت في ظل الدولة الاسلامية .

ان الصابية الذين يعنفهم القرآن هم حنفاء موحدون ، وانهم سبقوا اليهود الذين سبقوا التنصاري الدين دافعوا بالاجيل قبل تبديله .

والصابية في المصطلح التاريخي هم طائفة دينية كانت وما زالت تعيش في العراق لا سيما في حرب ، ومنها انتقلت الى بغداد وغيرها منذ العصر العباسي الاول ، ومن هؤلاء الصابية من دخل في الاسلام ، ومنهم احتفظ بعقيدته .

انتقل بعض الصابية النابهين الى بغداد وقاموا بنقل التراث اليوناني والسيرياني الى اللغة العربية .

اصرل الخليفة الطائع سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م تحت تأثير كاتبه ابي اسحق بن هلال الصابيري . وهذا يبيح للصابية مباشرة عقidiتهم في حرية تامة .

عن : (القاموس الاسلامي) بتصرف

٤ / ٢٢٢

٢ - حربان : مدينة قديمة قاعدة بلاد مصر شمالي سوريا فتحها عياض بن ذنم زمن عمر بن الخطاب : انظر يالوقت .

٣ - المعتقد : الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م - ٢٨٩ هـ = ٩٠١ م) .

مصادر ترجمتها :

- هونكه : المقيدة والمفردة - ١٢٠ - ١١٩ - ١٦٣
- لوكيك : تاريخ الطب ٤١١/١ - ٤١٢ - ٦٧٧ - ١٦٨/١ - ٥٩٤/١ - ٥٩٥ - ٦٠٠ - ٣٤ - سوتر ٣٤ - ٣٨
- مقدمة سارتون : ٥٩٤/١ - ٦٠٠ - ٦٠٠ - سوتر ٣٤ - ٣٨
- سمث : تاريخ الرياضيات ٤٠٥/٢ - ٤٠٥ - ٦٨٥ - ٦٨٥
- كاجوري : تاريخ الرياضيات ١٠٤ - ١٠٤
- بول : مختصر تاريخ الرياضيات ١٥٩ - ١٥٩
- نيلينو : علم الفلك ١٣٥ ، ١٢٠ ، ٢٢٥ - ٢٢٥
- فيلمن : نايت بن فرة : حياته ومؤلفاته - سلسلة مقالات عن تاريخ العلوم عند العرب - المجلد الثاني - المائة ١٩٧٠
- ماكس بايرهوف :تراث الاسلام - العلوم والطب ٤٨٣ ، ٥١٠
- ترجمة فتح الله
- كارانتي فو : تراث الاسلام - الفلك والرياضيات ٥٩٦
- وحاشية (٤) ، ٥٦٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٨
- فارمر : تراث الاسلام - الموسیقا ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٤
- ترجمة جرجس فتح الله
- فارمر : تاريخ الموسيقى العربية : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٣
- فيبك : بحث في نظرية أشأها نايت بن فرة إلى الصاب النظري عند اليونان - نشره عام ١٩٥٢ م
- روسكا : الموسوعة الاسلامية - مجلد ٦ ص ٢٧١ - ٢٧١
- اهلورد : ٣١٩/٥
- رسولان : فهرس المخطوطات العربية ٤٣٢ - ٤٣٢
- شبوغ : فهرس المخطوطات المصورة - القاهرة - طب ٢/٣
- شبوغ : كوتشن ٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٨٨
- الرياضيات ١٣/٣/٣ ، ٣٣ ، ٣٠ ، ١٦ ، ١٣ ، ١٣
- العابدي : فهرس مخطوطات الظاهرية - رياضيات ، ٧٦
- العابدي : فهرس مخطوطات الظاهرية - رياضيات ، ٧٧ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ - ١١٥ ، ١١٦
- خوري - فلك ١٣ ، ٣١ ، ٣١ ، ٣١ ، ٣١
- د. حمارنة - طب : ٢٣٠ - ٢٣٥
- صواف - العلوم ٢١٤ - ٢١٧
- د. حداد وبيتريليدز: فهرس مكتبة، د. سامي حداد ٤١٤ - ٤١٥
- كوركيس هواد : جولة في دور الكتب الامريكية ٩٤،٩١،٨٣
- الجبوري : فهرس مخطوطات اوقاف بغداد ١٥٥/٤
- د. ششن : نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركية ٣٩٥/١
- هيرست ابن النديم ٢٧٧ - ٣٠٠ - ٢٩٥
- ابن خلakan : وفيات الاعيان ١٢٤/١ - ١٢٦ - ١٢٦
- ابن تكير : البداية ٨٥/١١
- البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ٢٠ - ٢١
- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ٢٩٥ - ٢٩٦
- القسطنطى : اخبار العلماء ١١٥ - ١٢٢
- ابن جبل : طبقات الانطاie ٧٥
- البالىعى : مرآة الجنان ٢ - ٢١٥ / ٢١٧
- ابن العواد : شذرات ٢ / ١٩٦ - ١٩٦
- المعلم : عقود الغور ١١٨ - ١١٨
- الفوانساري : روضات الجنان ١٤٢ - ١٤٢
- صاعد : طبقات الامم ٥٧
- حاجي خليفة: كشف شذرات ٢١٨ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٥
- اليغدادى : ايضاح ٤١/١
- المسعودى : التلبية والافتراق ٧٧ ، ٧٣ ، ٧٧
- حكالة : معجم المؤلفين ١٠٢/٣
- الزركلى : الاعلام ٨١/٢ - ٨٢
- د. عيسى : معجم الانطاie ١٥١٣ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٥
- طوفان : تراث العرب ١٦٥ - ١٧٥ وصفحات متعددة والفالكون العرب ٥٧
- فروخ : تاريخ العلوم ٢٠٠ - ٢٠٠ ، و تاريخ الفكر ٢٥٧
- د. يحيى : موسوعة المستشرقين ٢٩٤ ، ٢٩٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٧
- د. سامي عمارنة : تاريخ تراث العلوم الطبية ١٧٨ - ١٨١
- سركيس : معجم المطبوعات ٦٥٣/١ - ٦٥٤
- د. عيسى : تاريخ النبات ٤٧ - ٤٨ - رياضيات بهاء العاملى وكتابه خلاصة الحساب : ٦٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٧٠ ، ١٧٠
- د. عيسى : حققه وعلق عليه د. جلال شوقي - منشورات مهد التراث بطلب - ١٩٧٦
- د. سعيدان : قاموس مصطلحات الرياضيات الابتدائية ٨
- د. طويل : من تراثنا العربي ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٧ ، ٨٧ ، ٨٧ ، ٨٧
- منصور جرادق : ماثر العرب في الرياضيات والفلك ١٨
- بروكلمن : ٢٤٢/١ (٢١٧) ، ٥١١ ، ملحق ١/ ٣٨٦ - ٣٨٤
- فانديك : اكتفاء القنوع ١٧٨ - ١٧٩



المجلات والمؤتمرات :

- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٨٦ - ٨٧ منصور جرداق *
- الشفالة : انتناس الكرمي صفحات متعددة *
- العلوم : ايلول ١٩٦٤ من ص ٣٢ - ٤١ لكتور اللك : بناء الحضارة العربية - ثابت بن فرة العراقي *
- العربي : الكويت عام ١٩٨٤ م عدد ٥٣٠ سالم الانصاري : حقائق عن علم الفلك عند العرب ص ١٥١ - ١٥٥ *
- المورد : مجلد ٦ عدد ٤ ص ١٧٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ - ٢٦٨ *
- ايزيس : مايرهوف : عام ١٩٣٢ م عدد ١٤ ص ٥٥ - ٥٦ *
- ابحاث المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب - حلب ١٩٨٣ م د محمد سوسى : الترجمة اللسانية في النقل الأول للغة الرياضيات الى العربية من ٤٩ - ٤٩ *
- المجمع العلمي بدمشق : مجلد ١٧ ص ٧٨ - ٨١ د مرشد خاطر *
- التراث العربي - دمشق ، عام ١٩٨٣ عدد ١٠ ص ١٩٧ - ٢٠٣ د صلاح محمود غاتم : المدخنة *
- التراث العربي - دمشق : عام ١٩٨٣ عدد ١١ - ١٢ د مؤمن محمود غاتم و د صلاح محمود غاتم *
- التراث العربي - دمشق : عام ١٩٨٥ عدد ٢١ ص ٤٧ - ٤٨ علماء المقاول الشياطية : د عبد الكريم اليامي *
- معهد المخطوطات : احمد اتش : عدد ٤ ص ٤٧ - المتجد : عدد ٩ ص ٢٨٦ *
- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٤١ - ٤٢ د سامي حداد *

- F. SEZGIN : Geschichte des Arabischen Schrifttums, Band III. 260-263, 377-390, V. III. 264-272, VI. III. 163-170.

- The Astronomical Works of Thabit B. Qurra (tr. By Francis J. Carmody) Berkely - University (U.S.A.) Press 1960.



الشعر الشعبي الغنائي

في الفراتين والبادية

دراسة: عبد الفتاح قلعه جي



شواطئ دجلة والفرات نشأت حضارات عريقة ، تأسست مدن ودُرَّت أخرى ، وما زال الفراتان عبر التاريخ مصدر الوحي والآلهام لفالية الشعراء الذين عاشوا على ضفافهما أو قسموا اليهما من البادية .

والصلة وثيقة ما بين البادية والفراتين ، فهما المورد والسوق ومعطى القوافل الضاربة والطريق القديمة التي تسير عليها القوافل ما بين الخليج العربي وشواطئ المتوسط . ومن الفراتين قدمت علينا ألوان عديدة من الشعر الشعبي الثنائي كالموال والمعتاب والكان كان والتقويم والدوبيت ، وعلى المدى الطويل تكونت للسكان القائمين على ضفاف هذا الشريط المائي شخصية موحدة يشكل الشعر الشعبي الثنائي واحداً من أهم مكوناتها .

من العمارة والكوت والرمادي إلى البوكمال ودير الزور والرقعة تلمس في السكان وحدة اللهجة والسلوك والعادات والتقاليد ، كان ظروف العيش على ضفاف هذه الميادين العجوي قد طبعتهم بيسير واحد منذ أن كانت مملكة ماري تعتقد على هذه الضفاف ومن قبلها أكاد وسومر وحتى الآن .

الاحساس بالوحدة والتكامل العصاري : الثنائي والاجتماعي والاقتصادي هو الذي حدد اتجاهات المفزو والترحال على هذا الشريط منذ مهد سرجون الأول ونارام سين والعلاقات الاقتصادية والسياسية الواسعة بين يممحان وماري وبابل إلى آخر معاهلات الوحدة بين القطرين سوريا والعراق .

انقلال الأغاني الشعبية من المراق إلى سوريا على هذا الشريط العجوي مستمر منذ القديم ، وبالرغم من وجود كيانات سياسية متعددة ومجموعات حضارية مستقلة فإن الألحان والأشعار الشعبية الثنائية كانت في حركة متصلة توحد بين شعوب هذه المنطقة وترتبط

بين ماضيها وحاضرها ، وكانت هي المبر عن القيم الروحية والجمالية لها وعن مواقفها المشتركة من الحياة والناس والأحداث التاريخية ، وما تزال الى الآن بعض هذه الأغاني تحمل في كلماتها رمزاً غامضاً تعود الى عهود موجلة في القدم ، وبعض الألحان تبدو متناسخة عن تراثاً قديمة .

شعر الفراتين الفناني تنوع وتراث :

على الرغم من أن البحث في الأدب الشعبي حديث المهد الا أن شعر الفراتين الفناني كان أوفر حظاً ، ولقي من الدارسين الاهتمام المبكر جمماً وتوثيقاً ودراسة ، وظهرت فيه عدة مؤلفات تشكل للباحث مصادر اولية يكملها البحث الميداني والتاريخي ، كما ان عبور هذه الأشعار والألحان وحركتها على امتدادي المكان والزمان وما يصيّبها من تناسخ وتطور وتغير يجعل من الدراسات المقارنة أمراً ضرورياً .

هذه الأشعار الفنائية كانت تخضع في شكلها اللغوي والمعنى وفي مضمونها ، من حيث البناء الأولى والتطور ، للبيئات التي نشأت فيها او التي هاجرت اليها . ان آداء النوع الواحد منها يختلف من قبيلة لأخرى ومن منطقة لآخر ، وعندما تنتقل أغنية مثل الشومولي الى مراكز الحضارة الدينية الواقعة ما بين الفرات والداخل كحلب وحمص ودمشق فانها كانت تخضع الى مؤشرات بيئية تكون وراء ما يمتهنها من تغير في اللهجة واللغط واللحن لتكون مناسبة للأذواق والمناخات الجديدة .

الدراسة التاريخية المقارنة تشير الى أن بعض هذه الأغاني انحدر من عهود وحضارات قديمة شهدتها المنطقة ، فعندما يتعرض الدارس الى أغاني الميم الفراتية العالية لا بد ان يشير الى ميامار افراهم الشاعر السرياني الكبير ، ولفظة ميم في الأصل سريانية ، وعندما نتحدث عن أغنية سكايا يا دموع الدين ، هذه الأغنية الاكثر شيوعاً في العراق والشام ومصر والتي يغلب عليها طابع العزن وصور الموت والنداء من أعماق المالم السفلي ، لا بد ان نشير الى ترنيمة كنسية سريانية قديمة بذات اللحن والجو المأساوي ، ومن يدرى فربما تعود هذه الأغنية الى عهود أبعد موجلة في القدم ، فلعلها بقايا من طقوس العزن الدينية على الاله الميت دوموزي السومري وتعيساته فيما بعد : يعل وحدد وأدونيس وأوزوريس ، لأن هجرة الأسطورة وانتقالها من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان وما يعتريها من اضافة وحذف وتغيير لم يكن مقتصرًا على القمة فحسب وانما كان يشمل ايضاً التراثيل الفنائية المصاحبة لها والتي كان بواسطتها يروى الحديث . مما يكن فان هذا الامر يحتاج الى المزيد من البحث المقارن والتمحيص ، والى ان تتضافر من أجله جهود ذات اختصاصات متعددة لا تقتصر على البحث الفولكلوري وانما تستعين بالدراسات الأركيولوجية والأنثropolوجية ربما يمكن أن يلقي ضوءاً في هذا الطريق .

تتصف أغاني الفراتين بالتنوع والثراء ، ومن الصعب الاتفاق على عدد هذه الأنواع الشعرية الشعبية الفنائية فهناك أنواع تصنف على أنها مستقلة وهي في الحقيقة مجرد الوان

من أنواع رئيسية، كما أنه لم يتم حصر نهائياً لها وذلك يستدعي مسحاً جغرافياً لها ودراسات ميدانية واسعة، وسنحاول التعريف بأهم هذه الأنواع وأكثرها انتشاراً، ثم ناتي على ذكر الأنواع المنتشرة في الباذية.

١ - الأبوذية :

من أكثر الأنواع انتشاراً وشهرة، وهي رباعيات تنظم على البحر الواfir ، مؤلفة من أربعة أشطر ، الثلاثة الأولى منها ذات قواف مجنسة جناساً كاملاً ، والرابع ينتهي ببياء مشددة وهاء مهملة ، يرجع أنها نشأت في جنوبى المракق وسادت في بلدة العي وهي واسط ، ثم امتد انتشارها على مجرى الفرات إلى دير الزور

هذا اللون هو المحبب في الفنان ، يتبارى في نظمه وغنائه الشعراوي ، ويؤدي في الأعراس والأفراح بطرق وأنقام متعددة ، وهي كالعتاب والندرة كما يرى د. مصطفى جواد من الدوبيت المعروف بالأعرج ، ويقول عنها المرادي في سلك الدرر أنها نوع من الشعر البغدادي الأصيل أصابها التنوع والتفرع .

ومثلاً اختلف في نشأتها وتاريخها اختلف في سبب تسميتها ، ويعيل أغلب الدارسين إلى اعتبارها مأخوذة من كلمة الآذية ، أي الذي آذاه الدهر ، فهي كالعتاب تقلب عليها العاطفة الحزينة ، وفي الهند جبل يدعى جبل بود ، فهل هناك علاقة بين الاسمين ؟

تنظم الأبوذية في عدة أغراض كالفنل والنسيب والشكوى والرثاء والهجاء والأخوانيات ، على أن أهم ما تتناوله هوموضوعات العب من وصف ملاحة العبيب ، ومعاناة الماشق ووصف حاله من وجد وسر وقلق وضنى وما يقاريه من جفاء المحبوب .

سكنت غرب لاجنك وانت بهلنك « مع اهلك »

اون وثة المسجن وانت بهلنك « وانت المالك »

اغطف في النوم ساعة وانت بهلنك

عجب ما ينكسر قلبك عليه

وشعراء الراوين هم شعراهم الأبوذية ، ولكل منطقة شاعرها ، وهي في شكلها الفني وأسلوبها ومعانيها قريبة من العتاب ، وقد لا نجد في معانى هذه المنظومات الفنائية ما هو جديد ولكنها تقدم لنا نموذجات عالمية شعبية، ويستفيد شعراًها من الرموز المشهورة في التراث العربي ومن قصص المشرق والأحزان .

خل عيني بهواها تسيل ما دام « ماء ودم »

حزينة واللي يسرها أويامي ما دام

ما الغنسا بونيسي عليك ما دام « آنم »

على حسوأ ولا البو عامرية

وقد انفرد الأبوزية عن المتابا بالاتكاء على شعر الفصحي بالمعارضة والتضمين
كقول أحدهم مستفيداً من قول أبي تمام :

نَقْلُ فَوَادِكَ حَيْثُ شَتَّى مِنَ الْهُوَيِّ
مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْعَبِيبِ الْأَوَّلِ
هذا المعنى يستنسخه شاعر الأبوزية من غير أن يضيف إليه شيئاً فيقول :
أَنَا لِأَجْلِكَ لِعَنْدِ أَعْدَائِي مَاشِيتَ
وَلَا بِكَلْمَةٍ لِسَانِي عَلَيْكَ مَاشِيتَ
فَوَادِكَ نَقْلَهُ بِالْهُوَيِّ مَاشِيتَ
النَّفْسُ لِأَوْلِ حَبِيبِ تَمِيلُ هِيَّ

يعزم الشعراء الشعبيون بتجنيس القوافي تجنيساً كاملاً ، ويبدو أن هذا لا يعود إلى
اظهار المقدرة في اللغة والتصنيع فحسب وإنما يرجع إلى أن هذا التجنيس يحقق عند النساء
ثلاثة أمور توفر للمنظرمة الغنائية نوعاً من التكامل الفني وهي :

- ١ - المفاجأة والإدعاش مع شيء من الفوضى الفني .
- ٢ - موسيقىلغظية تترك في مصب البيت .
- ٣ - موسيقى المعنى .

ولكل منطقة طريقتها في غناء الأبوزية حسب النغمات المعروفة : البيات أو العجاز
أو العجم أو الصبا أو الجهار كاه ، وبذلك تعمد الوان الأبوزية فمنها اللامي نسبة إلى
عشيرة بنى لام والصبا نسبة إلى الصابئة والعنسي والمشوم .

وقد غنى الصابئة الأبوزية بلحن حزين جداً ، وهم قوم صنتمهم الحب والشعر ، وقد
عرف من شعرائهم سوادي وأجد وسماهي شبيب وعدوة منصور ، ومن جميل قولهم :

حَدَّا حَانِي الْأَحَبَةِ بِلِيلٍ وَأَمْضَهُ « وَمَضِي »
بِعِفَّاهُمْ صَوْبُونِي سَهَامٍ وَأَمْضَهُ « مَاضِيَّةً »
كَتَبَتْ خَطِي لِعَنْدِ الزَّيْنِ وَأَمْضَهُ « امْسَائِيَّ »
وَيَا وَسْفَهْ جَوَابَهُ أَبْطَى عَلَيْهِ
٢ - الميمَر :

رباعيات تنظم على البحر السريع ، وتتألف من أربعة أشطر ، الثلاثة الأولى قوائمه
مجنسة جناساً كاملاً ، والرابع رويد الراء الساكنة ، وعادة ما يستهل الفنان بهذا المطلع :

عَالِيمَرْ عَالِيمَرْ عَالِيمَرْ
فَلْعَنَ الْوَلْفَ لِشَبِيعَةَ شَالَ وَحَدَّرْ

ويغتول التغيير الشطر الثاني من المطلع شأن أغلب الأغاني الشعبية ، أما شبيحة فهو نهر في حwigة العبيد بالعراق .

ويرى بعضهم أن كلمة المير معرفة عن « اللي من » أي الذي من ، أو « المامر » أي الذي لم يمر ، وثمة قصيدة شعبية تروي في نشوء هذا اللون معروفة لدى أهالي جنوبى العراق وهي أن شاباً اسمه حسين أحب فتاة صابانية ورفض أبوها أن يزوجه إياها ، فدتف بها ومرض وراح ينشد هذه الأشعار وهو على فراش الموت وأباوه يواسيه بمتلها حتى فارق الحياة ، وحفظ الناس هذه القصيدة وراحوا يرددوها ، وأصبح من تمام الرواية أن تنتهي منها الأشعار . والتغيير عن الأشواق وانتظار مرور العبيب والماكابدة في المشق وأحوال العاشق هي الموضوعات الأساسية للمير ، قد يعطي ذلك تفسيراً لكلمة المير غير أن هذه الموضوعات هي عامة في الشعر الشعبي الفناني كالموال والمتابا والأبودية وغيرها ، والحقيقة أن كلمة مير سريانية ، ومعناها أغنية ، وميمرو قصيدة مفناة ، وقد اشتهر الشاعر السرياني الكبير مار أغرام بنظم الميسامر .

وقدتناول المير أغراضًا شتى كالغزل والفخر والمحاسة والتوجع والفراغ والرثاء ، وقد أبدع شعراً في وصف المحبوب كقول أحد هم :

رمثان خداك يا ترف بس حبّه
وسموع عيني كالمطر بس حبّه
أديه لعيونك يا ترف بس حبّه
من هالخدود الكنّها ورد أحمر

٢ - نظم البنات :

من أكثر الألوان الشعرية شيوعاً وأحبها إلى القلوب لرقّة أبياته وخفتها وعفويتها وعدوّية نفّها ، ويختلف اسمه باختلاف المناطق فيدعى بالدرامي والفنان والتوضيح والنشر الشعبي ، ودعى بنظم البنات لأن النساء يكتنون النظم فيه .

وتتألف النظومة الفنانية من أبيات منجزة البسيط ، كل بيتين ينتهيان بقافية موحدة ، وفيه يتناول الشعراً قضايا العب والواقع والمواد اليومية الهامة وموضوعات شتى ، وهو مادة للحوار ، فيه يتسامر ويتحاور ويتناقض الساهرون ، ويتميز نظمه وغناؤه ببساطة التعبير وصدق المشاعر وسهولة الأداء وخففة الموسيقى والرقة العاطفية ، ويصبح أكثر تشويقاً عندما يأخذ طابع الحوار الفناني حيث تتدلى السهرة حتى ساعة متاخرة من الليل .

لا يا حكيم الجاي لا تلمس لا يسللي
ماش نبضي ينبيك روحـي بوريـلي

★ ★ ★

خليتني بهـواي للنجم راعـي
عينك تبوكـل نـوم لو مـتنـي واعـي
★ ★
يا اخـلت روحي ويـاك ردـه روحي ليـه
خـوـفي من النـمـام يـشـمت بيـه

٤ - المـهـوـسـةـ :

الهوـسـةـ : الدقـ والـكسـ ، وهـاسـ علىـ العـسـكـرـ : حـمـلـ عـلـيـهـ فـداـسـهـمـ وـهـاسـهـمـ ، وـمـنـهـ كانـ اـسـ الـهـوـسـةـ هـذـاـ اللـونـ منـ الشـعـرـ الشـعـانـيـ الـكـثـيرـ الشـبـوـعـ بـيـنـ القـبـائـلـ الـتـيـ الفتـ الفـزـوـ ، فـهـوـ يـقـويـ عـنـأـفـهـ عـلـىـ القـتـالـ ، وـكـانـ لـهـ دـورـ فـعـالـ فـيـ حـرـكـاتـ التـحـرـرـ الوـطـنـيـ ، وـقـدـ حـضـرـتـ مـهـرجـانـاـ شـعـرـانـيـ فـيـ مـديـنـةـ قـمـ بـالـعـربـيـةـ ، كـانـ أـحـدـ الشـعـرـاءـ الشـعـبـيـنـ مـنـ الـعـصـورـ وـهـوـ مـنـ مـنـطـقـةـ عـرـبـيـةـ اـنـ شـتـدـ بـهـ اـلـأـعـجـابـ وـالـحـمـاسـ رـاحـ يـقـاطـعـ الشـعـرـاءـ بـاـيـبـاتـ مـنـ الـهـوـسـةـ فـيـلـقـيـ اـسـتعـسـانـاـ كـبـيرـاـ مـنـ الجـمـهـورـ .

وـأـصـلـ هـذـاـ اللـونـ شـطـرـ واحدـ يـرـتـجـلـ بـيـنـ الجـمـعـ ، تمـ زـيـدـتـ عـلـيـهـ ثـلـاثـةـ أـشـطـرـ فـدـاـ منـ الـرـبـاهـيـاتـ ، الـاشـطـرـ الـثـلـاثـةـ الـأـولـيـ مـتـحـدـةـ الـقـافـيـةـ وـالـرـابـعـ مـخـتـلـفـ ، مـنـ ذـلـكـ قولـهـمـ :

جـمـيـعـ النـاسـ مـنـيـ وـاـنـاـ يـهـا
وـمـواـكـبـ سـدـتـ كـدـهـ وـاـنـاـ يـهـا
وـطـيـورـ اـمـ الـعـلـاـتـرـفـ وـاـنـاـ يـهـا
تـنـدـارـ لـلـدـنـيـاـ وـهـئـانـ

٥ - المـرـبـاعـ :

قصـيـدةـ غـنـائـيـ طـوـيلـةـ تـتـأـلـفـ مـنـ وـحدـاتـ ربـاعـيـةـ ، الأـشـطـرـ الـثـلـاثـةـ الـأـولـيـ مـنـهاـ مـتـحـدـةـ الـقـافـيـةـ وـالـرـابـعـ يـقـفـيـ بـقـافـيـةـ الـمـطـلـعـ ، وـقـدـ نـظـمـ الرـمـيـعـ عـلـيـ أـبـعـرـ مـخـتـلـفـةـ وـفيـ أـغـراضـ شـتـيـ أـهمـهاـ الـوـجـدـانـيـاتـ كـالـغـزـلـ وـالـشـكـوىـ الـرـثـامـ وـالـعـنـينـ ، وـكـانـ لـهـ دـورـ فـيـ مؤـازـرـةـ الـعـرـكـاتـ الـو~طـنـيـةـ . وـقـدـ قـلـ النـظـمـ وـالـفـنـانـ فـيـ حـالـيـاـ ، وـيـذـكـرـ صـاحـبـ كـتـابـ الـطـرـبـ عـنـدـ الـمـرـبـ أنـهـ نـوعـ يـدـعـيـ كـلـةـ وـنـصـفـ يـعـنـيـ عـلـىـ الـبـيـاتـ ، وـطـرـيـقـةـ غـنـائـهـ أـنـ يـجـلسـ الـرـجـالـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـيـ شـبـهـ دـائـرـةـ ، وـيـمـدـ كـلـ مـنـهـ سـاقـهـ الـيـمنـيـ يـضـرـبـونـ بـهـاـ الـأـرـضـ مـعـاـ لـضـبـطـ الـوـزـنـ (وـهـذـهـ الـطـرـيـقـةـ يـسـتـعـملـهـ الـعـلـيـبـيـونـ فـيـ غـنـائـمـ الـقـدـوـدـ وـالـلـوشـحـاتـ وـالـأـدـوارـ) وـهـمـ يـرـدـدـونـ الـمـطـلـعـ :

ـ قـلـيـ يـنـسـوـحـ مـاـ لـوـمـهـ ـ بـيـنـاـ يـقـفـ الـمـطـرـبـ بـيـنـهـ وـهـوـ يـعـنـيـ هـذـهـ الـرـبـاعـيـاتـ .

وـمـنـ هـذـهـ الـمـنـظـومـاتـ الـفـنـائـيـةـ نـوـعـ أـشـبـهـ بـالـحـدـامـ تـاخـذـ وـحدـاتـ الـرـبـاعـيـةـ بـعـضـهاـ بـعـناـقـ بعضـ بـيـابـطـ لـفـظـيـ وـمـعـنـويـ كـوـلـهـمـ :

غير احوالى الاوده
 من رمانى بسهم صده
 ليش عنى بعب بعده
 او مارع ويساي النمام

 ما راع ولا خاف ربئه
 بلا ذنب حطني مسبئه
 جا قلت آنى احبئه
 حررم على الكلام

 حررم وعنى تعده
 ويعنى بماه صده
 ما تمس النار جلده
 كل من يموت بغرام

من ويني كام جاري
 او بعد ما يلفي الداري
 بكت عيني بلمع جاري
 يشبه لكت الفمام

 بكت فوق الوجن دمعي
 ويحن لفرقاك ضلعي
 صرت بس اومي باصبعي
 او بعثما اوعى الكلام

 بعثما اوعى ونازع
 ولنيتي القدر مانع
 انو تبلي الوصل راضع
 غير احوالى الفطام

٦ - النايل والسويعلي :

النايل ضرب من الشعر الشعبي الثنائي المثنوي ، شطراء متعدان في التأفية ، وينظم على بحر البسيط ، وهو كالملحانا يوشح به المغني أبيات العتابا للتخفيف من وقمه المؤسي لذا فان موضوعه الأول هو العشق .

لازرع شكاره لعشيري واسقيها من العين
 واحصد هروش القلب لا مایجي الزين
 لازرع شكاره لعشيري من تتن بو وريدة
 يا يوم صايح خطأ على النايم وحيدة

يروى أن التي ابتكت النايل فتاة من عشيرة العبيد كانت تعب في اسمه نايل وقد
 قالت فيه :

نايل قتلني ونايل غير الوااني
 ونايل بشوقه سقيم الروح . خلااني

ولربما سمي النايل بنوال المني ، كأنهم ينون مغني العتایا الذي أثقله الحزن والفرق
بنيل المني ، ومن أنواعه الغرياوي نسبة الى غربي العراق ، والعرقاني نسبة الى العراق .
والسويعلي ضرب من النايل يغنى بنغم البيات اکثر خفة ورشاقة ورقه :

بالقلب رسمك خلّك بعيد بلاد
بالقلب رسمك
كل من على اسمك القلب له يفتاج
كل من على اسمك
يا ريته بالعطب قلب سلا الفالي
يا ريته بالعطب

انتقل النايل والسويعلي من عشائر فرات العراق الى سوريا وكثير شيوعهما في مناطق
دير الزور ، وأصبحا من الألوان المحببة في الغناء يغنهما الرجال والنساء أنشام العمل
في القطاف او على مراقي البناء .

٧ - أنواع أخرى من الأغانى الشعبية :

١ - البستة :

هكذا يسميه البغدادية ، وفي الفرات الأوسط يدعى بالموشع ، وفي الجنوب يدعى النش ،
وهو لون من الأغانى الشعبية الخفيفة تقابل القددود تغنىها المجموعة بعد أن ينتهي المغني من
القام ويستعد لأداء المقام التالي ، ففي الرابط النغمي بين مقامين ومحطة في الغناء فيها حركة
وخفة وامتناع .

ب - الندب : النعي والمعادة :

الندب في المأتم قديم يجري في طقوس خاصة ، وهو لون من الشعر الرثائي يغلب عليه
مدح الميت واظهار التحسر والالم واللوعة ، تغالطه احياناً العكمة والمعطلة ، وهو
استمرار لطقوس الحزن على الاله الميت في مشتولوجيا وادي الرافدين حتى طقوس التعزية
الحسينية ، ولا نبالغ اذا قلنا ان العشق والحزن اللذين يقابلان العياة والموت مما
المنبئان الرئيسيان لكل الابداعات في المشعر الشعبي ، ومع تواصل المدنية في العواuster الكبرى
وغياب علاقات القبيلة ومشاعرها الجماعية وأخذ الأسرة الصغيرة دورها المستقل في مجتمع
المدينة اختفت تلك الطقوس العفيفه في اظهار الحزن وتم الاستعاضة عنها بطقوس دينية
هادئة تتبع للمفجوع السلوان والتذكر والرضا بحكم القدر ، هذه الطقوس تتمثل بقراءة
القرآن في الليالي الثلاث للوفاة وتدعى «المقريّة » وقراءة دعاء خاص صباح اليوم

الثالث حول القبر مع قراءة القرآن ويدعى هذا الطقس بـ « التهليت » أي الثالث . ومنذ العصر الجاهلي كان البكاء على الميت في المجتمعات القبلية يأخذ طابع الحرفة لتمييق مظاهر المشاركة الجماعية، فهناك نساء نداءات يحترفن هذه الصنعة ، وكلما كان الميت كبيراً في قومه كانت احتفالات الندب أكبر .

والنبي أشعار حزينة تغrieve النساء في المأتم في بيت الم توفى و حول قبره ، أما المعايدة فتختص بها المعايدة وتسمى الفاصودة أي التي تنشد القصائد في رثاء الميت حيث تجتمع النساء حولها في حلقة وهن واقفات يضريرن صدورهن لوعة وحزنا ، أو هكذا يمثلن ، والطلب يقرع ، وفي داخل الحلقة رجل وامرأة يتقابلان بسيفهما ويتعاركان على ايماعات الطبل والفناء . وقد ذكر عبد القادر عياش في صوت القراءات أن هذا اللون كان شائعاً في مناطق دير الزور .

ج - التجليبة :

لون غنائي محبب ينظم على بحر الهجز يتألف من شطرين بروي واحدهما المطلع ، ثم تتلوه الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى من كل رباعية متعددة القافية ، والشطر الرابع على قافية المطلع ، وقد سمى هذا الفناء بالتجليبة لورود كلمة لأجلبنك في المطلع والرباعيات ، وهي لغة من جلب المرأة : جاءبه ، أو من الجلاب : العسل والسكر المقود بماء الورد ، كأنه يصلح محبوبته بالشعر والفناء :

لأجلبنك يا ليلى ألف تجليبة تنام أهل الهوى وتقول ما درى به
لأجلبنك يا ليلى وأصبح أني أناDas وذل خشمي عقب ما كنت عالي الراس
كل يوم الدهر ويأي يلعب ساس حرية أو يأي حرب امطير واعيتبه

د - المولية :

وهو من الفناء الذي انتقل إلى المدن وشاع في أغراضها ، وينظم على بحر البسيط ، ويتألف من المطلع ثم الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى منها متعددة القافية ، والرابع على قافية المطلع :

يا عين موليتين يا عين مولية درب الأحبة قطب عمل برجلية
وقد شاع في حلب المطلعان :

يا حباب لا ترحلوا غلّتوا حوالية
وجسر العبيب انتسر من دوس رجلية

وفي رباعيات المولية نجد العواطف الرقيقة والصور اللطيفة كقولهم ، وهو من المقامع المعروفة في حلب أيضاً :

من هون لعنتا ، ومن هون لعنتا
 بتسوى من خيل العرب ، ومن فواكي العنتا
 ايمتا بعود الزمان ، وبتيعجي لعنتا
 لفرش فراش الهنا ، وغطيك بايديته
 لاطلع عا راس الجبل واشرف على الوادي
 وقول يا مرحبا نسم هوا بلادي
 يا رب يطوف النهر ، ويغرق الوادي
 لاعمل ذنودي جسر وقطعك ليثه

وموالية هي نداء يا مواليها – يا موالية .. وبه سمي الموال ، وكانت الجواري في رثانها
 البرامكة تختم غناءها بهذا النداء :
هـ - الهلابة :

ومعناه الترحيب « أهلاً بك » وسمى به لكنكار هذه الكلمة في مطلع رباعياته ، يغنى
 على المجوز وينظم على الوافر، الأشطر الثلاثة الأولى من رباعياته متعددة القافية ، والرابع
 على قافية المطلع ، وعندما ينهي المغني كل رباعية من منظومة الهلابة تردد المجموعة المطلع :

هلا يا الواردة يمَا هلا به شبر وذراع قرمول العصابة

و - الشوملي :

وهو من القناء الذي انتقل الى المدن تحت اسم الهويدي، وينظم على مجزوء الرجز ،
 يتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متعددة القافية والرابع على قافية
 المطلع ، ومطلعه كالمطلع الشائع في المدن عداكلمة الشوملي التي تحمل محل « هويدي » ،
 ونففة السيكاه :

عالشوملي عالشوملي نارك ولا جنة هلي

وسمى هذا القناء بالشوملي نسبة الى الشؤمل وهي الريح الشمالية .

ذ - البدرة :

وبه تغنى النساء بكرة في مواسم المصاد وهن يذهبن الى العقوول او يعملن فيها
 للتخفيف من مشقة العمل ويتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متعددة

القافية والرابع على قافية المطلع ، وينظم على الهزج ، وقد ذكر صاحب كتاب الطرب نموذجاً منه نورده فيما يلي :

حُبِّيْمَشِيْ المَدَلْ بِزَرْقِ النَّيلِيْ عَلَى صَلَرِ المَدَلْ دَقْ يَعْلَى لِي

حُبِّيْمَشِيْ التَّرْفَ وَالنَّهَدْ مِنْهَ زَامْ
ظَرِيفَ أَدْعَجَ مَهِيكَلَ كَامِلَ الْهَنْدَامْ
يَرْمِيَ لَوْ زَرْقَ عَيْنِيَ نَبِلَ وَسَهَامْ
مِنْ شَفْتَهِ يَهَلَّ وَادِمَ رَقْدَ حَيْلَيْ

ح - اللاءلا :

وهو من الثناء الذي انتقل الى المدن وشاع فيها ، تغنى النساء في الاعراس ، ينظم على مجزوء الرجز ، ويتألف من مطلع ثم تلية الأبيات ، وكل بيتين بقافية واحدة :

عَا لَلَا لَلَا وَ لَلَا	لِيشَ الزَّعْلَ يَا خَالَة
وَانَا عَاطِيْتَكَ رُوحِي	بَاشَ اعْطَيْتَنِي بِسَدَالَا
مَا قَلْتُكَ يَا يَمَّا	فِلَّاتِي جَدَاهِيلَ رَاسِي
كَلَ الْبَنَاتَ انْخَطَبُوا	اَلَا بَيْنَ عَمِي نَاسِي
مَا قَلْتُكَ يَا يَمَّا	عَلَى الرَّاحَةِ عَيْنِيْنِي
ما ادْرِي الْمَعْبَةَ مِنَ اللهِ	مَا ادْرِي العُشْقَ سَابِينِي

ط - الهميية :

هذا الثناء ينظم على بحر الوافر ، تغمه البيات ، ويتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاث منها متعددة القافية والرابع على قافية المطلع على الشكل التالي :

هَلْ يَا نُورَ عَيْنِي يَا هَلَيْيَهِ يَا غَالِي مِنْ تَمَّ سَلَمَ عَلَيْهِ

أَخْدَنِي وَطَيْرَ بَيْهِ فَوْقَ لَفْوَقَ
وَذَبَّتِي بِمَرْتَعِ الْغَلَانِ وَالنَّوْقَ
أَسَافَا يَا خَدَكَ غَيْرِي يَغْرِي نَوْقَ
يَلْفَكَ بِالْعَضْنِ فَصَبَا عَلَيْهِ

ي - أغانيات شائعة :

من الصعب حصر جميع الألوان الشعرية الفنائية على أنها تذكر منها بعض الأغاني المصاجحة للدبكة مثل : السية وهلايا ، وكل الهلا بالفالى ، وردت على المزروعية ، يا ميساة ، عاليادي ، على عييم على عام ، الطعمونا . ومنها غناه زيارة الأولياء في أوائل الربيع في دير الزور حيث تقصدهم النساء للتبرك والابلال من المرض ونبيل الذى وفق عقدة العجل والخطوبة :

يا ولسي جيتك زايرة من كتر ماني بايرة

ومنها أيضاً أغاني تعية الربيع وتنفيها الفتيات ، ومنها أغاني الرحمى ، وأغنية أبو الورد المشهورة ، حيث تفني الفتيات ومن حولها صاحباتها يرددن ويصفقن :

أبو الورد يابو الورد غزلان عالمارد ترد

ومع انتشار التعلم في الكتاتيب والمدارس أدركت الأم قيمة العلم فهى تعبّر عن ذلك بالفناء وتستقبل ابنها فرحة بالدواء التي يحملها وال عبر الذي يلطخ ثيابه :

يا مرحبا يا تابه والجاي من كتابه

والدواية بایدھه وال عبر مالي تيابه(١)

أما أغنية على عييم الواسعة الانتشار ، والتي تمتاز بالخففة والرشاقة فانها تعتبر من الأغانى الشعبية المراقة للدبكة في حلب ، ومن أغاني القرادى في لبنان ، ومن أغاني المطلوع في فلسطين ، وأصل قصتها تتحدث عن حالة اجتماعية تتتمثل في تفكك الاسرة بعد انفصال الآبوبين واضطرار الأبناء اللجوء الى العم للمعيش لديه ، ويصبح العم آباً ثانياً بعد فقد الآبوبين وتمرض الأبناء للشقام :

على عييم على عام رفرف يا طير العمام

على عييم يا عمي ويَا اختي لا تنهى

وابويا دشر أمى واخويَا سافر عالشام

وعلى عييم دلتوني وعلى عمي ودونى

ما عاد دمع بعيوني وما عدت اعرف انام

ان الكثير من الأغانى الشعبية الشائعة في مناطق عديدة يصعب الجزم بمنطقة نشوئها الأولى ، ولا يمكن الاعتماد دائماً على كلمات الأغنية أو لحنها أو لهجتها لأنها عند انتقالها تخضع للتأثيرات البيئية الجديدة ، وتتعرض باستمرار للحذف والاضافة في مقاطعها .

شعر الbadia الغنائي :

الbadia هي الموطن الأقدم للشعر وشعرها امتداد في شكله وأغراضه للشعر القديم بالرغم مما أصاب لهجته من انغراف عن الفصحي ، والبحث فيه لا يفيد في معرفة فحسب وإنما في تصور معرفي لحالة الشعر القديم في عهوده الأولى وضمن مناحات فكرية واجتماعية وبينية مماثلة ، فقد بقيت badia على مر العهود جزيرة شبه منعزلة عن التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي تعرضت لها المواضي وطورت لفتها التجريبية الشعرية والفنائية .

ما زال الشعر البدوي ، كما نشأ الشعر الأولى ، شعراً مفني ، يلقى منفوماً بمصاحبة الرباب على الأغلب ، أو ترافقه آلات أخرى كالطبل ، أو التصفيق بالأيدي ، ومثلاً تختلف أنقامه باختلاف نوع الشعر فانه تتعدد أبعاده الشعرية وأوزانه حتى تتجاوز الغليليات إلى أوزان يصعب حصرها ، وتبقى النسمة هي الضابط العقيلي للوزن .

ومثلاً كانت لهجة قريش قديماً هي اللغة الفنية الموحدة للشعر ينظم بها الشعراء على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، فان للبدوي اليوم لغة أدبية واحدة هي لغة الشعر ينظمون بها أشعارهم على اختلاف لهجاتهم وقبائلهم ، وقد غرت هذه اللغة الفنية شعراء الأرياف والمدن الذين ينظرون المطاول والموال والمعايا ، وبالرغم من أن البدو فقدوا الاعراب وما لوا إلى الكسر والتنوين وتخفيف الهمزة أو الفانها والتلوّع في ابدال الاحرف فإن آثار الفصحي ما زالت في قصائدهم تظهر بين العين والآخر في أبيات فصيحة تماماً .

إننا لا نشك أن الغليل لم يقصد جميع الأوزان الشعرية ، وقد حفظ لنا عصر التدوين بعض التصائيد الخارجة عن الغليليات واعتبرها ماضطربة الوزن وأغفل القسم الأكبر وتركه للضياع ، نتساءل إلا يمكن للشعر البدوي اليوم أن يقدم لنا فكرة ، ليس عن تلك الأوزان الضائعة فحسب ، وإنما عن طريقة غنائها ، والشعر في لغة العرب هو الغشاء . ويرى شقيق الكمانى أن الوزن في شعر البدو خاضع لمقاطع صوتية كما هي الحال في أوزان الشعر الـ فـ رـ بـيـ ، ولهذا جاء على أوزان يصعب حصرها كما في الزجل^(٢) .

وما يزال هذا الشعر الـ بـ سـويـ الغـنـائـيـ في حاجة إلى دراسات ميدانية واسعة لمعرفة أنواعه وطرق أدائه ، وسننشر فيما يلي إلى بعض أنواعه المشهورة .

١ - القصيدة :

ويدعى في الجزيرة العربية باسم الـ دـيوـانـ الـ بـ دـيـوـانـ لأنـهـ يـنشـدـ فيـ دـيوـانـ الـ أـمـيرـ ، والـ سـمـحـوبـ لأنـ تمـ حـروـفـهـ عـنـ الـ أـدـاءـ ، وـ الشـاعـرـ يـدـعـىـ بـ الـ قـاصـودـ . أمـاـ أغـراضـ فـهـيـ اـغـراضـ الشـعرـ التقـليـديـ منـ مدـيـعـ وـ هـجـاءـ وـ رـثـاءـ وـ فـخـرـ وـ حـمـاسـةـ وـ غـزـلـ وـ نـقـائـشـ وـ مـرـاسـلـاتـ . بـعـضـهـ يـنـظـمـ عـلـىـ أـوـزـانـ الـ غـلـيلـيـةـ وـ بـعـضـهـ يـنـظـمـ عـلـىـ أـوـزـانـ أـخـرىـ لـمـ يـتـمـ حـصـرـهـاـ ، يـقـولـ عـبـدـ اللهـ خـمـيسـ

٢ - الشعر عند البدو من ١٥٧

في كتابه الأديب الشعبي في جزيرة العرب عن أحد دواوين الشعر : « عمدت الى مجموعة واحدة لاحد شعراء البدو وهو ابن جعثين وهو من المكرثين من يتلاعبون باوزان هذا الشعر ويختنون في ضروبها فوصلت الى ما يقارب العشرين وزناً ولما اقارب نهاية الديوان » ، وعادة ما يغنى التصعيد في مجالس الأمراء بمحاجة الرباب ، وللتصعيد شعراوه الشهورون بين القبائل، يقول مشعان بن هزاع من قصيدة له في الفخر :

حَنْ شَيْأَةُ الْعَرَبِ وَانْ شَيْأَتِ النَّارُ
مَرْكَاضُنَا يَشْبَعُ بِهِ السَّبِيعُ وَالظَّيْرُ
وَرَفَاقُهُ وَالَّتِي حَذَانَا لَهُمْ جَارٌ

٢ - السامری :

ينظم على الرمل ، وبه يسر الساهرون ويفنون اشعار الجوى والعنين ، وتقتصر موضوعاته على الوجانيات ، ويؤدى مع الرباب ، ويردد السماع مع الشاعر المتنى بعض الآيات ، وفي نجد يؤدى السامری فريقات يجشوan على الركب ويتبادلن اللئاء شطراً فشطراً أو بيتاً فبيتاً . ومنه قول محسن الهازاني :

أَشْتَكِي لَكَ مَنْ هُوَ نَجْلُ الْعَيْوَنِ
يُوسْفِيَّاتِ الْمَهَا حَمْرُ الشَّفَاهِ
سَالِبَاتِ لِلْمَلَا تَلْعُ الرَّقَابِ
خَرَدَاتِ بِالْبَيْسُوتِ مَخْفَرَاتِ
عَنْبَرِيَّاتِ الرَّوَايَحِ بِالْكَمَالِ
فِي جَمَالِ قَائِمَاتِ قَاعِدَاتِ

وبعد النقب في فلسطين يطلقون لفظة السامر على اللعب ليلاً ، وقد اعتادوا أن يقيموا السامر بعد الانتهاء من الدحية آخر الليل ، والرجال المستون هم عmad اللعب ، وهو كالدحية الا أنه أسهل في الحركات وأهدا في اللعب، وغالباً ما ترقص أمام السامر امرأة مسنة ، وحركات الرقص فيه تحتاج إلى خبرة ودقة واتقان . والنشد في السامر يسمى الرزاع ، وهو يلقن المجموعة القريبة منه شطراً بصوت مهموس فينشدونه بلعن خاص على ايقاع التصنيق البطيء ، ثم ينتقل إلى المجموعة الثانية فيلقتهم فينشدون بنفس اللحن ، وهكذا يتناوبون الأشداد .

والرزع هو الوسيلة التي يعبر بها سكان النقب بالشعر المرتجل عما يعيش في صدورهم من أفكار ، ويشترك فيه الرجال والنساء والفتيات ، وقد أوثق هذا الأسلوب أن يختفي من الحياة العادية ، وبقي الرزع متصوراً على السامر :

بِلَادِ جَاهَا الْمَطْرِ وَبِلَادِ مَا جَاهَا
وَبِلَادِ جَاهَا كَعْلِيْلِ الْعَيْنِ وَأَرْوَاهَا

الْعَنْقُ عَنْقُ الْفَزَالِ الْمَرْتَعِهِ فِي الرَّوْضِ
حَبَكْ سَقْطِ فِي ضَمِيرِيْ خَاضْ قَلْبِيْ خَوْضِ

يا زين يا حلو وبلاك نويناها
صمنا عن الزاد والقرية طوبيناها
سلم بعينك وخلي يدك بعثناها
ياللي سلامك يرد الروح مجرهاها

٣ - العداء :

وهو أقدم أنواع الشعر ، ينظم على الرجز تماماً ومجزوة ، أغله في الغنر والمساة لأنه ملازم للممارك ، وينشد على ظهور الغيل . وهو مقطوعات متتابعة يحدو بها الفارس ، كل مقطوعة مؤلفة من بيتين ، ومن المأثور أن يذكر الشاعر معبوبته وهو يحدو على ظهر الحصان في خضم المعركة ، أو في الطريق إليها ، أو عائداً منها مفتخراً بالنصر على أعدائه وبحسن بلائه في العرب .

والعداء منتشر في جميع البيادي والصحاري وفي نقب فلسطين ، ونظراً لسهولة النظم فيه فإنه من أهم الأشكال الشعرية وأكثرها انتشاراً ، يعبر به البدوي عن عواطفه وانفعالاته . وفي فلسطين يسمى التحدياً وتكون بشكل دياлог يقابل فيه مغنين أمام مغن متقابلين من الذبيحة الذين يرقصون ويصفرون بالأيدي ويرددون اللازمة « يا حالي يا مالي » أو بشكل آخر حيث يجلس الرجال في فسحة الدار على مقاعد متقابلة .

يا رب من عندك نصر افهر جيوش اللي كفر
حتى يعینا المنتظر من هنله بالنصر المبين
يا حلالى يا مالي

وهذا شكل آخر من العداء منتشر في البدوية :

بنت الشرابي صيحت شفت جديد ثيابها
والدققة الصارت عليه تسوی العزيرة وما بها

وفي العراق لون من العداء ينظم على بحر البسيط رباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متعددة المقافية والرابع بمقافية أخرى .

٤ - الهجيني :

وقد سمي بذلك لأنه ينشد على ظهور الهجن ، وعلى صوت الفتاء تجتمع الأبل المتفرقة وتتلامس أعناقها وتسرع في سيرها ، أو زانه متعددة تتجاوز التخليليات وتختضع لابتكارات الشاعر ، وأغراضه تتناول موضوعات الحب والغنر ووصف الممارك :



مار البلا ان كان تنحاني
يا ليتها عقب عمانى
وانا ماجيته ولا جانى
لون الزبىلنى بريضانى

القلب ورء على دبله
ما هي خفيه ولا خبله
مبسم الترف به قبله
ونهيلها يوم تقرب له

٥ - النبطي :

ويدعى أيضاً بالركياني ، وينظم على أبخر متعددة أمهما البسيط وتتفقى صدوره بقافية وأعجازه بقافية أخرى ولا تختلف أغراضه عن أغراض الشعر القديم ، وبه يتخاطب الآماء ، وقد حظى بالاهتمام الكبير فافتاد له المصحفات في مصحف ودوريات الخليج .
يقول محمد بن راشد المكتوم من قصيدة له :

دموع العين سفحة كما جاري من الوديان
شكا لك من هو أسبابه تنايت دونه البنيان
من العينين منثورة عن الدمع يطفئها
فلا الشكوى على الشاجي حكمها نفس قاضيها
وتمارس النساء نظم هذا الشعر ، وبه يبتئن لوازع الحب والشجن كقول فتاة الشارقة :

ووجهني محارب لذلة النوم
أرجوك لا طول ولا تشوم
يتزاورون في طيف العلوم
روحى فداكم وأنتم سلوم

أنوح واهل عبراتي
يا مالك احساسى وذاتى
روحى وروحك يا غنستى
وان كان يرضيك معاتى

٦ - العوارب :

وهو لون من ألوان العداء لكنه ينظم على قاعدة النبطي ويختص بموضوع الفزو والعروب ، وبانشاده يزداد المقاتل اقداماً أو شجاعة ، فهو بمثابة طبول العرب يشد عزائم الرجال :

يا جرد من ننزل عليه
وكم فارس صلنا عليه
سعيد يل نرضى عليه

حنّا عمامك لو رحلته
بحرابنا ياما طعنّه
برواحنا نفلي وطنّه

٧ - الدحّة :

وهي رقصة ترافقها أغان خاصة مؤلفة من رباعيات ، الانشطر الثلاثة الأولى منها متعددة القافية ، والشطر الرابع بقافية أخرى عليها تبني باقي القوافي ، اشتهرت بها قبيلتنا شمر وعنزة ، ويشترك في الرقص البنات والشباب في حلقة تتوسطها امرأة حسناء حامرة

بiederها سيف تلوح به وتفني ، وبعد كل بيت تردد : دح دح ، ويردد الجميع قولها ، وبها سميت الدحة ، ولعلها لغة مأخوذة من دح البيت في الشري : وسّعه ، كان حلقة الرقص بمثابة البيت يوسمونه ، أو أنها من الدّوح وهي المرأة المظيمة ، وهذا يؤكده توسط المرأة العسناء المظيمة حلبة الرقص بسيفها المشرع ، أما دح فهو لغة كلمة تقال للمفرد اذا تكلم : يعني اسكن فقد أقررت ، والدّوح في لغة الأطفال كل شيء جميل يغري الطفل باللعب به او امتلاكه .

ومن لطيف عاداتهم أن البنت لا تنہض الى الرقص الا اذا أعطاها الشاب ثمنها ، وثمنها هو بضعة أبيات غزلية مرتجلة من الشعر ، كهذه الأبيات :

يا أم الثمانى العذاب
خفى حياة الشباب
قبل غيث التراب
يعبر عليكى وهلى
يا أم الثمانى الرهاف
لا بد لك من قبر واف
عنك الصعاين مجافي
عنك الصعاين مجافي
بس انت بارض الملى(٣)

والدحة عند بدو فلسطين في النقب يطلق عليها: الدحية والسهجة والسعجة، وفيها يرددون لفظة دحّي بويّ ، وهي عندهم فرحة بمثابة المسرح في المدينة، ويحق لكل فرد أن يكون متفرجاً أو لاعباً ، وتقام في مناسبات عديدة كالختان والأعراس والأعياد وعودة الشائب والسبعين والجاج .

يتواجد الناس بعيد الغروب على بيت المفرج ، يتبعهم الأطفال ، تنطلق الزغاريد ، يصطف الأطفال ويسقطون وترقصن أمامهم الفتيات الصغيرات ، ثم يتقاطر الرجال فيترك الأطفال ساحة اللعب لهم ، فيشكلون ملائمة مقابل النساء الجالسات ويرددون لفظة دحّي بويّ ترديداً مستمراً مع التصفيق العاروبيزون رؤوسهم وأجسامهم بانتظام ، ويتحركون الى الأمام والوراء بخطى متناسقة وهم في لباسهم التقليدي ، فتتبرى لهم امرأة ترتدي ثوباً طويلاً أسود ، متنعة لا يظهر من وجهها غير عينيها ، بيدها سيف أو عصا ، ترقص على الإيقاع ، والرجال يتقافزون أمامها وهم يطلقون الصرخات العmasية وهي تعاكى تحرکاتهم بعذر ، وتههد بالسيف من يحاول أن يمسها ، واللاعبون يتبارون في الاقتباب منها وآخافتها ، وعنسما يسل التعب أوجه الملائكة يحضر الشاعر ، ويسمونه

البديع ، وربما يكون واقفاً ممهم في البدع ، وينشد على الايقاع ، وعادة ما يبدأ ب مدح المفرح مشيداً بكرمه وسعة بيته :

يا بيت المفرح والراية تذعدع فوقية
يا بيت المفرح مثل السرايا المبنية

- راغبة الحفل : أنا داخل ع كبيرة البوشى .
- الراقصة : تجيب حريشي الدّجحة .
- راغبة الحفل : وان ما جابت العاشي .
- الراقصة : غلطة لسانى روئيّة .
- راغبة الحفل : أنا بديع وأبوي بديع .
- الراقصة : وأمي رقّاصة نشمّية .
- راغبة الحفل : والعق ع باقي الطاقيّة .

والرقن أمّام الدّجحة ايس عملاً مخجلأ ، وقد ترقص ابنة شيخ القبيلة أو زوجته ، واللعب يستمر حتى مطلع الصبح . ومع ان الدّجحة من أمتع المروض بالنسبة لسكان البايدية الا أنها قد تنتهي ببساطة نتيجة تعرض أحدهم لفتاة او بسبب مهاجأة بين شاعرين ، وكل منها قومه وأشياعه ، والبدو عموماً يخشون الملاعب ويحسبون لها ألف حساب ويقولون : أنها تلم العافي والمتعلم ، ويقولون في التمييز بين السامر والدّجحة : السامر للناس المقتال ، والدّجحة للقلاتية ، أي للناس الذين لا يلتزمون بالتقاليد والعادات ولا يخلو من السفاهة .

٨ - الشروقى :

نوع من القصيدة ينظم على قاعدة النبطي تقفى صدوره وأعجازه بقافيةين مختلفتين ، لعنـه حزـين فـيـه عـمق وـتأثـير ، يـغلـب عـلـى مـوضـوعـه اـرـتـحالـ الأـحـبة ، قـيلـ فـي سـبـب تـسـميـته أـنـ فـتـاة ، ثـمـ اـرـتـحلـتـ معـ أـهـلـها شـرـقـافـراـحـ يـكـيـهاـ بـهـذاـ اللـونـ منـ الشـمـرـ وـالـفـنـاءـ ، وـلـفـةـ اـشـرـورـقـتـ العـيـنـ بـالـدـمـعـ: غـرـقـتـ وـاحـمـرـتـ، وـالـشـرـوقـيـ: صـاحـبـ المـيـنـ الدـامـعـيـنـ . وـقـدـ شـاعـ غـنـاؤـ فـيـ ضـواـحـيـ المـدـنـ وـالأـرـيـافـ حـيـثـ يـعـلـ الـبـيـوـ الـمـيـمـونـ وـنـصـفـ الرـحـلـ وـمـنـ الـمـلـعـينـ بـنـظـيمـهـ الشـاعـرـ الشـعـبـيـ الـلـبـانـيـ آنـطـوانـ عـكـارـيـ صـاحـبـ كـتـابـ الـأشـعـارـ الشـعـبـيـ الـلـبـانـيـ وـمـنـ جـمـيلـ قـولـهـ :

يللي خلودا ورد وعيونها حلوين
وقفة زمان الهوى بقيت شي خمس سنين
معها بعرف القلق عالسرّ محفورة
قطفنا عبر اللقا لحظات مسكونين
بيكاس صدفة وسحر وخلود معصورة

تجمع حدود الدنيا بيفيّة الشريين
واللي يغبني الغبر عن ضجة العايين
يقلد جدائل دهب عالصلدر مرخين
من الواضح أن انتقال الشروقي الى أرياف المدن وضواحيها ، شأن الألوان الشعرية
الشعبية الفنائية الأخرى ، قد طبعه بطابع البيئة الجديدة .

٩ - العماسي :

يقال حَمَّشْه : أحضبه وهيجه ، والعماسي من الشعر ما يثير النضب والهياج ، أي
الصراع ، انه لون من الشعر الشعبي الثنائي يأخذ طابع العوار الساخن بين فتى وفتاة ،
يتالف من ثلاثيات ، الشطر الأول والثاني متعدد القافية ، وقافية الثالث تبني عليها
العوارية ويلتزم بها المساجلان ، تقلب على موضوعاته المشق والصدود والوصف العسلي
للمرأة ، ويعتبر العماسي « كالدحنة » من طوابع المسرح البدوي الاحتفالي والاستعماري
الفنائي البسيط والملاثم للبيئة الصحراوية وأحوال التنقل والارتحال ، يشبه الكوميديا
المتجلبة ، ويطلب قدرة فائقة في الأداء وارتجاع الشعر ، وفي تفريبةبني هلال حواريات
مسائلة مما يدل على قدم هذا اللون الثنائي الذي يرضي حب البدوي الى التشخيص على
منصة الباادية :

أشوف اليوم تناهيني	الاهر ذودك	يا راعي الذود
غدا قلبى قطعني	تعت عضودك	الفتى : شفت نهودك
حس الرعيان معزىنى	بارض قفاره	الفتاة : أنا حبّارة
مدعوح العين بلا نيلى	مذكور لك	الفتى : أنا حُرك
يقتلك السم ما تجيئنى	تعت صفيه	الفتاة : أنا حيّة
اهر سمتك ما يسيبني(٤)	ابن القراءى	الفتى : أنا القراءى

١٠ - القص الشعري الشعبي الثنائي :

الحياة في الباادية وما فيها من قصص العب وال فهو والترحال والمقارنات الفردية
مصدر غني للقصص الشعري المفنى ، وفي كتب السير الشعبية ، وبخاصة سيرة بنى هلال
نماذج كثيرة ، وكان لمشاركة التبادل في العركات الوطنية ضد الاستعمار الدور في
نشوء قصص جديدة انتشرت أشعارها وغناتها المتلون بمرافقة الرباب في المجالس .

لم ترق آية من هذه القصائد الى مستوى الملهمة ، لكنها تفوقت في شكلها ومضمونها
وسرورتها على القصيدة الشعرية المكتوبة بالفصحي ، وكانت المبيرة عن جوانب من
الحياة العربية في أفراحها وأتراحها ، وعن نفسية العربي البدوي التي تبدو كضفيرة من
العب والعرب والافتتان بالطبيعة .

تسيطر في هذه القصص أجواء العب والبطولة والأساة ، وفي قصص المائسي يستفيض الشاعر المفني في وصف محبوبته مقدماً المبرر العاطفي لشدة أحزانه ، وقد يخلع جزءاً من أحزانه على فرسه ، فيصفه بأنه عاف الطعام وشد في البراري حزناً على الفقير ..

من أكثر هذه القصص شهرة وانتشاراً قصة حيزية في الجائز(٥) ، وهي تعكي قصة حب بين شاب وفتاة اسمها حيزية ، وبعد صراع مرئياً بها تزوجاً ، ثم ذهبا للعمل في القطاف ، وفي طريق العودة مرضت حيزية وتوفيت ، وراح زوجها يبكيها باعذب الشعر، وقد نظم الشاعر الشعبي محمد بن قيطون قصيدة شعبية في هذه القصة عام ١٨٧٨ م تقع في ١٢٨ بيتاً يغنىها المغنون إلى اليوم ، وفيها يقول :

عزّوني يا ملاح في رأيس البنات سكنت تحت اللعود ناري مقدّساً
ياخي أنا ضرير بيّنا ما بيا قلبني سافر مع الضامر حيزّينا
ويصنف محبوبته قائلاً :

خدك ورد الصباح وقرنفل وضاح
الضم متل عاج والفصخك لعاج
ريتك سى النعاج عسل الشهايا

ثم يصف كيف واروها الشرى ، ويستحلف حفار القبور إلاً يطليع بالصخور والتراب على قبر محبوبته :

احفار القبور سايس ريم القور لا تطليع شي الصخور على حيزّينا
قسمتك بالكتاب وحرروف الوهّاب لا تطليع التراب فوق أم مرايا

ويقول إن ما يهيج حزنه على حيزية حسان الأزرق الذي اشتتد به الأحزان على حيزية فانصرف عنه هاماً في التلول ثم مات بعد ثلاثين يوماً :

هلكني يا ملاح الأزرق كي يتلاج بعد اختي زاد وراح وانصرف عليها
توفي ذا الجحود ولئن في الوهاد بعد اختي ما زاد يعيها في الدنيا
والأزرق أيضاً حسان البطل الشعبي محمد الملم من بادية حمص ، أحب فتاة اسمها نوف ولم يرض أبوها أن يزوجه إياها فاختطفتها ليلة عرسها ،

يقول المثل الشعبي : البدوي بياخد تاره ولو بعد أربعين سنة ، وقد شب ابن محمد الملم وأعطيته أمه سلاح أبيه وقصة مأساته فثار من جده الغائب ..

٥ - رغم أن هذه القصة غير معروفة في الباادية الشامية فقد أفرتنا ذكرها لما فيها من تشابه مع قصة نمر ووضعا ، وادلاولا على وجدة الملحمة الشعرية الشعبية الفنائية في الباادي العربية ، وكان للهلاليين الذين عبروا إلى شمال البريقية دور في ارتسانها .

ومن قصص الباذية قصة نمر بن عدوان ومساينه في زوجته وضحا ، وهي معروفة في باذية الأردن ، وتشبه في مأساويتها قصة حيزية ، فهو تارة يصفها محملة الى قبرها على جمل فيوصي زارع البستان بها :

يا زارع البستان هنا منيسي
دونك على مجرى عيونى ازرع
حتى دوم اذوقه واشرب واجرع

وتارة يختلط فيتوجه أنها حية ، ويسأل عنها فيترفون به ويقولون أنها في زيارة إلى أهلها ، وما يهيج في أحزانه أنها تركت لمفلأ اسمه عقاب :

البارحة يا عقاب حين القمر غاب
وحين الشريا كوكبت عالمغيب
جيت الأهل لن الأهل غياب
بس الفرس بالبيت ويه العبيد
قالوا استمع يا نمر ما هو بعييد
سايلتهم عن صاحبى وين غاب
مالعين يلقي والمعبة تزيد
زابر هل يا عقاب ساعة غياب

ومن هذه القصص قصة الفتاة والمبد الذي خان أسياده وراودها عن نفسها فتمنت
وضربته فهرب والتوجه إلى أمير أحدى القبائل وزين له الاغارة على قبيلة أسياده ، وفي المعركة
قتل أبناء عمها الثانية وسيبت الفتاة ، وعندما علمت أنها ستزف إلى المبد غفت الأمير
قصيدة شرحت فيها خيانة المبد فأمر الأمير بإعدامه :

ما لوم عيني لو بكت لي بطيبة
على عيال عمي هالوجوه المليعة
يا عبد يا زربول سويت قبيعة
والليوم يا عبد الغنا صاييك هم
تلبس مقاويس الذهب وأنت تشتم

عندما تنتقل هذه القصائد التصصية المغناة إلى المدينة فإنها تفقد المنصر لتغير طبيعة
الفرجة والاستئناف ، ولا يبقى من الأصل إلا إشارات غامضة تبني عليها أغنية شعبية جديدة
لها مضامينها وصورها ولغتها الفولكلورية الخاصة ، مثل ذلك قصة الفتى مشعل العاشق
الذي هرب من دوريات التجنيد أيام حرب السفريبرلوك وتوارى عن الأنظار ، ثم ما لبث
أن ألقى عليه القبض ، وحاول أن يرشو العسكري التركي فخسر المجيدي وخسر حريته:

ع الأول مشعل اوف مشعلانى
مانى تبليته هو اللي تبلادنى



أنا شفت القانون
جاي من بعيد
وحيثت اهرب
ما طلع في ايدي
قال لي الوثيقة
ناولته مجيدي
لطش المجيدي
وقال لي انت فراروي^(٦)

هذه الأغنية يتنبأ بها العلبيون ، ولم يبق من كلماتها القديمة غير كلمتين : الأوف ومشعل وأصاب التغيير كلمات الازمة ، ونظم المغنون مقاطع جديدة لها ترضي أذواق الجمهور الجديد وغابت القصة الأصلية تماماً :

ع الأوف مشعل ديني مشعلاني
اهلاً وسهلاً بعيابي وخلاني

وثمرة رواية - لعلها الأصل - متأثرة بقصة النبي يوسف الصديق تجمل من مشعل فني حميلاً ترأوهه الفتى عن نفسه وتدعين أنه هو الذي راودهن :

ع الأوف مشعل أوف مشعلاني
مانني محاكيته هو اللي تبلاني
مشعل يا روحي يا مداوي لي جروحى
لأخذك وروحى بلاد اليماني

ومن قصص الباذة الشهيرة قصة وضعاً وحمد ، ذلك أن والد وضعاً التجأ إلى قبيلة أبي الغارات بعد أن هلكت قبيلته ، فاكترم ضيافته ووافق رداً للجميل على أن يزوجه ابنته ، ولكن وضعاً رفضت ، وظهر العاشق حمد القاسم من بعيد وهو سيد في قبيلته ولكنه يرضي أن يعمل خادماً عند أبي الغارات نيكون قريباً من محبوبته ، وذات يوم يدافع عن القبيلة والرجال غائبين ، فتزداد وضعاً بهاعجاباً ، وعندما يعود أبو الغارات وهو ابن الستين ليتزوج من وضعاً يتصدى له حمد القاسم مع رجاله ويقتله في مبارزة شديدة ، ويظفر العاشق بمحببته .

ويلد لأهل الباذة أن يستمعوا إلى المغني وهو يقطع هدوء الليل بالعزف على琵琶ة وانشد هذه القصة الشعبية :

وضعاً العزيزة تنادي ربها يا معين
حكمك قلر يا معتلي العرش والدين
تلهم حمد يبعي لوضعاً ينجيها
وبعدها صبية ولون الورد غاوتها
أبوها فكتّر يزفها لابن الستين

وفي هذه القصة الشعبية من العوارات المسرحية بين وضحا وحمد وأبي الفارات وصوت المجموعة ، ومن امكانيات التشخيص الذي يقوم به الرواذي المفني عازف الربابة ، ما يجعلها نموذجاً للمونودrama البدوية :

وضحا :

لازم عهودي لأبو العجات أوفيهما
من تحت مسموم ابتر الشفر ماضيها

وحق من خلق الانسان من طين
بعيته حساناً وخلص قومنا وبنين
الأب :

غامض كلامك وما فهمنا معانيها

قال لها أبوها » يا وضحا ايش تعنين
وضحا :

جتنا فوارس غزون العي وال فيها
وكنا سبايا ، صفار العي تبكيها

« قالت » يا بوي من يوم رحت تغزين
ولولا حمد ما يغيرنا سلطان عفريين
الأب :

من قوم أنجاس ما نعرف مواليها
يعرف حلالك ، أبو الفارات يسميها

« جاوب أبوها » حمد صعلوك عفنين
أعطيت قولي وأنت غصب ترضين
وضحا :

مكحول الطرفين نسله من أعلىها
لو كان حوله ضيوف كالنجوم يقربيها

« قالت » نصيبي حمد من نسل جدين
أبوه أمير الشرف للجبار يعمدين
أبو الفارات :

وانا الاسود بهجم على مخابيها
كرمال غنمات مرار الصبر حلتهاها

« انتصب أبوالفارات » وقال لها: ليش تهزين
يللي بتعذلك جراح القلب تكويزن
وضحا :

من طرف جعلني شعرة ما بتعظيمها
وموسى ينادي ربها من الأقلام باريها
ما تعيد عنه الذي أوفي زماميها

اذا العبال تميل والصخر بيبلين
ويقوم نوح النبي ويغوم بسفين
ولو قلب وضحا انفلق برصاص مرتين

* * *

دِيوان ابن أحْمَر

ومصادر شعره

محمد سعدي الدين ميثنو

١ - الديوان :

ازمام الدهر ومصائبه انت على جل تراثنا العربي ، فلم ينته بينما
ما قالـت العرب الا اقله ديوان ابن أحمر^(١) غـيـضـ منـ فيـضـ ،
ما يزالـ فيـ ذـمـةـ التـارـيخـ ، تـضـنـ بـهـ يـدـ الزـمانـ . وـقـدـ طـبـتـ ذـلـكـ السـفـرـ
منـ دـيـوـانـ العـربـ فيـ فـهـارـسـ كـثـيرـ مـنـ مـكـتبـاتـ الشـرقـ وـالـغـربـ ، فـمـاـ
وـقـفـتـ لـهـ عـلـىـ أـثـرـ ، وـلـكـنـ نـجـدـ فـيـ كـتـبـ اللـفـةـ وـالـتـرـاجـمـ وـالـأـدـبـ اـشـارـاتـ إـلـيـهـ ،
تـاخـذـ بـالـقـلـوـهـ مـنـ أـوـاـئـلـ الـقـرـنـ الثـالـثـ إـلـىـ أـواـخـرـ الـقـرـنـ الثـالـثـ عـشـرـ الـهـجـرـيـ .
وـإـذـ كـانـتـ هـذـهـ الـاـشـارـاتـ لـاـسـفـ عـمـنـ صـنـعـ دـيـوـانـ ابنـ أحـمـرـ ، فـانـ فـيـ أـقـلـمـ
اشـارةـ تـرـقـيـ إـلـىـ الـعـقـدـ إـلـأـقـلـ مـنـ الـقـرـنـ الثـالـثـ دـلـالـةـ مـهـمـةـ عـلـىـ أـنـ ثـمـةـ
عـالـمـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـرـوـاـةـ إـلـأـوـاـئـلـ قـدـ عـمـلـهـ فـيـ جـمـلةـ مـاـ عـمـلـ مـنـ دـوـاـوـينـ الشـعـرـ
الـعـرـبـيـ فـيـ مـطـلـعـ ذـلـكـ الـقـرـنـ ، وـمـنـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ عـمـلـوـاـ إـلـشـعـارـ : أـبـوـ عـمـرـوـ
الـشـيـابـيـ (٢٠٦ـ هـ) وـالـأـصـمـعـيـ (٢١٧ـ هـ) وـابـنـ الـأـعـرابـيـ (٢٣١ـ هـ)
وـابـنـ السـكـيـتـ (٢٤٤ـ هـ) وـسـوـاهـمـ (٢)

ويبدو أن ديوان ابن أحمر كان معروفا لدى عدد من المصنفين خلال قرون متعددة ،
وكان المرتضى الربيدى (١٢٠٥ هـ) ، صاحب شرح القاموس ، آخر من اطلع عليه ، ثم نُقِدَ
بعد ذلك ، فلم نقف له على نسخة مخطوطة منه ، نأمل أن تجود بها يد الزمان ، لتكون
الفيصل في دراسة ابن أحمر .

وفي الإشارات التي وجدها يأخذ مصطلحا (ديوان) و (شعر) معنى واحدا ، لأن المصادر
القديمة في أغلب الأحيان لم تكن التمييز بينهما تمييزا دقيقا . وأقدم هذه الإشارات ما رواه
أبو أحمد العسكري (٣٨٢ هـ) بسنده ، فقال في مجلس : « أخبرني محمد بن يعيي ، أخبرنا

أبو ذكوان ، حدثنا موسى بن سعيد بن سلم قال : كان ابن الأعرابي يؤذننا ، فدخل الأصمعي ، ونحن نقرأ شعر ابن أحمر :

أَغْدَوْا وَاعَدَّ الْعِيْزِيْلَا لَوْجَهْ لَا يَرِيدْ بِهِ بِدَالَا

إلى أن بلغنا إلى قوله :

أَرَى ذَا شَيْبَةَ حَمَّالَ ثَقَلَ وَأَيْضُونَ مِثْلَ صَدْرِ السَّيفِ نَالَا

فقال الأصمعي : « بالا » ، فصاح ابن الأعرابي : « نالا ، نالا » ، بالنون من النوال ، فقال الأصمعي لنا : إن الشاعر قد فرغ من هذا ، فقال : فيه شيخ حمّال ثقل ، وهو الذي يُنبلِّ ، ويُعطِّي ، وفيهم شاب مثل صدر السيف بالا ، أي : حالا ، وهو كالسيف في حاله وباسه^(٢) ، وأضاف العسكري في المجلس ذاته : « فحدثني يومت بن المزرع عن أبي إمامه الباهلي ، وحضر المجلس ، أن ابن الأعرابي افتضَّحَ بهذا ، ثم احتفال ، فاحضر نسخة فيها شعر عمرو بن أحمر ، وقد غيَّرَ البيت الأول منها : فجعله :

أَغْدَوْا وَاعَدَّ الْعِيْزِيْلَا وَشَوْقَا لَا يَبَالِي الْعَيْنِ بِالَا

ثم قال : معنى الأصمعي صحيح ، ولكن كيف يردد ابن أحمر قافية في قصيدة ، فزادت فضيحتهم لضعف المتراء الذي غيره واحالة معناه^(٤) . وفي الغير الأول اشارة واضحة الى أن ثمة كتابا ، يقرأ في ذلك المجلس ، وأما الغير الثاني ، فهو يدل دلالة صريحة على نسخة لابن الأعرابي من ديوان ابن أحمر .

ويبدو أن أبي أحمد العسكري نفسه قد قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد^(٥) ، ويدل على ذلك قوله : « قرأت عليه في شعر ابن أحمر :

هَنِئْ إِذَا فَرَنَ الشَّمْسَ صَبَّعَهَا أَضْرِيَابِنِ قَرْآنَ بَاتِ الْوَحْشِ وَالْعَزْبَا^(٦) »

وإذا كان بروكلمان يذهب إلى أن جمهرة أشعار العرب « جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة » ، ثم « تم تاليتها في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة »^(٧) ، فانتها نرى أن جامعها أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي الذي ليس له أدنى ذكر في جميع كتب الطبقات والرجال ، قد يكون اطلع في تلك الحقبة من الزمن على ديوان ابن أحمر ، وأخذ منه قصيدة رائعة ، جعلها في (مشوبات العرب) من جمهرته التي اختارها « غررا هي الميون من اشعارهم وزمام ديوانهم »^(٨) .

وفي القرن الرابع الهجري نجد ابن جنني^(٩) ينظر في ديوان ابن أحمر ، فهو يروي ما أنسده أبو زيد :

كَانَهَا بِنْقَا العَزَافَ طَاوِيَةً

مَارِيَّةً لَؤْلَوَانَ اللَّوْنَ أوَّدَهَا

طَلَّهُ وَبَنَسَ عَنْهَا فَرِقدَ حَصِّرَ

ثم يقول : « ولم يستند أبو زيد هذين البيتين إلى ابن أحمر ، ولا مما أيضاً في ديوانه »^(٨) .

وفي القرن الخامس الهجري يثبت أبو عبيد البكري الاندلسي (٤٨٧ هـ) من رواية بيت في شعره الذي حمله أبو علي القالي (٣٥٦) إلى الأندلس ، ويقول : « قال ابن أحمر :

تَبَعَّ أَوْضَاحًا بِسَرَّةِ يَذْبَلٍ وَتَرْعِيْ هَشِيمًا مِنْ حَلِيمَةَ بَالِيَا

مكنا ثبتت روايته عن أبي علي في شعر ابن أحمر »^(٩) .

وفي أواخر القرن ذاته كان شعره بين يدي الخطيب التبريزي (٥٠٢ هـ) حين هذب كتاب الألفاظ لابن السكري ، وروى ما أنشد له ابن أحمر :

لَبَّ بَارِضٍ لَا تَخَطَّأُهَا الْعُمَرُ» ثم قال : « وفي شعره : لَا تَخَطَّأُهَا الْفَتَنَ »^(١٠) .

وفي القرن السادس الهجري نجد عدة اشارات إلى الديوان لدى الباطليوسى (٥٢١ هـ) وابن الشجري (٥٤٢ هـ) وابن خير (٥٧٥ هـ) وابن برئي (٥٩٢ هـ) . فالباطليوسى في الاقضاب روى ما أنشد ابن قتبة في أدب الكاتب :

تُسَائِلُ بَابِنِ أَحْمَرَ مِنْ رَاهِ أَعْلَارَتْ عِنْهُ أَمْ لَمْ تَعَارَا

ثم قال : « البيت لمرو بن أحمر ، ووقع في شعر ابن أحمر :

وَرَبَّتْ سَائِلَ عَنْهُ حَقِيقَةَ

وهو الصحيح ، لأنه ليس قبل هذا البيت مذكور ، يعود إليه الضمير من قوله : « تُسَائِلُ » ، ولعل الذي ذكر ابن قتبة رواية ثانية مخالفة للرواية التي وقعت علينا من هذا الشعر »^(١١) .

وابن الشجري في الإمالى روى هذا البيت :

عَلَى حَيَّيْنِ فِي عَامِيْنِ شَتَّا فَقَتَلَ غَنَاؤُنَا بِهِمَا وَطَالَ

ثم قال : « ولا يجوز أن تكتب (شتا) ما هنا بالياء كالمتى في قوله تعالى : « وَقَلُوْبُهُمْ شَتَّى »^(١٢) ، لأن الف شتى في البيت ضمير ، وشقى في الآية اسم على فعلى جمع شتى كقتيل وقتلى . وانما ذكرت هذا لأنني وجدته في نسخة بالياء »^(١٣) .

وابن خير الاشبيلي في الفهرست يطالعنا بقصيدة ثمين ، بين أن ديوان ابن أحمر وصل إليه بستدين مختلفين ، مصدرها مما أبوا على القالي (٣٥٦) الذي حمل ديوان ابن أحمر إلى الأندلس فيما حمله من دواوين العرب^(١٤) ، فيقول : « شعر عمرو بن أحمر الباهلي ، حدثني به الوزير أبو عبد الله مجذوب بن محمد بن مكي رحمة الله ، عن الوزير أبي مروان عبد الملك بن سراج عن أبي سهل المتراني ، وحدثني به أيضاً الشيخ أبو بكر محمد بن عبدالفتى بن فندلة ، رحمة الله ، عن الأستاذ أبي العجاج يوسف بن سليمان الأعلم عن أبي

سهل يونس بن أحمد العراني المذكور عن أبي عمر بن أبي العباب عن أبي علي البغدادي قال : قرأته على أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم الأصمعي ، رحمة الله ، وحدثني به أيضاً الشيخ المسن أبو بكر محمد بن أحمد ، رضي الله عنه ، مناولة منه لي في أصل أبي الوليد ملك بن عبد الله الصبي الذي بخط يده قال : حدثني به أبو الوليد العتبى المذكور ، رحمة الله ، عن أبي مروان عبد الملك بن سراج ، رحمة الله ، بسنده المتقدم «^(١٥) » .

وأما ابن بري ، فيبدو أنه أفاد من ديوان ابن أحمر في حواشيه على صاحب الجوهرى ، وهي أحد مصادر لسان العرب وتأج العروس ، وروى هذا الشطر :

أَخِبَّةُ ذَلْوَلَا أَوْ عَرَوْضَا أَرْوَضُهَا

ثم قال : « وهكذا روایته في شعره »^(١٦) .

وروى هنا الرجز :

أَبِي الْذِي أَخْبَبَ رِجْلَ أَبْنِ الصَّعْقَ اذ كَانَتِ الْغَيْلَ كَعْلِيَاءِ الْعَنْقَ

ثم قال : « وقد وجدته في شعر ابن أحمر الباهلى »^(١٧) .

وروى ابن بري أيضاً ما أنشده الجوهرى لابن أحمر :

كَالْقَرْبَيْنَ قَوَادِمَ زَعْرَ

ثم قال : « هذا العجز مغير ، وصواب انشاد البيت على ما روت الرواية في شعره :

حلقت بنو عزوان جُؤْجُؤَةُ والرأس غير فنازع زعير »^(١٨)

وفي القرن السابع الهجري كان الديوان بين يدي الصفانى (٦٥٠ هـ) ، وهو يضع تكملاً لصحاب الجوهرى ، وقد روى عنه العجز السابق نفسه ، وقال : « لم أجده في ديوان ابن أحمر ، ووجدت فيه بيتاً ، وليس فيه حجّة على القراءة ، وهو :

حلقت بنو عزوان جُؤْجُؤَةُ والرأس غير فنازع زعير »^(١٩)

وروى الصفانى أيضاً هذا البيت :

تطايع الطل عن أرادتها صُعْدَا كما تطايع عن ماموسة الشرر

ثم قال : « والذي في شعره : عن أعادتها ، وفي الماموسة »^(٢٠) .

وفي القرن الثامن الهجرى نجد الحافظ مُقلطاي (٧٦٢ هـ) يأخذ منه أبياناً في حاشيته على الروض الأنف للسميلى ، ويرى ما أنشده أبو القاسم لابن أحمر :

انشات أساله عن حال رفقةِ فَقَالَ : حَيْ فَانَ الرَّكْبَ قَدْ نَهَبَا

ثم يقول : « وفيه نظر من حيث أن الذي في ديوان ابن أحمر أن ذلك البيت بعد قوله : قالوا عيناً ٠٠٠ (الأبيات) »^(٢١) .

وفي القرن العادي عشر الهجري يذكر صاحب كشف الظنون «ديوان ابن أحمر» (٢٤)،
الا ان الحاج خليلة (١٦٧م) لا يضيف شيئاً الى عبارته هذه ، فلا نعلم من أمره شيئاً .
وفي اواخر القرن ذاته يقف عبدالقادر البنددي (١٩٦م) على عدة نسخ من ديوان ابن أحمر،
وهو يتطرق في هذا البيت :

بتهام قصر والمطى: كانها قطا العزن قد كانت فراخاً بيوتها

ثم يقول : « والتي في عامه نسخ شعره : أريهم سهيلًا والمطى كانها / قطا العزن الخ .
قال شارحه : قوله : أريهم سهيلًا ، يعني أصحابه ، وان لم يجر له ذكر لدلالة الحال
عليه ، اي يريهم مطلعه » (٢٥)، ولعل في عبارته : « قال شارحه » اشارة الى أن منه من شرح شعر
ابن أحمر ، الا اننا لا نتفق على اسمه في اي من المصادر .

وفي القرن الثاني عشر الهجري نجد المرتضى النزبيدي (١٢٥م) يروي ما انشده
الجوهرى لابن أحمر :

ولا تقولن زهو ما يخبرنا لم يترك الشيب لي زهوا ولا الكبر

ثم يقول : « وفي ديوان ابن أحمر : ولا الموار » (٢٦) .

وبذلك يكون صاحب شرح القاموس آخر من اطلع عليه قبيل ان يصبح في ذمة التاريخ ،
اما بعد هذه الحقبة من الزمن ، فليس ثمة دليل في أيدينا ، يؤيد بقائه الى عهد معين ،
لأننا لا نعلم متى فقد هذا الديوان .

وفي مصر الحديثة جرت ثلاث محاولات لجمع شعر ابن أحمر ، أولهما ما قام به الدكتور
حسين عطوان سنة (١٩٧٠م) (٢٧)، واطلق على ما جمعه اسم « شعر عمرو بن أحمر
الباهلي » ، فعاز بذلك قصب السبق ، وكان له فضل المتقدم الرائد في اخراج هذا الشعر .
والدكتور عطوان كايد في سبيله مشقة صعبه المسالك ، لم تخل من العذار ، فهو لا يميز بين
رواية التقسيم ورواية المتأخرین ، ليقع على الأقدم والأصح منها ، ولا يحفل بالروايات
المختلفة في المصادر ، ولا يعني البتة بالسائلن اللغوية في شعر ابن أحمر الذي أتى باحرف
لا تعرف في كلام العرب ، ولا يستوفى تحرير الشعر من مصادره ، ففاته بعض ما ورد فيها
من أبيات ، والتفسير عليه أحياناً شعر ابن أحمر يشعر من سمي باسمه او بشعر غيره من الشعراء ،
 فهو مثلاً يجعل قصيدة لعظام بن أحمر المديني ومقطعة لبدر بن حمراء الضبي في الصحيح
من شعر ابن أحمر الباهلي (٢٨) ، ويضع فيه أيضاً أبياتاً مشهورة لأمرئ القيس والخطيبة
وكثير وكعب بن مالك ومزارعه والفرزدق وحميد وغيرهم (٢٩) . وربما حرف بعض
الأبيات عما جاءت عليه في أصولها ، ومن ذلك ما نقله عن المعانى الكبير ، فاورده على هذا
النحو :

لما رأت عرباً هجائن وسطلها مررت وجالت في الصرائح الأبعد

مع أن رواية ابن قتيبة للبيت في المصدر نفسه (٣٠) تقول :

لما رأت غرباً هجائن وسطلها مررت وجالت في الصرائح الأبعد

فصحّح الدكتور عطوان «غريباً» بالغين المجهّبة «عُرْيَا» بالعين المهمّلة ، «والصّراح» بالعام المهمّلة بـ «الصّراح» بالغام المعجمة، فكان أبعد ما يكون عن معنى البيت الذي أراده الشاعر ، وشرحه ابن قتيبة ، فقال : «غريباً»: جاوز القدر ، ومنه يقال : استغرب فلان في الضحك . هجائن : ببعض يقول : لما رأت بي شيئاً كثيراً مرت بشبابها ونشاطها ، وجالت في الصّراح الأبد» (٣٠) ، أي : في المواجهة التي جاوزت العد .

ومثله ما نقله عن عيار الشعر والوشح ، فاوردته على هذا النحو :

غادرني سهمي اعشى وغساده سهم ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا (٣١)
مع أن الرواية في هذين المصادرين : «سيف ابن أحمر» (٣٢) .

ومثله ما جاء به على هذا النحو :

كالشعلب الرائع المطهور ضبعته شلن العوامل منه كيف يتبيّق (٣٣)
مع أن أصل البيت في مصادره المديدة : «صيبيغته شلن» (٣٤) .

وأمثال هذا التصحيف والتعریف في هذه النشرة من شعر ابن أحمر كثیر ، لا طائل الآن من تتبیه ، وكان الأولى أن ترك الأبيات على روایتها في الأصول ، حتى يكشف الزمان عن نسخة مخطوطة من ديوانه ، لتكون الحكم الفصل في مثل ذلك .

وقد استدرك الاستاذ الدكتور رمضان عبد التواب على هذه النشرة بعض الأبيات التي عثر عليها لابن أحمر وبعض التصويبات واللاحظات الأخرى في مقالة ، نشرها بمتوان : «شعر عمرو بن أحمر الباهلي» (٣٥) ، ثم استدرك الاستاذ الدكتور رضوان محمد حسين النجاري على النشرة ذاتها بيّناً وحيداً في مقالة ، نشرها بمتوان «المستدرک على دواوين شعراء المغرب المطبوعة» (٣٦) .

وبعد الدكتور حسين عطوان قام الاستاذ احمد فاروق بالمحاولة الأخرى لجمع شعر ابن أحمر ، والاستاذ فاروق أشار الى ذلك في حاشيته على بيت ، رواه البطليوسى في الاسم والمسى (٣٧) دون عزو ، وهو :

فلو كان في ليلى شلنا من خصومة للويت اعناق الخصوم الملاويا

ثم قال : «البيت لابن أحمر في ديوانه الذي صنته ، وحققته ، وأعددته للطبع ، وفيه أبيات أكثر من صنعة الدكتور حسين عطوان» (٣٨) ، وأغلب الفتن أن هذه المحاولة الثانية لجمع شعر ابن أحمر لم يكتب لها أن تطبع ، وتنشر ، فظلت نشرة الدكتور عطوان الوحيدة التي طبعت ، وذاهبت .

ولما المحاولة الثالثة ، فقد كانت من عملنا ، وكانت في قسمين اثنين : في الأول منها درست حياة ابن أحمر وشعره ، وفي الآخر أخرجت ديوانه جمماً وشرعاً وتحقيقاً ما أمكنني إلى ذلك من سبيل . وقد كان لي في منهجه أستاذى الجليل الدكتور عبد المعظيم السلطى

في صنعة شعر أمية بن أبي الصلت أسوة حسنة، فحاولت في وعثاء الطريق أن أقتني خطاه ، وأقتدي بهداه . وهذا المنهج ميسر ومهذب ، يجعل ترتيب القصائد في الديوان على حروف المجم ، ويصنف أبيات كل قصيدة على نحو يشعر بجمعها من مصادر متفرقة ، وينبه على ما بينها من انقطاع ، ثم يذكر المصدر الاقدم لكل رواية تثبت في المتن ، ويشير الى مصادر الروايات المختلفة في الحواشي . وقد ضبطت أبيات الديوان بدقة ، وشرحـت الفاصلـن من معانـها وحـروفـها ، والـحـقـتـ بـهـ ماـ روـيـ لـابـنـ أحـمـرـ وـلـيـسـ لـهـ ، وـوضـمـتـ لـقصـائـدـهـ وـمـلـحـقاتـهـ تـخـرـيـجاـ ، يـفصـلـ مـصـادـرـ كـلـ قـصـيـدةـ ، وـيـعـرـضـ مـاـ يـتـصـلـ بـهـ أـحـيـاتـ مـاـ اـخـتـلـفـ فـيـ روـايـتهاـ لـابـنـ أحـمـرـ أوـ سـوـاهـ ، ثـمـ صـنـعـتـ لـلـكـتابـ كـلـهـ فـهـارـسـ فـنـيـةـ كـامـلـةـ ، تـيـسـرـ الفـائـدـ مـنـهـ . وـإـنـيـ لـأـمـلـ أـنـ تـرىـ هـذـهـ الـحـاـوـلـةـ النـورـ ، فـلـ تـبـقـيـ طـيـ الـأـهـمـالـ وـالـتـسـيـانـ مـعـاـ .

٢ - رواية شعره :

رأينا في دراستنا ديوان ابن أحمر سندين متصلين لروايته، انتهي بما ابن خير الاشبيلي الى أبي علي (القالى ٢٥٦ هـ) الذي قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد (٢٤١ هـ) عن أبي حاتم (٢٥٥ هـ) عن الأصمعي (٢١٧ هـ) . وال المصادر لا تتيح لنا أن نقت على طرق الرواية شعره في ابنائه وأسرته وقبيلته، أو أن تصرف بوضوح الطرق التي حلـتـهـ ، وـنـقلـتـهـ من القرن الأول الى عصر التدوين في القرن الثاني الهجري ، ولكنـا نـسـطـطـعـ انـ نـفـطـلـنـتـهـ الىـ أـنـ هـذـاـ الشـعـرـ قـدـ تـهـيـاتـ لـهـ الطـبـقـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ الـرـوـاـةـ الـعـلـمـاءـ الـدـيـنـ أـخـدـوـاـ بـرـوـاـيـةـ أـشـعـارـ الـمـاـخـرـيـنـ مـنـ الشـعـرـاءـ قـبـلـ غـيـرـهـمـ مـنـ الـمـتـقـدـمـينـ ، فـلـمـ يـكـوـنـواـ لـيـلـتـصـمـواـ الـفـرـوـعـ الـأـبـعـدـ أـحـکـامـ الـأـصـوـلـ ، وـكـانـتـ هـذـهـ سـنـةـ الـعـلـمـاءـ فـيـ الـرـوـاـيـةـ وـالـعـلـمـ مـعـاـ ، وـحـسـبـنـاـ أـنـ الـجـاحـظـ أـشـارـهـ ذـلـكـ ، فـقـالـ : «ـ اـنـ يـعـضـ مـنـ كـلـ فـلـ بـرـوـاـيـةـ اـشـعـارـ هـذـيـلـ قـبـلـ روـايـةـ شـعـرـ عـبـاسـ بـنـ الـأـحـنـفـ ، روـايـةـ شـعـرـ اـبـنـ أحـمـرـ قـبـلـ روـايـةـ شـعـرـ أـبـيـ نـوـاـسـ » (٤٠) .

ولمل شعر ابن أحمر قد دون قبل الأصمعي وطريقته من الرواية ، او لعله دون في حياتهم فقد رأينا في دراستنا ديوانه اشارـةـ الىـ أـنـ ثـمـةـ «ـ نـسـخـةـ فـيـهاـ شـعـرـ عـمـرـ وـبـنـ أحـمـرـ» ، كانت في مجلس ، حضره الأصمعي وابن الأعراقي (٤١) .

وذكر القمي كتاباً لباهلة ، وجد فيه قصائد لشاعرين متلقين من شعراً نهراً ، وما القتـالـ (٤٢) وـبـدـيـلـ بـنـ الضـرـبـ (٤٣) ، واذا جمعت اشعار هذه القبيلة وأخبارها في كتاب، ضم مثل هذين الشاعرين المنورين ، فليس من شك في أنه ضم اشعار المشهورين من شعراً باهلة كابن أحمر وغيره . ومثل هذه الكتب او الدواوين القبلية كانت «ـ تضم بين دفتـيرـهاـ قـصـائـدـ كـامـلـةـ وـمـقـطـعـاتـ قـصـيـدةـ وـأـبـيـاتـ مـتـفـرـقـةـ لـشـعـرـاءـ تـلـكـ القـبـيلـةـ اوـ لـيـعـضـ شـعـرـانـهاـ ، وـرـبـماـ ضـمـتـ اـكـثـرـ شـعـرـ هـؤـلـاءـ الشـعـرـاءـ ، بـلـ رـبـماـ ضـمـتـ جـمـيعـ شـعـرـ كلـ شـاعـرـ مـنـهـ وـدـيـوـانـهـ كـامـلاـ ، ثـمـ تـضـيـفـ إـلـيـ ذـلـكـ مـنـ الـأـخـيـارـ وـالـنـسـبـ وـالـقـصـصـ وـالـأـحـادـيـثـ مـاـ يـتـصـلـ بـالـشـاعـرـ نـفـسـهـ اوـ بـيـعـضـ أـفـرـادـ قـبـيلـهـ ، وـمـاـ يـوـضـعـ مـنـاسـبـ الـقـصـائـدـ ، وـيـفـسـرـ بـعـضـ أـبـيـاتـهاـ ، وـبـيـنـ مـاـ فـيـهاـ مـنـ حـوـاـثـ تـارـيـخـيةـ ، فـيـجيـمـ كـتـابـ القـبـيلـةـ بـذـلـكـ سـجـلاـ لـحـوـادـثـهاـ وـقـائـمـهاـ وـدـيـوـانـهاـ لـمـفـاخـرـهاـ وـمـنـاقـبـهاـ وـمـرـضـاـ لـشـعـرـ شـعـرـانـهاـ » (٤٤) ، وـنشـطـ تـصـنـيفـ هـذـهـ الـكـتـبـ مـنـذـ أـوـاـخـرـ

القرن الهجري الثاني على أيدي أبي عبيدة والأصممي وابن الأعرابي والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني وأبي سعيد السكري ومحمد بن حبيب وغيرهم^(٤٥) ، إلا أن ثمة من الأخبار ما يدل على أن « كتب القبائل كانت مكتوبة مدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري ، فاعتمدوها مصدرًا من مصادر تدوينهم نسخهم الخاصة التي نسبت روايتها إليهم »^(٤٦) .

وإذا كنا في موضع من فصول حياته قد وجدنا أن ابن أحمر كان يحسن الكتابة ، فإن هذا يعني أنه ربما أسمه أيضًا بتدوين طائفته من شعره على الأقل ، فكان ذلك عوناً للرواية من بعده .

فلا شك أن الرواية والتدوين قد اجتمعما في الحفاظ على شعر ابن أحمر ونقله إلى القرن الثاني ، ليكون بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة ، أمثلًا : الفراهيدي (١٧٥ هـ) ، وسيبوه (١٨٠ هـ) ، وابن الكلبي (٢٠٤ هـ) ، وأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) ، وقطرب (٢٠٦ هـ) ، والفراء (٢٠٧ هـ) ، وأبي عبيدة (٢١٠ هـ) ، والأصممي (٢١٧ هـ) ، وأبي عبيد (٢٢٤ هـ) ، وابن الأعرابي (٢٢١ هـ) ، وابن سلامة الجعفي (٢٣١ هـ) ، ثم ليكون بين أيدي الطبقة الثانية من الرواة ، أمثلًا : ابن السكبيت (٢٤٤ هـ) ، وأبي حاتم (٢٥٥ هـ) ، وشمر ابن حمذويه (٢٥٥ هـ) وغيرهم .

وكثيراً ما نجد اختلافاً واسعاً في روايات هؤلاء العلماء وشروحهم بسبب اختلاف مذاهبهم وعلومهم ، وقد عملت جهدي في البحث عن كل ذلك أثناء تحقيق شعر ابن أحمر .

٣ - مصادر شعره :

يعيد أن حملت الرواية والكتابة شعر ابن أحمر إلى القرن الثاني أصبحت السنة اللغوية والنحو تلهج بروايته قرناً بعد آخر شواهد على معنى من معانى اللغة أو بنية لفظ من الفاظها أو غريب من غرائب الاستعمال أو طريقة من طرائق الاشتغال ، حتى حظي بجل اهتمامهم ، فقال ابن الأثير : « ابن أحمر الباهلي شاعر معروف ، يستشهد على اللغة بشعره كثيراً ، فيقال : قال ابن أحمر ، ولا يذكر له اسم »^(٤٧) ، لما في شعره من فصاحه ، جعلته مقدماً لدى أهل اللغة .

ولهذا نرى أن الأصول التي عنيت بجمع اللغة ، أو تناولت بالتصنيف مشكلاتها وظواهرها ، كانت تزخر بشعره أكثر ممارياته في مصادر الأدب والنقد والمانوي وسوها ، ولذا كانت المعجمات في مقدمة مصادر شعره ، ونذكر على سبيل المثال أننا عدنا في المسان لابن منظور (٣٥١) بيّنا وثلاثين شطراً ، وفي الناج للزبيدي (٣٠٠) بيّنا وأربعين عشر شطراً ، وفي تهذيب اللغة للأزهري (١٤٨) بيّنا وأربعين وعشرين شطراً ، وفي الصحاح للجوهري (٩١) بيّنا وتسعين شطراً ، وفي جمهرة اللغة لابن دريد (٦٩) بيّنا وعشرين شطراً ، وفي المخصوص لابن سيده (٣٢) بيّنا وعشرين شطراً ، وفي التكملة للصنفاني (٧٠) بيّنا وعشرين واحداً ، وفي المحكم لابن سيده (٥٢) بيّنا وعشرين شطراً ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (٤٧) بيّنا وثمانية شطراً ، وفي التقافية لابن أبي اليمان (٣٤) بيّنا وعشرين ، وفي أساس المبالغة للزمخشري

(٢٢) بيتاً وأربعة أشطار ، وفي كنز العفاظ في تهذيب كتاب الالفاظ للتبريزي (٣١) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي الأفعال للسرقسطي (٣٠) بيتاً وشطرين ، وفي مجلل اللغة لابن فارس (٢٠) بيتاً وخمسة عشر شطراً . ولو عدنا الأبيات مضطربة النسبة بين ابن أحمر وغيره من الشعراء لارتفاعت هذه الأرقام أكثر في هذه المجموعات وغيرها من المصادر ، ولا سيما في اللسان والتابع اللذين لم ينفردا بأبي جديد من شعر ابن أحمر غير بعض أبيات فرادى .

وهذه المجموعات جمجمة تورد أبيات ابن أحمر شواهد على معنى من المعانى أو بنيت لغط من الالفاظ . ولهذه الغاية ذاتها كان من مصادره كتب غريب القرآن ومجازه ، ففي مجاز القرآن لأبي عبيدة مثلًا نجد (١٨) بيتاً، وكان منها شروح الدواوين والأصول ، ففي شرح المفضليات للأنباري نجد (٢٧) بيتاً ، وفي الاقتناب في شرح أدب الكتاب للبسطاطليوسى (٢٤) بيتاً وشطرين ، وفي شرح أبيات المغني للبغدادى (٢٠) بيتاً وشطرين ، وفي الجاهليات (١٧) بيتاً ، وفي شرح أبيات سيبويه لابن السيرافى (١٢) بيتاً .

ثم كانت كتب التصو على اختلافها من مصادر شعره أيضاً ، وذلك لما في شعره من شواهد نحوية عديدة ، فالبغدادى في خزانة الأدب احتاج لابن أحمر بـ (٣٧) بيتاً وشطرين ، وابن الشجاعى فى الأمالى بـ (٣٢) بيتاً ، وابن جنوى فى الخصائص بـ (١٨) بيتاً وشطر واحد ، وسيبوه بـ (٦) أبيات وشطر واحد ، وغيرهم .

وأما مصادر الأدب والنقد والمعانى ، فإن كلًا منها يورد طائفة قليلة من شعره ، إذا ما قورنت بالمصادر السابقة ، حتى ان كتاباهما ، وهو الأغاني ، لم يورد من شعر ابن أحمر إلا ثمانية أبيات ، نجدها في ثنايا إخبار المغنية جميلة ، مولاية بنى سليم . وإذا ما ذكرنا أبرز هذه المصادر وأهمها ، فإننا لا نتعظى بغير طائل ، فالباحث مثلاً لم ينقل من شعره غير (٢٣) بيتاً في البيان والتبيين ، والمعرى لم يردد غير (١٤) بيتاً في رسالة الفرقان ، و (١٢) بيتاً في الصامل والشاج ، وابن سلام لم ينشد غير (٦) أبيات في مطبقات فحول الشعراء ، والمرزبانى لم يورد غير بيتين في الموضع ، و (٦) أبيات في معجم الشعراء . . . ولكن واحداً من تلك المصادر ، وهو المانى الكبير لابن قتيبة ، يورد أبياتاً لابن أحمر ، يكاد عددها يفوق مجموع ما روطه من شعره ، فقد رأى ابن قتيبة في هذا الشعر ذخراً واحداً ، يمثل به على ما يسطعه من معان ، حتى اتنا نعدى كتابه لهذا (٣٩) بيتاً وشطراً واحداً ، وهذا قدر كبير اذا ما قيس بسائر الشعراء الذين احتاج بهم ابن قتيبة في الكتاب ، بينما نجده في الشعر والشعراء يورد (١٨) بيتاً ، وفي عيون الأخبار (٦) أبيات وشطراً واحداً . ولعل في ذلك دليلاً آخر على أنه « يُسْتَهْدَى عَلَى الْلِّفْظِ بِشِعْرِهِ كَثِيرًا » ، الا أن مصادر أهل الأدب والنقد والمعانى تتطل ذات قيمة مهمة بمأثره من أخبار حياته وخصوصيات شعره ، وبما طالعتنا به من أحكام ورؤى نقدية فيه .

وهنالك نوع من الكتب النقدية ، وهي كتب التصحيح والتعریف والتتبییه ، لا تغلو من أهمیة في رواية شعره ، إذ أنها تنظر إلى ما وقع في الروایة من خطأ وزلل ، ثم تقف على الصحيح منها ، ففي سبط اللآلئ للبکري (٣٨) بيتاً وشطر واحد ، وفي شرح ما يقع فيه التصحیح والتعریف لأبي أحمد المسکری (١١) بيتاً وشطر واحد ، وفي التتبییهات لملي

ابن حمزة (٩) أبيات وشطر واحد ، وفي التنبية على حدوث التصحيف لحنزة الأصفهاني
٥) أبيات وشطر واحد .

ويتلئ ذلك منزلة تلك المصادر التي صنفت على شكل مختارات أو أمال ، أو اهتمت بجمع الأمثال ، أو انتفت في الأزمنة والأمكنة ، وتأتي جمهرة أشعار العرب في مقتبسة هذه المصادر ، إذ اختار أبو زيد القرشي من شعر ابن أحمر قصيدة في (٥٢) بينما ، فعفظتها وحدها من يد العذَّان التي لم تبق من قصائده غير أبيات مفردة ومقاطع عدة ، تشتتت في أضعاف الكتب والمصادر المختلفة . وتتجدد أصحاب العamasات يغتربون من شعره تنفأ قليلة ، فالبصري مثلاً ينشد له (١٦) بينما ، والبحيري يروي (٩) أبيات ، وأبو تمام يورد (٤) أبيات . وأما أقدم مجموعةين من مختارات شعر العرب وأهمها ، وهما الأمسعيات والمفضليات ، فلم توردا شيئاً من شعر ابن أحمر بخلاف أصحاب العamasات الذين رواوا في شعره أغراضًا ، تفي برمایتهم وغاياتهم ، وتستحق أن تنتقى ، وتُختار . وأما كتب الأزمنة والأمكنة ، فقد احتجت بشعره ، وعددها في معجم للبكري (٥٧) بينما ، وفي الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (٢٣) بينما ، وفي معجم البلدان لياقوت (١٩) بينما وثلاثة أسطوار ، وفي الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري (٣) أبيات وشطرين . وهذا قدر كبير إذا ما قورن بسائر الشعراء الذين استشهد بشعرهم كل مصدر منها . وأما كتب الأمثال والمحاضرات والأمثال ، فليست بذات أهمية كبيرة فيما أورده من شعر ابن أحمر ، الا أنها تظل مهمة من الناحية التاريخية على الأقل .

وإذا ما استعرضنا أنواعاً أخرى من المصادر في المكتبة العربية مثل كتب التاريخ والسيرة والديانات والمذاهب وما يتعرف عن هذه العلوم جمعياً ، فاتنا لا نكاد نتف على أي آخر فيها لابن أحمر ، ففي السيرة مثلاً بيت واحد لا غير ، مما يؤكد عدم احتفال هذا النوع من المصادر بشعر ابن أحمر مع أن أكثرها قد تحدث عن بعض معاصريه من الشعرااء المغضوبين كحسوان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكمبين مالك وغيرهم من كان لهم مشاركة ما في صدر الإسلام .

وبذلك كانت مصادر شعره المختلفة تقتصر على المعجمات والأصول التي صنفت بظواهر اللفظة ومشكلاتها وعلومها ، فكانت تزخر بشعره أكثر مما روت مصادر الأدب وال النقد والمانوي وسواها .

٤ - ضياع شعره :

رأينا أن ديوان ابن أحمر وكتاب باهلة قد فُقدا ، وليس بين أيدينا من شعره غير ما نجده في أضعاف المصادر المختلفة ، وليس هناك دليل على أن هذه المصادر قد نقلت أبياتاً أو قصائد لم ترد في ديوانه ، وذلك لأنَّ العلماء الرواة الذين دونوا ذلك الشعر لم يجعوا إلا أبياتاً متفرقة أو مقطumat صغيرة ، أشبه ما تكون بالأوصال المزقة ، التقطعوا من أفواه بعض الأعراب والرواة « (٤٨) » .

والنظرة العجلى الى شعر ابن أحمر تجعلنا على ثقة تامة من ضياع قسم كبير منه، اذ بدا لنا أن ابن أحمر من أصحاب المطولات، ولكن صروف الدهر لم تبق منها غير مشوبة ، عدتها (٥٢) بيتاً ، ولم تدع القصائد الأخرى الا اوصالاً متباشرة ، تكاد تتم عن صورتها الأصلية في أغلب الأحيان ، حتى اتنا نعد في احدى رأياته المجموعة او احدى ميمياته (٣٤) بيتاً ، وفي احدى لائياته او احدى يائياته (٣٦) بيتاً ، وفي قصيدة نونية (٣٩) بيتاً ، وفي قصيدة رائية (٣١) بيتاً ، وفي قصيدة لامية (٣٠) بيتاً .

ومن ادلة ذلك أن أبا الفرج انشد لابن أحمر أبياتاً، فقال: « قال في عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قصيدة له طويلة جيدة : »

ادركت آل أبي حفص واسرتَه
و قبل ذاك ودهراً بعده كَلِبَا
قد تترتعي بقوافٍ بينَنا دولَ
بَيْنَ الْهَنَاتَسَيْنِ لَاجِدًا ولا لَعْبَا
اذ يركبون جناتاً مُسْهِبَاً وَرِبَا » (٤١)

ولكنه لم يبق من هذه القصيدة الطويلة غير (١٩) بيتاً وشطر واحد، اذا استثنينا منها ما رواه الأصفهاني ، مما يؤكّد أن ابن أحمر كان يقصّد شعره ، ويطلقه ، ولكن قصائد المطلولة لم تصل اليها .

ولعل كثيراً من الآيات الفرادى ، ومجموعها نحو (٢٢) بيتاً ، هي مجرد بقايا قصائد مفقودة ، ومن أمثلة ذلك ما انشده في ركاب ، اودعها « رجالاً منبني سعد ، فاغار عليها قوم منهم ، فأخذوها ، ولم يسعَ الشَّفَيرُ فِيهَا » (٤٠) ، فمرّض بهم ، وقال :

فَرَدُوا مَا تَدِيكُمْ مِنْ رِكَابِي وَلَئِنْ تَاتِكُمْ صَمَمٌ صَمَامٌ

ولكنه لم يبق من هذا التعمير غير هذا البيت ، ولا شك أنه لم يكن يتيمما ، وإنما هو من قصيدة في الأصل .

وابن أحمر غزير الشعر كثيرة ، قال الشعر من يفاعته الى مماته ، ولم يحجم عنه في الاسلام كما فعل لبيد ، ولم تفتر عنْه عزيمته، او تلن شكيته، حتى قال أبو الفرج: « قال في الجاملية والاسلام شمراً كثيراً » (٤١) ، الا أن هذا الشعر الكبير قد ذهب في ذمة التاريخ ، ولم يبق منه غير (٥٢٥) بيتاً وثلاثة أشطر ، هي مجموع الشعر الذي اطمأن الباحث الى نسبة اليه .

ان ضياع جزء كبير من شعر ابن أحمر يمثل جانباً واضحاً من جوانب معنـة جلـى ، رزـى بها على مر العصور تراـثـاـ الـعـربـيـ الـاسـلـامـيـ ، فـلوـ جـاءـناـ وـافـرـاـ لـجـاءـناـ عـلـمـ وـشـعـرـ كـثـيرـ ، كـماـ قـالـ اـبـوـ عـمـروـ بـنـ العـلـاءـ (٥٢) . وـلمـ تـكـنـ يـدـ الـعـدـاثـ وـحدـهاـ تـبـثـ بـهـذاـ الـعـرـاثـ فـعـسـبـ ، وـانـماـ تـعـدـتـ الـأـخـبـارـ عـنـ روـاـوـضـائـعـينـ وـمـدـعـيـنـ مـنـتـحـلـيـنـ ، اـفـسـدـواـ مـاـ أـبـدـعـهـ الـأـوـلـوـنـ ، وـشـاعـ بـيـنـهـ الـكـذـبـ وـالـوـضـعـ وـالـأـضـطـرـابـ فيـ روـاـيـةـ ايـ شـيءـ منهـ ، (٥٣) .

العواشي :

- ١ - هو ابو الخطاب ، عمرو بن احمر الباهلي من بنى فراص بن من بن مالك بن اعصر ، شاعر مقتضم من فهول شعراء اهل نجد ، كان صاحب الكلام كثير القريب ، فاستشهد على اللغة بشعره كثيراً ، واشتهر بمشوبة مؤثرة ، رواهـا الترشـي في جمهـرته . وقد ذكرـنا وفاته بعد دراسة حياته وشعره بين (٦٩٦ و ٧٧ و ٢٢ و ٢٠١ م) . انظر : طبقات فول الشـراء (٥٧١) ، والـشعر والـشـراء (٣٥٦) ، والـعـارـف (٨١) ، وجـمـهـرـة اـشـعـارـ الـعـربـ (طـ الـجـاوـيـ) ، والـاقـانـيـ (٢٩٨٠) ، والـمـوـلـىـ والمـخـلـفـ (٤٤) ، ومـعـجمـ الشـعـراءـ (٢٤) ، وـسـمـطـ الـأـلـيـ (٣٠٧) ، والإـمـالـيـ لـابـنـ الشـجـريـ (١٢٧ / ١) ، وخـزـانـةـ الـأـبـ (٣٨ / ٣) ، وـشـرحـ آـيـاتـ الـقـضـيـ للـبغـدـادـيـ (١٣٥ / ٢) ، والـاصـابـةـ (١١٢ / ٣) ، والـلـقـضـابـ (٣١٩) ، ومن سـمـيـ منـ الشـعـراءـ عـمـراـ (٥٦) ، والـتـاجـ (فـرـصـ) . ولـزـيدـ مـنـ الـاطـلـاعـ رـاجـعـ فيـ مـكـتـبـةـ الـأـسـدـ بـمـيـشقـ رسـالـتـناـ : شـعـرـ عمـروـ بنـ اـحـمـرـ الـبـاهـلـيـ : جـمـعـ وـتـعـقـيقـ وـدـرـاسـةـ ، بـعـثـ أـعـدـنـ لـنـيلـ درـجـةـ الـمـاجـسـتـرـ فيـ الـأـدـابـ باـشـارـفـ الـإـسـتـادـ الـدـكـورـ عبدـ العـظـيمـ السـطـلـيـ . كلـيـةـ الـأـدـابـ وـالـعـلـمـ الـاـنسـانـيـ فيـ جـامـعـةـ دـمـشـقـ (١٩٨٨ / ٨٧)
- ٢ - انظر : الفـهـرـسـ لـابـنـ النـديـمـ (٢٢٤) وـماـ يـمـدـهـ .
- ٣ - شـرحـ ماـ يـقـعـ فـيـ التـصـحـيفـ وـالتـعـرـيفـ (١٨٩) . وـانـظـرـ : التـنبـيـهـ عـلـىـ حـلـوـتـ التـصـحـيفـ (طـ طـلسـ) (٨٤) ، وـ (طـ الـيـاسـينـ) (١٤٠) .
- ٤ - شـرحـ ماـ يـقـعـ فـيـ التـصـحـيفـ وـالتـعـرـيفـ (١٩٠ / ١) .
- ٥ - المصـرـ السـابـقـ تـقـصـيـقـ (٤٦٣ / ١) .
- ٦ - تاريخـ بـرـوكـلـمانـ (٧٥ / ٧) . وـبـرـىـ الدـكـتورـ نـاصـرـ الدـيـنـ الـأـسـدـ أـنـ صـاحـبـ الـجـمـهـرـ عـاـشـ قـبـلـ مـنـتـصـفـ الـقـرـنـ الـقـاسـمـ ، لـانـ اـبـنـ رـيـقـيـ رـوـيـ عـنـهـ فـيـ الـعـدـةـ ، وـابـنـ رـيـقـيـ مـاتـ مـنـةـ (٦٩٣) لـلـهـجـرـةـ ، وـبـعـدـ الـبـرـكـلـ وـفـاتـهـ سـنةـ (٧٠) لـلـهـجـرـةـ . انـظـرـ صـادـرـ الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ (٥٨٦) ، وـ (٥٨٨) ، وـ (١١٤ / ٦) ، وـ (١١٦) .
- ٧ - جـمـهـرـ اـشـعـارـ الـعـربـ (طـ صـادـرـ) (٩) . وـ (طـ الـجـاوـيـ) (١) .
- ٨ - الفـصـائـصـ (٢٤ / ٢) .
- ٩ - معـجمـ ماـ اـسـتـعـيـمـ (٤٦٥) .
- ١٠ - كـنزـ الـعـقـادـ (٤٤٦) .
- ١١ - الـاـقـضـابـ (٤٣٤) .
- ١٢ - سـوـرـةـ الـشـرـشـ (١٦ / ٥٩) .
- ١٣ - الإـمـالـيـ لـابـنـ الشـجـريـ (١٤١ / ١) .
- ١٤ - انـظـرـ : فـهـرـسـ اـبـنـ خـيـرـ (٣٧) .
- ١٥ - فـهـرـسـ اـبـنـ خـيـرـ (٣٦٣) . وـاـوـرـدـ مـقـهـ اـسـمـ اـبـنـ اـحـمـرـ مـصـحـفـاـ بـالـدـالـ فـيـ خـمـسـ مـوـاضـعـ مـنـهـ ، وـهـيـ (٣٩٣) وـ (٣٩٨) وـ (٤٩٩) وـ (٥٩١) وـ (٥٤٤) وـ (٤٩٩) .
- ١٦ - الـلـسـانـ ، وـالـتـاجـ (عـرـضـ) .
- ١٧ - الـلـسـانـ ، وـالـتـاجـ (خـتـبـ) .
- ١٨ - الـلـسـانـ ، وـالـتـاجـ (فـرـ) .
- ١٩ - النـكـملـةـ (١٦٤ / ٣) ، وـعـنـهـ فـيـ الـتـاجـ (فـرـ) .
- ٢٠ - الـتـاجـ (مـعـنـ) .
- ٢١ - خـزـانـةـ الـأـبـ (٣٨ / ٣) .
- ٢٢ - كـنـفـ الـظـلـونـ (٧٦٦ / ١) .
- ٢٣ - خـزـانـةـ الـأـبـ (٣٣ / ٤) .
- ٢٤ - الـتـاجـ (زـهاـ) .
- ٢٥ - نـشـرـ مـجـعـ اللـغـةـ الـعـرـبـيةـ بـمـيـشقـ شـعـرـ اـبـنـ اـحـمـرـ دونـ تـارـيخـ ، وـاـشـارـ فـيـ فـهـرـسـ مـطـبـوعـاتـهـ (١٤) إـلـىـ أـنـهـ طـبـعـ سـنةـ (١٩٧٠) مـ .

- ٢٦ - انظر : شعر ابن احمر (ط . عطوان) ١٠٩ و ٧٢ .
- ٢٧ - انظر : المصدر السابق نفسه ٣٩ و ٨١ و ١٢٢ و ١٣٢ و ١٦٦ .
- ٢٨ - المصدر السابق نفسه ٥٢ .
- ٢٩ - ٣٠ - (٤) و (٥) المانى الكبير ١٢٢ .
- ٣١ - شعر ابن احمر (ط . عطوان) ٤٨ .
- ٣٢ - عياد الشعر ٩٩ ، والموشح ١٣٦ .
- ٣٣ - شعر ابن احمر (ط . عطوان) ١٢٧ .
- ٣٤ - تهذيب اللغة ١/ ٢٨٥ ، والتكلمية ٤/ ٢١٨ ، والسان ، والتاج (يقع) . وصيغته : خلقته . وقال ابن مكى يقولون : شلت يده ، و « الصواب » شلت يفتح الشين . تتفق اللسان ١٥٠ .
- ٣٥ - انظر : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (من ٤٢٢ ، ج ٢ ، ٤٧ ، مج ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م) .
- ٣٦ - انظر : مجلة معهد المخطوطات العربية (من ٣٢٢ ، ج ١ ، ٢٠ ، مج ١٤٠٦ هـ ١٩٨٩ م) .
- ٣٧ - الاسم والمعنى ٣٤ .
- ٣٨ - المصدر السابق نفسه ٣٤٣ .
- ٣٩ - انظر : فهرست ابن خى ٣٩٣ .
- ٤٠ - البرصان ٣ .
- ٤١ - انظر : شرح ما يقع فيه التصحيف والتعريف ١٨٩/١ .
- ٤٢ - المختلف والمختلف ٢٥٢ .
- ٤٣ - المصدر السابق نفسه ٢٨٠ .
- ٤٤ - مصادر الشعر الجاهلى ٥٥٤ .
- ٤٥ - انظر : فهرست ابن النديم ٢٢٣ وما بعدها .
- ٤٦ - مصادر الشعر الجاهلى ٥٥٨ .
- ٤٧ - المرصع ٦٥ .
- ٤٨ - مصادر الشعر الجاهلى ٤٨٣ .
- ٤٩ - الأغاثى ٢٩٨٠ .
- ٥٠ - جمهرة ٢٠٦/٢ .
- ٥١ - الأغاثى ٢٩٨٠ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الادب ٣٩/٣ ، والعبارة فيها : « قال في الاسلام شعرا كثيرا ». .
- ٥٢ - طبقات فحول الشعراء ٢٥ ، والخصائص ١/ ٢٨٦ .
- ٥٣ - انظر : مصادر الشعر الجاهلى ٣٢١ ، وما بعدها .

★ ★ ★

□ المصادر والمراجع :

أولاً : المطبوعات :

- ١ - الاسم والمعنى لابن السيد البطيويسي (٥٢١ هـ) . تج : احمد فاروق . نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، ٤٧ ، مج ١٣٩٢ ، ١٩٧٢ م .
- ٢ - الاصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) . ط ١ . مصر ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م (مصور دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ) .
- ٣ - الاعلام لغفرالدين الزركلي . ط ٥ . دار العلم للملاتين في بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٤ - الأغاثى لابن الفرج الاصفهانى (٣٥٦ هـ) . تج : ابراهيم الابياري . دار الشعب في مصر ١٦٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- ٥ - الافتضاب في شرح ادب الكتاب لابن السيد البطليوسى (٥٢١ هـ) . دار الجيل في بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ٦ - الامالى لابن الشجاعى (٥٤٢ هـ) . مجلس دائرة المعارف العثمانية بغير اباد الدكى بالهند ١٣٦٩ هـ / ١٩٣٠ م .
مصورة دار المعرفة في بيروت دون تاريخ .
- ٧ - البرسان والعرجان والمعيان والعلوان للجاحظ (٢٥٥ هـ) . تج : د. محمد مرسي الغولى . ط ٢ . مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٨ - تاج المرؤس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي (١٢٥٠ هـ) . حققه عدد من الأساتذة المحققين ، ونشرته حتى الجزء الخامس والعشرين وزارة الاعلام في الكويت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، فاستمنا باجزائه الأخرى من الطبعة المصرية المعروفة .
- ٩ - تاريخ الابد العربي لكارل بروكلمان . تر : د. عبد الحليم التجار . دار المعارف في مصر ١٩٧٧ .
- ١٠ - تشقيق اللسان وتلقيح العنان لابن مكي الصقلي (٥٠١ هـ) . تج : د. عبد العزيز مطر . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٠ م .
- ١١ - التكميلة والذيل والصلة لكتاب (تاج اللغة وصياغة العربية للجوهري) للصقلي (٦٥٠ هـ) . تج : عدد من الأساتذة المحققين . مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ١٢ - التنبية على حلوث التصعيب لعزرا بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠ هـ) . تج : محمد اسعد طلس . مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، وهناك نشرة أخرى منه ، حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين . ط ١ . مكتبة الهفطة في بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٣ - تهدیب اللغة لابن منصور محمد بن احمد الاذري (٣٧٠ هـ) . تج : عدد من الأساتذة المحققين . وزارة الثقافة في مصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- ١٤ - جمهرة اشعار العرب لابن زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي (اواخر القرن الثالث الهجري) . دار صادر في بيروت (دون تاريخ) ، وهناك نشرة أخرى منه ، حققها على محمد الجاوي . دار نهضة مصر في القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٥ - جمهرة اللغة لابن دريد الاذري (٣٢١ هـ) . ط ١ . مجلس دائرة المعارف العثمانية بغير اباد الدكى بالهند ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- ١٦ - خزانة الابد (ومهما المقادير النحوية للعیني) لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) . دار صادر في بيروت (دون تاريخ) .
- ١٧ - الفحاصن لابن الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢ هـ) . تج : محمد علي التجار . ط ٢ . دار الهوى للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) .
- ١٨ - سبط الملائكة لابن عبيد البكري (٤٨٧ هـ) . تج : عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .
- ١٩ - شرح أبيات المفتني لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) . تج : احمد يوسف دلاق وعبد العزيز رباح . ط ١ . دار المأمون للتراث في دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٢٠ - شرح مایقون فيه التصعيب والتعریف لابن احمد الحسن بن عبد الله العسكري (٣٨٢ هـ) . تج : د. السيد محمد يوسف عن مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٢١ - شعر عمرو بن احمد الباطلي . تج : د. حسين عطوان . مجمع اللغة العربية بدمشق (دون تاريخ) .
- ٢٢ - الشعر والشعراء لابن التبیة (٢٧٦ هـ) . تج : احمد محمد شاکر . دار المعارف بصرى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٢٣ - طبقات قهول الشعراء لابن عداته محمد بن سلام الجمعي (٢٣١ هـ) . تج : محمود محمد شاکر . دار المعارف بصرى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ٢٤ - عيار الشعر لمحمد بن احمد بن طباطبا (٣٢٢ هـ) . تج : د. طه العاجري ، و د. محمد زغلول سلام . المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .
- ٢٥ - الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) . دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) .

- ٢٦ - فهرسة ما رواه عن شيوخه لابي بكر محمد بن خير الاشبيلي (٥٧٥ هـ) تج : فرنشكه قداره زيدين وخليان رباره طرغوه . ط ٢ . دار الالاق العديدة في بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
- ٢٧ - فهرس مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٢١ - ١٩٧٥) مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م
- ٢٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لصطفى بن عبد الله ، المعروف بعامي خلقة (١٠٦٧ هـ) تج : محمد شرف الدين يالتقىا ، ورفعت يليلة الكلisy . مكتبة المشن بيغداد (دون تاريخ) .
- ٢٩ - كنز العقاد في كتاب تهذيب الانفاظ للخطيب التبريزى (٥٠٢ هـ) تج : لويس شيفو . الطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٤٩٥/١٣١٣ م
- ٣٠ - لسان العرب لابن منظور (٢١١ هـ) عدد من الأنساطرة المحققة . دار المعرف بمصر ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م
- ٣١ - المرصل في الآباء والأمهات والبنين والبنات والألواء والملوات لابن الأثير (٧٠٦ هـ) تج : د. ابراهيم السامرائي رئاسة ديوان الوقف في بغداد ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م
- ٣٢ - مصادر الشعر الباهلي ويقتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد . ط ٥ . دار المعرف بمصر ١٤٢٨ هـ / ١٩٧٨ م
- ٣٣ - الماعن الكبير في آيات الماعن لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) تج : سالم الكرنكوي . ط ١ . مجلس دائرة المعارف العثمانية بعمر آباد الدكن بالهند ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م
- ٣٤ - مجمع الشعراء لابي عبيده الله بن عمران المرزباني (٥٢٨٤) تج : عبد السنوار احمد فراج . مكتبة التوري بدمشق (دون تاريخ) .
- ٣٥ - مجمع ما استجمع من أسماء البلاد والمواقع لابي عبيده البكري (٤٤٧ هـ) تج مصطفى السقا . ط . لجنة التاليف والنشر والترجمة في القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م
- ٣٦ - المعرف لابن قتيبة (٢٧٩ هـ) تج : د. ثروت عكاشة . ط ٢ . دار المعرف بمصر ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٩ م
- ٣٧ - المؤتلف والمختلف لابي القاسم الحسن بن بشر الهمدي (٣٧٠ هـ) تج : عبد السنوار احمد فراج . دار احياء الكتب العربية بمصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م
- ٣٨ - المنشق في مأخذ العلماء على: الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر للمرزباني (٥٢٨٤ هـ) تج : محمد علي الجباوى . دار نهضة مصر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

ثانياً : المخطوطات :

- ١ - شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمع وتحقيق ودراسة . صنفة محمد معن الدين مينو . بحث اعد لنيل درجة الماجستير في الأدب باشراف الاستاذ الدكتور عبد العفيف السطلي . كلية الأدب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق ١٩٨٨ / ٨٧
- ٢ - من سمى من الشعراء عمراً لحمد بن داود بن العرجاج (٢٩٦ هـ) صورة (القاطع ٥٣٠٢) يعتقد بها مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومنه صورة أخرى في مكتبتي .

ثالثاً : المجلات :

- ١ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، مع ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م
- ٢ - مجلة مهد المخطوطات العربية : ج ١ ، مع ٢٠ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

استدراك

على ديوان ديك الجن العمسي

مع تحقيق : مظهر الحجي

خير الدين شمسي باشا

كانت مجلة التراث العربي نشرت لي بعدها المزدوج (٢٥/٢٦) مقالاً بعنوان (استدراك على ديوان ديك الجن) وبعدها (٣٢) القسم الثاني منه . وكان استدراكاً على الديوان الذي نشره أديباً حمص الشاعران الاستاذ عبد المعين الملوحي والمرحوم محيي الدين الترويش عام ستين وتسعمئة وalf . وفي عام سبعة وثمانين وتسعمئة وalf ، نشرت وزارة الثقافة في سلسلة : إحياء التراث العربي (ديوان ديك الجن العمسي (عبدالسلام بن رغبان) جمع وتحقيق مظهر العجي) .

قال الأستاذ المحقق في مقدمة الديوان :

« ان عملنا في هذا الديوان هو المحاولة الثالثة لاحياء شعر ديك الجن العمسي . وأنا لا أدعى الكمال في هذا العمل . فالباب ما زال مفتوحاً ما دام الأصل المخطوط ضائعاً وما دامت المطابع تلفظ كل يوم جديداً من كتب التراث التي قد تجوي بعضها من شعر ديك . وهذا يدفعني إلى التقدم بالرجاء العسار والصادق إلى الآخوة الأدباء والمدارسين على امتداد الوطن العربي بمن يد المساعدة وإرسال ما قد يقع تحت أيديهم من شعر ديك الجن . ولملل المحاولة القادمة تكون أدق وأكمل » . وقد كنت أثناء قراءتي في كتب الأدب، كلما عثرت على شعر ديك الجن أراجعه على هذا الديوان ، وأكتب في صفحاته ما أجد من اختلاف الروايات ، وأدون بعض الأبيات التي ليست فيه ، كالأبيات الواردة في الفقرة (٤٢) من هذا المقال ، والأبيات في الفقرة (٢٥) وأشار إلى الأبيات التي أخذ مثانيها عدد من الشعراء كالتنبي وغيره وأكتب أشعارهم . وهذا مما نقلته عن كتاب (الإباتنة عن سرقات التنبي) نشر دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي .

وتلية لرجاء الأستاذ مظہر العجی، أقدم حصيلة هذا العهد المتواضع بالقياس الى جهده المعلمی، وعنياته الفائقة بدقة التحقیق . ولا بد من الاشارة بالدراسة المستفيضة التي صدر بها الديوان . ولعله في المعاونة القادمة يذكر في العواشي الشعراء الذين غرفوا من منهل هذا الشاعر الغد الذي سعى اليه اعظم الشعراء وهو قابع في مربعه المتواضع في قرية الدوير على ضفاف العاصي :

١ - في الصفحة ٤٢ - رقم/ ٧ :

وقال :

فتي كان مثل السيف من أين جئتة لنائبة نابتھ فھي مضاربھ
وفي الصفحة (٤٨) تكرر ورود هذا البيت في القصيدة رقم ١١ التي يمدح بها جعفر بن علي الهاشمي بهذه الصورة :

فتي كان مثل السيف من حيث جئتة لنائبة نابتک فهو مضارب
لعله بهذه الروایة أصوب وأصح معنی . وورد في الحماسة البصرية :

«لنائبة تأتیک فهو مضارب»

٢ - في الصفحة ٦٣ - رقم/ ٢٢ :

البيت الرابع من المقلوعة :

وتارة كالسطور متصلة (٠٠٠٠٠) في جوانب الكتب

قال المحقق مشیرا الى موضع النقط : كلمة غير مقروءة في الأصل . انتهى . وكنا اثناء مراجعة الديوان قد نقلنا كلمة (بیماته) مكان النقط عن مصدر نسبنا ان نذكر اسمه . وستتكرر فيما يأتي بعض التصحیحات والمنقولات من هذا المصدر . وكان الأجدør بنا ان لا نعرض في هذا المقام شيئاً غير موثق ، فنعتذر عن ذلك ، لكن رأينا التنبیه اليه أكثر فائدة من اهماله .

٣ - في الصفحة ٩٩ - رقم/ ٧١ :

وقال في كثمانه للسر :

لقد احللت سرك من ضمیري مکانًا لم يعس به الفضیر
فمات يعيث ما سمعته اذن فلا يرجى له ابداً نشور

وفي كتاب (الابانة عن سرقات المنبی/ الطبعة الثانية صفحة ١٥٨) بعد هذین البيتين قال المنبی :

وسرك بين العشا میت اذا نشر السر لا ينشر

وهو في ديوانه :

« وسرك في العشا مضر »

٤ - في الصفحة ١٠٥ - رقم ٧٣ :

بها غير معنول فداو خمارها وصل بعشيات الغبوق ابتكارها

وفي كتاب (فصول التمايل في تباشير السرور) لابن المعتز (م). مجمع اللغة العربية بدمشق/ ١٤١٠ هـ) صفحه (٥٧) ورد عجز البيت هكذا :

« وصل بخيالات الغبوق ابتكارها »

٥ - في الصفحة ١٠٦ - رقم ٧٣ :

ونل من عظيم الوزر كل عظيمة اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وفي (فصول التمايل في تباشير السرور) ص/ ٥٨ :

ونل من عظيم الذنب كل عظيمة اذا كتبت خاف الحفيظان نارها

٦ - في الصفحة نفسها : البيت الرابع من المقطوعة :

فقام تقاد الكاس تحرق كفه من الشمس او من وجنتيه استعارها

وفي (فصول التمايل في تباشير السرور) ص/ ٥٨ :

فقام تقاد الكاس تخضب كفه وتحسبه من وجنتيه استعارها

٧ - في الصفحة نفسها : البيت الخامس من المقطوعة :

ظللنا بآيديينا نتعشع روحها فتاخذ من اقدامنا الراح ثارها

وفي (الابانة) ص/ ١٩٦ :

نظل بآيديينا نتعشع روحها فتاخذ من اقدامنا الكأس ثارها

وقال المتنبي :

نال الذي نلت منه مني الله ما تصنع الفمود

وفي الحاشية : يقول : الذي نلت منه بشربه ناله مني بغياب عقله والتاثير في اعضائي وهذا مأخوذ من قول الطائي :

وكأس كمسعول الأماني شربتها ولكنها احقت وقد شربت عقلها

على ضفتها ثم استقادت من الرجل اذا اليد نالتها بوتر توفرت

ومن قوله أيضاً :

أليكم فتي حي فيخبرني عنني بما شربت مشروبة الراح من ذهني
انتهى . ومن المحفوظ بيت للطبيب أبي بكر بن زهر (الأندلسي) يعنى بيت ديك الجن
وهو :

والغمر تأخذ ثارها بينماها أنسى أملت إنساءها فاما لنى

ويلاحظ في قول صاحب العاشية في الإبانة : « وهذا ما خوذ من قول الطائي » أن
المعروف المشهور أن آبا تمام كان كثير الأخدمن ديك الجن . وأن ديك الجن قد أطعاه حين
زاره في حصن درجا فيه قصائد من شعره وقال له ما معناه : تكسب بهذا واعمل على متواله.
فقد توسم فيه ديك الجن أن سيكون شاعراً فاعلاً . [أنظر المدد ٣٢ من مجلة التراث
العربي] .

٨ - في الصفحة ١٠٧ : البيت السادس من القلعة :

موددة من كف ظبي كانما تناولها من خده فادارها
وهو في (فصول التصايل) ص ٥٨ :

مشعشعة من كف ظبي ٠٠٠ البيت

٩ - في الصفحة ١١١ - رقم / ٨٠ :

وقال معبراً عن رأيه في المرأة :

فان الهوى يرديك من حيث لا تدري
أخوا الرأي والتدبر لا تركب الهوى
ولا تشقن بالفالانيات وان وفت
وفاء الغوانى بالعهود من الغدر
وفي كتاب الإبانة ص / ٤٥ بعد ذكر البيتين :

أبو تمام :

سجية طبع ، كل غانية هند
ولَا تحسبا هندا لها الغدر وحدها
فان حقلت لم يبق في قلبها رضى
قال المتنبي :
و اذا غدرت حستاء اوفت بعهدها
ومن عهدنا ان لا يدوم لها عهد
انتهى .

وبيت أبي تمام الأول في الديوان (اصدار مكتبة التوري بدمشق) ص / ١٠٧ مكذا :
فلا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

اما البيت الثاني فليس لأبي تمام ، وانما هو للمنتبى وهو في ديوانه (العرف الطيب) للليازجي ص/٣٩٨ دار صادر بيروت) بعد قوله :

فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان فرّكت فاذهب فما فركها فصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضي
يضل بها الهاني ويغنى بها الرشد

اذا غلرت حسناه وقت بعهدها
وان عشقت كانت اشد ضبابية
وان حقدت لم يبق في قلبها رضي
كذلك اخلاق النساء ، وربما

١٠ - في الصفحة ١١٥ - رقم ٨٥ :

لم تبل عينك ابيضا في اسود
جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يغترب اسمها
و فوق كلمة (تَبَلُّ) كلمة (تَلَقَّ) و فوق كلمة (رِيقَهَا) كلمة (خَدَّهَا) بالقلم الاحمر
كنا نقلناها اثناء مراجعة الديوان عن المصدر السابق الذي نسينا ان نذكر اسمه .

١١ - في الصفحة ١١٦ - نفس الرقم :

تسقيك كأس مداممة من كفها وردية ، ومداممة من ثغرها
وتحت البيت بالقلم الاحمر البيت التالي :
بنت المذابح والقسوس كريمة لا تستحي يوم العساب بوزرها
وهو من المصدر السابق وليس في الديوان .

١٢ - في الصفحة ١١٩ - رقم ٩١ :

لا شيء أحسن من راح مشعشعة حمصية سيئما من كف شمامس
و فوق كلمة (حمصية) كلمة (ديرية) بالقلم الاحمر . وبعد هذا البيت :
اذا اغتنى لزبور الكتب يدرسها الهى قلوب الورى عن كل مدراس
و فوق كلمة (لزبور) كلمة (بزبور) بالقلم الاحمر والتصحيح من المصدر السابق .

١٣ - في الصفحة ١٢٠ - رقم ٩٢ :

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن هي نفسي تذيبها انفاسي
وفي (الابانة) ص / ١٦٧ بعد ذكر هذا البيت : قال المنتبى :
حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر اي الطاعنين اشيع
 وأشاروا بتسليم فجذنا بانفس تسيل من الآماق والسم أممع
[السم بالكسر : لفة في الاسم] .

وفي حاشية صفحة ١٦٨ : ومثله :

خليلى لا دمعاً بكى وانما هي الروح من عيني تسيل على خلبي

ولابن دريد :

لا تحسبوا دمعي تحدى انها روحى جرت في دمعي المعلق

١٤ - في الصفحة ١٣٤ :

فاصرف بصرفك وجه الماء يومك ذا حتى ترى نائماً منهم ومنصرفاً

وفوق كلمتي (وجه الماء) كلمتا (صرف الراح) والتصحيح من المصدر المنسي ذكره .

١٥ - في الصفحة ١٣٦ :

حتى حسبت انوروان من خولي وخلت ان نديمي عاشر الغلفا

والمحفوظ كما في المصدر السابق : (سابع الخطفا)

١٦ - في الصفحة ١٣٩ :

فان كذبوا أمنت وان أصابوا فان المبتليك هو المعاافي

وفوق كلمتي (كذبوا أمنت) كلمتا (أخطروا أصبت) بالاحمر والتصحيح من المصدر السابق .

١٧ - في الصفحة ١٥٥ - رقم / ١٢٢ :

نغو على سيد يعصى العصى عدداً في الغافقين ولا تعصى فواضله

وفي (الابانة) ص / ٣٠ :

ديك الجن :

تغنو الى سيد يعصى العصى عدداً في الغافقين ولا تعصى فواضله

محمد بن حازم الباهلي أبو جمفر :

يعصى العصى ويعد الرمل أصفره ولا تعمد ولا تعصى معاليه

قال المتنبي :

حلو خلائقه شوس حقائقه تعصى العصى قبل أن تعصى مأثره

١٨ - في الصفحة ١٥٨ - رقم / ١٢٤ :

وقال :

وانى بريء من أخي وانتسابه اليه اذا الفيت في طبعه بغلا

وان كرم الآباء لم اره فضلاً فان لم تكن بالطبع نفسى كريمة

وفي الابانة ص/ ١٧٨ بعد هذين البيتين :

المتنبي :

وأنف من أخي لأبي وأمي اذا مال م الجده من الكرام
ولست بقانع من كل فضل بـان اعزى الى جد همام
١٩ - في الصفحة ١٦٩ - رقم ١٢٩ :

وقال في العكمة :

اـخـلـ وـاـمـرـ مـعـاـ وـلـنـ تـارـةـ وـاخـشـ وـرـشـ أـنـتـ وـاـنـتـبـ لـلـمـعـالـيـ
واـغـثـ وـاسـتـفـثـ بـرـبـكـ فـيـ الـأـرـ ضـاـذاـ جـلـعـتـ صـرـوـفـ الـلـيـالـيـ

وفي الابانة ص/ ١١٧ :

ديك الععن العمسي من قصيدة اولها :

فسـدـ الـدـهـرـ فـاطـلـ الرـزـقـ بـالـسـيفـ وـالـاـ فـمـتـ قـتـيلـ الـهـزـالـ
اـحـلـ وـاـمـرـ وـضـرـ وـانـقـعـ وـلـنـ وـاخـشـ وـرـشـ وـاـبـرـ وـاـنـتـبـ لـلـمـعـالـيـ

ابو المُمِيشَلَ :

يـاـ مـنـ يـحـاـوـلـ انـ تـكـونـ صـفـاتـهـ
كـخـسـالـ عـبـادـهـ اـنـصـتـ وـاسـمعـ

وـاحـلـ وـدـانـ وـكـافـ وـاـحـلـ وـاـشـبـعـ

قال المتنبي :

اـقـلـ اـنـ اـنـ صـنـ اـحـلـ عـلـىـ سـلـ اـعـدـ زـدـ هـشـ بـشـ هـبـ اـغـفـرـ اـنـ سـرـ صـلـ

وـفـيـ الـعـاشـيـةـ :ـ وـفـيـ نـسـخـةـ الـجـامـعـةـ هـكـذـاـ :ـ [ـ وـهـوـ فـيـ الـدـيـوـانـ (ـالـرـفـ الـطـيـبـ)ـ]ـ :

اـقـلـ اـنـ اـقـطـعـ اـحـلـ عـلـ سـلـ اـعـدـ زـدـ هـشـ بـشـ تـفـضـلـ اـنـ سـرـ صـلـ

٢٠ - وفي الصفحة ١٧٣ - رقم ١٤١ : وقال :

الـكـلـبـ فـوـقـ اـنـسـ اـنـتـ مـاـلـهـمـ وـنـعـمـ اـنـتـ فـيـهـاـ عـنـدـهـمـ نـقـمـ
وـانـ دـهـرـاـ عـلـوـتـ النـاسـ كـلـهـمـ فـيـهـ فـيـ الـجـهـلـ وـالـغـذـلـانـ مـتـهـمـ

وـفـيـ (ـالـابـانـةـ صـ/ـ ١٧٩ـ)ـ بـعـدـ ذـكـرـ الـبـيـتـيـنـ :ـ [ـ وـفـيـ (ـعـنـدـنـاـ)ـ بـدـلـ (ـعـنـدـهـمـ)ـ]ـ .ـ

قال المتنبي يهجو كافورا :

جـازـ الـأـلـىـ مـلـكـتـ كـفـاكـ قـدـرـهـمـ

فـانـهـ حـجـةـ يـؤـنـيـ القـلـوـبـ بـهـاـ

[ـ ايـ انـ الـدـهـرـيـ يـزـعـمـ اـنـ لـوـ كـانـ لـلـعـالـمـ مـدـبـرـ ،ـ وـكـانـتـ الـأـمـوـرـ تـجـريـ عـلـىـ تـدـبـيرـ ،ـ

لـاـ مـلـكـ هـذـاـ الـبـدـ]ـ .ـ

٢١ - في الصفحة ١٧٥ - رقم ١٤٦ :

دِعْصَنْ يُقْلِلْ قَضِيبَ بَانْ فَوْقَهْ شَمْسُ النَّهَارِ تَقْلِيلْ لِيَلَّا مَظْلِمَا

وَفِي (الابابة ص/٢٦) بَعْدَ ذِكْرِ الْبَيْتِ : قَالَ الْمُتَنبِّي :

غَصْنَ عَلَى نَقْوَىٰ فَلَةَ نَابِتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَقْلِيلْ لِيَلَّا مَظْلِمَا

[نَقْوَىٰ : مَثْنَىٰ نَقاً . وَهُوَ الْكَثِيرُ مِنَ الرَّمْلِ] .

٢٢ - في الصفحة ١٩٢ - رقم ١٦٩ :

مَمَا تَرَىٰ عَظِيمُ نُوحَ وَارْتَوَىٰ مِنْهُـا وَانْ بَقِيتْ عَلَىِ الْعُمَرِيْنِ

وَتَصْحِيحُ الْبَيْتِ عَلَىِ الصُّورَةِ التَّالِيَةِ مِنِ الْمُصْدَرِ السَّابِقِ الْمُتَنَبِّيِ ذِكْرُهِ

مَمَا يَرَوْيَ عَظِيمُ نُوحَ وَارْتَوَىٰ مِنْهُـا وَانْ أَبْقَتْ مِنَ الْعُمَرِيْنِ

٢٣ - في الصفحة ١٩٣ - نفس القصيدة :

وَالَّيْـ كَاسْكَمَا عَلَىِ مَا خَيَّلَـتْ بِالْبَرِـ مَعْجُونَا بِمَاءِ لَعْنِـ

وَتَصْحِيحُهُ عَلَىِ الصُّورَةِ التَّالِيَةِ مِنِ نفسِ الْمُصْدَرِ :

فَاتَـيْـ كَؤُوسْكَمَا عَلَىِ مَا خَيَّلَـتْ بِالْبَرِـ مَعْجُونَا بِمَاءِ لَعْنِـ

٢٤ - في كتاب (فضول التماشيل في تباشير المرور) لابن المتر [م. مجمع اللغة العربية

بدمشق ١٤١٠/١٤١٠] ص/١٢٠ ما يلي . وَذَلِيلُ شاعرِ الشَّامِ [وَهُوَ يَعْنِي دِيكُ الْجَنِ جَرِيَا

عَلَىِ عَادِتِهِ فِي الْكِتَابِ] :

نَادِيَـتْهُ وَرَدَا الظَّلَامُ مَعْطَـ

قَمْ نَحْسَهَا حَمْصِيَـةُ فَالْغَيْرُ مَا

فَاجَابِـنِي وَلِسَانِهِ مَتْفَـ

وَهَذِهِ الْأَبْيَـاتُ لَيْـسُـتْ فِـي الـدـيـوـانِ . وَالـثـانـي مـنـهـا فـيـهـ خـطـاـ كـلـمـةـ (نـحـسـ) وـالـصـوـابـ

(نـحـسوـ) وـالـجزـءـ الـأـخـرـ مـنـهـ غـيرـ مـفـهـومـ . وـالـمـطـنـونـ أـنـ مـا يـصـدرـ عـنـ مـجـمـعـ الـلـغـةـ يـكـونـ

مـرـجـعـاـ خـالـيـاـ مـنـ الخـطـاـ وـالـأـبـاهـامـ .

٢٥ - في الصفحة ١٩٥ - رقم ١٧٥ :

وَقَالَ فِي مَرْضِ حَبِيبِهِ :

يَا لَيْـتْ حـمـاهـ بـيـ كـانـتـ مـضـاعـفـةـ

فـيـصـبـحـ السـقـمـ مـنـقـولاـ إـلـىـ جـسـديـ

يـوـمـاـ بـشـهـرـ ، وـانـ اللهـ عـافـاهـ

وـيـجـعـلـ اللهـ مـنـهـ الـبـرـ عـقـبـاهـ

وقد وقنا على الأبيات التالية في ديوان أبي نواس (تحقيق أحمد عبدالمجيد الفزالي)
من منشورات دار الكتاب العربي - بيروت / صفحة : ٣٤٨ :

ورداً بوجنته ورد لعمّاه
يوماً بشهر ، وأن الله عافاه
ويجعل الله منه البرء عقباه
فقال لي : مثلما تهواه أهواه
وكيف يذكره من ليس ينساه ؟

قد حمَّ من أنا أحمي فافقده
يا ليت حمَّاه لي كانت مضاعفة
فيصبح السقم منقولاً إلى جسدي
أقول للسم : كم ذا قد لهجت به ؟
خلفت للسم : أني لست أذكره

٢٦ - في الصفحة ١٩٧ - رقم ١٧٧ :

وقال يغزل :

ما تصنع الشمس له قيئاً
إذا رأوني بعلهم حيثاً
ما صنع البين به شيئاً

بانوا فصار الجسم من بعدهم
بأي وجه اتقاهم
وما جوابي اذا تقول العدا

ووجدنا الأبيات التالية في ديوان ماني الموسوس (طبع وزارة الثقافة بدمشق)
صفحة : ١٠١ :

وقال في النغول من شدة الوجه :

لا تبصر العين له قيئاً
إذا رأوني بعلهم حيثاً
ما ضرك فقد لنا شيئاً

غابوا فاضحى بدنى بعلهم
بأي وجه اتقاهم
واخلجتا منهم ومن قولهم

* * *

وفي الختام لا بد من التنبيه على أن ما أخذته المتتبلي من معانٍ ديك البن وغيره من الشعراء ، لا يغضن من قدره ، فهو - كما شهد له فيلسوف المرة « فخر الأمة العربية وفيلسوف الشعراء ، وشاعر الفلسفة » . على أنه كان يكسو تلك المعانٍ حلاًّ من الألفاظ رائعة الحسن ، ويصوغها في قوله من البلاغة ،عجز عن مثلها أصحاب تلك المعانٍ وهذا سارت أبياته وذاعت ، وحملت أبيات غيره .

ثم إن المعانٍ مشتركة بين الشعراء قد يفهمون وحديثهم ، وهم إنما يتفاوتون بمعنوية الألفاظ وبلاهة التعبير ، كما أن أكثر الشعراء يحفظ الواحد منهم عشرات الآلاف من الأبيات لمن سبقه ، فتترسخ المعانٍ في خاطره وفي عقله الباطن ، فإذا ما أخذ في النظم اثنتال على تلك المعانٍ ، فيصوغها في قوله وأسلوبه من دون أن يدري أنه مبتكرها أو أنه حافظها

فتنتطبع بطلايمه وتنسب اليه ، وقد يضفي عليها من افكاره زيادة وتبيانا فتصبح صاحبها كما جرى لأبي نواس حين قال :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
فقد سبقه الاعشى الى معنى الشطر الثاني من هذا البيت في قوله :
وكاس شربت على لنة واخرى تداویت منها بها

لكن النواسى أتى بمعنى جديد في الشطر الأول ليس في بيت الأعشى ، وهو معنى قائم بذلك ، والبس المعنى الوارد في بيت الأعشى حالة من الالفاظ ذات الجرس الموسيقي مما جعل قراءتها غناءً ، فإذا ما قرأتنا بصوت مسموع :
« واخرى تداویت منها بها »

ثم قرأتنا بعده :

« وداوني بالتي كانت هي الداء »

ظهر ذلك جلياً ، وعرفنا سبب سيرورة بيت أبي نواس على كل لسان ، وحمله بيت الأعشى .

وما ذكر أخذ المتنبي معاني ديك الجن الا للاشارة بقيمة شعره ، وعلوه كعبه ، فمن الفخر له أن يستحسن معانيه شاعر عظيم كالمتنبي ، كما لا يضر المتنبي أن يأخذ معنى سبقه إليه غيره ، فهو كما قال (البديعي) صاحب كتاب (الصريح الشبي عن حيشة المتنبي) : « والمتنبي وإن أخذ بعض معاني الأبيات التي أوردها (العميدى) [وهو صاحب كتاب الآيات عن سرقات المتنبي] فقد زاد من الفاظه ما يحلو سماعه ، وتعذب أنواعه ويلطف موقعه على القلوب ، ويصل إلى النفوس بلا تكلف ، ويمتزج بالأرواح بلا تسف ، وكساها من عنده ملاحة ، فاستوفى شروط الكمال كلها » .

ورحم الله آيا الطيب فقد ملا الدنيا وشغل الناس منذ عصره حتى الآن . وهذا رصيفه ديك الجن يشفلهم في هذه الأيام .

دمشق - خير الدين شمسى باشا

□ المراجع :

- ديوان الأعشى .
- ديوان أبي نواس .
- ديوان ديك الجن .
- ديوان المتنبي (المعرف الطيب) .
- لسان العرب .
- ديوان أبي تمام .
- الآيات من سرقات المتنبي .
- ديوان مانى المؤوسس .
- حصول التمايل في تباشير السرور .
- الصريح الشبي عن حيشة المتنبي .